samiha khrais

سميحة خريس



دفاتر الطوفان

رواية

دفاتر الطوفان

رواية

سميحة خريس

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/٥/١٦٠٦)
خريس، سميحة علي
دفاتر الطوفان/سميحة علي خريس – عمان: دار نارة، ٢٠٠٩
ر.أ : ٢٠٠٩/٥/١٦٠٦
الواصفات: الروايات العربية/العصر الحديث
(ردمك) ISBN 978-9957-475-09-3

لوحة الغلاف: سلام كنعان
إخراج وتصميم: حنان حسن ذياب

دفاتر الطوفان

رواية

سميحة خريس

NARA
نارة

إن تطابقت أسماء الشخوص مع آخرين عاشوا في عمّان في الحقبة ذاتها، فهم أنفسهم، وإن تباينت فإن هؤلاء قوم سقطوا من السماء، ولم تتلقفهم الأرض.

أعوذ بربي أن أرى الشام بعده وعمّان ما غنّى الحمام وغردا

الخطيم العكلي

حديث الحرير

حرير كريب أحمر! ! هذا خلط لا أحبه، بيني أنا الحرير، وما يسمونه الكريب، أو الساتان، يمكنني فهم هذا الخلط المعيب حين يقع من بشر عاديين، أولئك الذين تتساوى لديهم الأشياء، ولا يدركون دلالة الأسماء، أما أن يكتب تجار الأقمشة مثل بدير أو الحمصي أو أبو قورة في دفترهم عني بأني كريب، فهذا لا يغتفر، على الأقل لرجال خبراء وذواقة أمثالهم، إذا وقع هؤلاء في ارتباكات التوصيف فانهم يخفون خلطهم وافتقارهم إلى الدقة وراء خطوط رشيقة خطوها بحرفية على الورق بفضل معلمي المدارس ودفتر الخط المسطر، سيسمونني الحرير الكريب بإجحاف، تماماً مثلما يقع الجغرافيون في خطأ توصيف طريق الحرير فيرسمونه هابطاً عبر البلاد الحارة، الحرير الذي يفهم حكماء الصين ماهيته، والذي انحدر من الشمال قاطعاً بلاد الثلج وصولاً إلى أيسلندة، حيث يمر طريق الحرير حقاً، لينتشر اسمه الأيسلندي بعد ذلك في الدنيا، "سلك"، هو أنا، المختلف، العسير على الفهم، والمرتبك في صفاتي، الناعم الذي لا يسهل الإمساك بي، عندما وصف الأعراب كل ما يشف بالحرير، جانبوا الصواب، الحرير كيان رقيق، ولكنه ثابت واضح لا يحتمل اللبس، لا يشف ولا يصف، هو كينونة بذاته، يمنح لابسه صفاته، لا يقبل هذا الخلط المجحف الذي يحدث كلما خيل لمرء اشتهى الحرير بأنه عرفه في سواه، لا يعرف الحرير إلا بنفسه أو بالعشق، لهذا شهق قلب المحامي عبد الرزاق الشعيبي وكأنما شج إلى نصفين، بمجرد وقوفه في دكان أبو قاسم الحمصي، هناك حيث تخزن كل الأقمشة باحتراف يحترم الحالة، ولا يخلط الحابل بالنابل كما يفعل معظم مبتدئي عمان الذين قدموا إليها يجربون حظهم، حاشرين الأقمشة والملابس الجاهزة مع أخرى من البضائع في مخازنهم الصغيرة، من الصعب ادراك مسألة عشق الأقمشة للروائح، ولكن النساء سيدربن مجموع التجار الذين

يجربون ويتعلمون سريعاً، نساء عمان الشركسيات والشاميات والأرمنيات والسلطيات والنابلسيات، سيرفعن أطراف الأقمشة إلى أنوفهن، ثم يعدنها في حركة نفور واضحة، وقد اكتشفن رائحة الزعتر والسمن البلدي، تلك أخطاء المبتدئين التي يتجاوزها التجار سريعاً، وسرعان ما ينشؤون مخازن للقماش وحده كمادة يجري تخزينها بتقدير عال.

ذلك النهار دلف المحامي عبد الرزاق الشعيبي إلى مخزن أبو قاسم الحمصي الشهير عند الالتفاف في شارع الملك طلال، قلب الأقمشة الملفوفة على بكرات من عظم، شهق فؤاده ولكنه تظاهر بالثبات،لم ينظر نحوي مباشرة إلا عندما وصلني، فك بهدوء مصطنع الدبوس الذي يثبت ما يقارب مائة متر مني إلى البكرة، رفع الدبوس بإبهامه والشاهد والوسطى، فانفرطت في سيلان سريع، تلقاني بكامل ذراعه فلم ألامس الأرض، ماج طرفي في الهواء، وراح الشعيبي يبتلع بهائي بعينيه وهو يكذب هذا النور المنبعث من احمرار النار التي هي لوني، لا يصاب الرجال عادة بالجنون لدى مشاهدتي، يحدث هذا للنساء، عاملات النسيج في معامل الحرير ينتهين إلى العصفورية غالباً، أما الرجال فيشتعل منهم الخيال، كنت استرخي واتثنى فوق ذارعه وعلى خياله، الحرير بما هو قماش لا يعني للرجل شيئاً إذا لم يعبئه بحرير من لحم طري، هكذا كنت أستلقي على ذراعه، وخياله يحشر هيكلها اللدن الأبيض في ثنياتي، قال للحمصي:

– قص لي عشر متار.

تعجب الحمصي:

– عشرة!!

تلجلج صوته الخافت:

– خُبرك..يزيد ولا ينقص..

قال الحمصي:

– أه.

انخفض الصوت أكثر:

– كل خمسة في رزمة لحال.

ردد الحمصي:

– أه.

صرت قطعتين لفتا في رزمتين من الورق المقوى المتين، دخل بي البيت متسللاً، رفع فراش السرير الصوفي، ودس قطعة هناك، بينما دفع بالثانية ليد الحجة فضية، يدها خشنة، ولكنها مررتها بإعجاب تتحسس نعومتي، قالت:

– شو هذا؟؟ يمه يا رزاق.. حرير أحمر! ! بعد الكبر والشيب، دلالهُ مش عيب، يلا.. باساويه مخدات للصالون، يمه هاذ مش إلّي، الله يجازي بلايشكْ.

لكن الحجة البدينة السمراء، غافلت ولدها واختلت بي في حجرتها، أبعدت غليونها الطويل عن المساحة التي مدت فيها قماشي، ثم بعجل السارقة قصتني إلى قطعتين، يمكنها أن ترتدي ثوباً أحمر تحت ثوبها الكبير، لو أنها حظيت بالأحمر الفتان قبل وفاة زوجها لما مات، بدا لها الاحتمال مضحكاً، فضحكت مستغفرة ربها، كان سيموت على أية حال، فمنذ تزوجته وهو شيخ طاعن بالسن، ولكنه منحها ولداً ولا كل الأولاد، زينة الشباب، بكت عندما فارقها وحيدها عبد الرزاق إلى دمشق، وزغردت عندما عاد محامياً، يمكن لمجمل الأفراح أن تتجمع وهي تنظر في مرآة الحرير الأحمر، فترى ما يستحيل الإقرار بأنه هناك حقاً، أمر في مخيلتها منذ كانت تتقافز بين مزارع السلط وروابي عمان، أمر قاد امرأة أرملة موشومة الذقن والخدين لصنع رداء للنوم، كشكشته بالدانتيل، وأخفته في قعر صندوقها المطعم بالصدف، لا تجرؤ الحجة على الوقوع في هواي أمام

عيني ولدها الشاب الذي نام فوق القطعة الثانية منتظراً بشغف، ضغط بجسده القوي، وتقلب وشخر، ورحت أنمعس في المساحة الملغاة تماماً بين الفراش وحديد السرير الناتئ، لن أسامحه، ما هكذا يعامل الحرير.

عندما فردتني أنامل أسمهان، ارتعشت، أدركت العنف الذي تعرضت له، ولم تغفر له أن خبأني تحت فراشه، ونام فوقي، قالت له:

– يا فلاح، الحرير ما بنام عليه، بنام علينا.

لا أعرف إذا فهم، ما زلت أتوجع، وأسمهان وحدها بحسها الشفاف مثل دمعة فهمتني وسمعت صرخة النسيج الحي فيّ، أدركت أن بنت القز أهينت وأقسمت على تعويضي، مسدتني جيداً حتى اختفت آثار طعنات حديد السرير، ثم أعدتني لأصير رداءً للنوم، هذا التعبير مجرد تعبير، لأن النساء الذكيات مثلها يعرفن أن الحرير لم يخلق للنوم، ولكن لصنع عالم من الوهم حول النوم، فما بالك لو كان أحمر! ! لون الأنوثة المذهل.

عندما يجتمع صنيع يراعة القز الأنثى، وصنيع أنثى حشرة القرمز المجلوبة من الموصل، تمنح القرمزة المجففة للحرير لون الملوك الأرجواني، يمكن للدودة العبقرية أن تصير دواءً لرمد العيون، ووحده هذا البهاء القرمزي يمتلك الطاقة لعلاج الشرية التي تصيب الجسد، ولكن دهشة اللون لن تكتمل إلا بامتزاجه بأنوثة الحرير، والأنوثة تستلزم شرش الحلاوة لتختلط النبتة الملهمة بمسحوق الدودة الفذ، هكذا يمكن الحصول على لألا الأحمر، لون الدم وروح الجسد يقيم حواراً ذكياً مع البدن، في غمرة اللون الناري يمكن للجسد أن يسترخي ويستريح، بثور الشرية تحبس جنونها إذا ما تقدم جنون الأحمر، المرأة تطلق جنون الرجل إذا ما شاهد الأحمر، ومجمل الرجال التبس عليهم الأمر، ظنوا لفرط ما تتشظى رغباتهم لدى رؤية الأحمر أن الثيران أيضاً ملموسة باللون، الثيران لا ترى، توترها حركة المصارع دون أن تدرك بأن لون رايته حمراء، اللون يوتر المصارع

نفســه، وعلى الرجال أن يرتقوا في تصوراتهم عن ذواتهم، ليســوا ثيراناً، والأحمر لا يليق إلا بالعشــق، ولا ينســجم إلا مــع الأنوثة، عندما تغطس خيطــان الحرير فيه تتعمد ملكة القز بدماء ملكــة القرمز، الحرير أنثى، والأحمر أنثى، وأسمهان أنثى.

تأملتني نهــاراً كاملاً، لم يزعجها اللون الصارخ، الملعونة، تعرف أنه لون لا يليق إلا بهكذا قماش، فجأة اســتعادت المرضة اللعوب تاريخ طفلة بريئة كانتها في دير الراهبات في بيت لحم قبل أن تهبط عمان هاربة، يوم كانــت الراهبة الأم تــدرب أصابعها على إنجاز المطــرزات، رفعت الغطاء عن ماكينة الســينجر، واســتعادت مهارة كادت تنساها في غمرة انشغالها بمهارات مهنتها، قالت وهي تضع شفرتي المقص حول وسطي:

لن أرتديه إلا له.

تتحرك علاقتهما في نطاق شائك من الشد والجذب، من الإقبال والإدبار، وتراهن هي على غرام لا يحسب للتقاليد، ويداري أمالاً قابلة للموت يوماً بعد يوم، لم تحمل أسمهان حقداً على فضية التي تراها تركب عربة الشركســي جارَّة وراءهــا ثوبها الفخم الثقيل، محتلة بهيكلهــا الرجراج كامل مقعد العربــة الخلفي، رافعة رأســها الكهل المعمم بثقل الحطة الســلطية، كلما لمحتها راحــت ضربات الدربكة توقع في أسماعهــا وكأنها تغني.. (كلهم عمايــم خضر يا ما أحلى قعدتهم، وامتى يصير العصر وأصير كنــتهم).. لو أرادها الســيد المحامي، وأفصح عن بغيته، هل كانت أمه الرحيمة قادرة علــى الوقوف في وجه إرادته!! أحيانــاً ومثل نغزة دبوس يخطر في ذهنها أنــه لا يعتقد أن حبيبتــه تليق به زوجة، تصرف عنها هذا الوهم الموجع، وتحلــم بالارتباط بــه، بأطفال يركضون في صحن بيتــه، وبمناكفات عابرة مع حماتها المهولة، تحلم دون أن تجرؤ على الكشــف عن حلمها، أو طلب تفسيره أو تحققه.

تبكي في وحدتها عندما يغيب عنها مطولاً، وتفسح المجال للهواجس تنتابها، لعله اكتفى بكونها عشيقة جسورة، قادرة على التهور، متحررة من المخاوف تجاه أهل بعيدين لن يظهروا فجأة، وليس هناك من رقيب يحتج ويحاكم، في كل مرة يصعد بجسده الفارع درجات العلية الخشبية، وتسمع صرير الخشب المرتخي عند مسامير الحديد، وايقاع خطواته التي افتقدت الحرص، تعرف أنها متهورة عنيدة، وأنه أيضاً لفرط التعود والآمان تناسى أمر الحذر، لعله لهذا بات يفتقد لذة التحدي، لعل تمتعه بجسدها يبرر امتناعه عن السعي للارتباط بها حسب عرف المجتمع، فمن يسعى لإمرأة نال وطره منها، أو كاد!! لعل اختلاف الديانة مشجب مناسب للتوقف عند حد، أو هي مهنتها!!

المهنة التي تختلط في أذهان العامة بما يمكن تسميته بالخادمة، تخرجها مهنتها ليلاً أو نهاراً من البيت مرتدية المريول الأبيض، حاملة حقيبة محملة بالإبر الحادة، وأدوات الحقن الشرجية، وأمبولات التطعيم، ولفائف القطن والشاش وزجاجات الاسبيرتو والميكركروم المطهر واليود، تعرف ماذا يتوهم الخلق حول شابة وحيدة تسكن العلية فوق منزل الدكتورة الإنجليزية برنل، تلك التي يغفر لها،كونها إنجليزية فقط، جولاتها المسائية ورفقة الرجال، والمبيت في بيت لا ذكر ولا كلب يحميه، تعرف أسمهان أن ساكنة الدور الأول السيدة شحرخان ستتبع زوجها العجوز تامبي فجر كل يوم رغم ثقل بدنها، حتى تتأكد من اجتيازه الدرجات إلى الطريق، وتسمع صرير عجلات عربته التي يربطها في المخزن أسفل العمارة، وقد انطلقت محتكة بالحصى والحجارة، سترفع ناظريها إلى الأعلى، وهي عائدة إلى منزلها، فإذا ما تأكدت أن الدكتورة الإنجليزية غائبة، كذلك المرضة النصرانية، وأن ليس هناك في الأعالي إلا نبتة المجنونة المتسلقة تلقي بلونها البنفسجي فوق الحيطان وقد بللها الندى،

فإنها تدخل بيتها آمنة.

شرحت الراهبة ماري روز لأسمهان مخاطر سكناها وحيدة في مدينة تكتظ بالغرباء، ويكثر فيها القيل والقال، عرضت عليها النوم في المستشفى، ولكنها خافت أن يكون الأمر مجرد محاولة ملساء، ومناورة جديدة لإعادتها على درب الرهبانية، تملصت بهدوء ودون مناكفة، واكتفت الراهبة أن دعت لروحها بالسلام أمام جسد المسيح المرفوع على الصليب في الدير، لم تكن أسمهان ناكرة لعطف الراهبة الكبرى، ولا لعناية الطبيب الإيطالي، ولكنها عندما تعترف، تفضل الذهاب بعيداً، إلى الأب جريس الساحوري في المصدار، حيث تجلس في صالة منزله، وتشعر بالسلام الذي يوفره الجو العائلي، تبكي أحياناً دون أن تفصح، ويكتفي الساحوري بدموعها، يقول لها أن الدموع تغسل الذنوب، لهذا تذرفها غزيرة في وحدتها، أما في الكنيسة فإنها تخشى الاقتراب من المذبح، إذ يخيل إليها أن الله عازم على محاكمتها هناك.

الأحمر الحريري يستخرج من أعماقها كل هذه الأفكار مطلقاً العنان للدمع في عينيها الواسعتين، ومانحاً إياها القدرة على ما قد يفسره الآخرون في لحظات متباينة على أنه الشر، دموعها تساعدها على تسخير روحها للأفراح القادمة، وشحذ مخيلتها بأحلام تبدو مستحيلة، لما رأت بهاء الأحمر في سحر الحرير ماجت كأنثى ذكية، وراحت تعمل إبرة السينجر في النسيج وتعيد تشكيله، ولأنها لا تملك قطعة من الشيفون فقد اكتفت بي، هذه الأسمهان فهيمة، لا يجدر خلطي بما هو أدنى مني، كما فعلت الحجة فضية، لا يجدر أيضاً الإكثار من القص والدندشة، أنا فقط،كما أنا، كفيل بالجمال.

أخيراً أدخلتني من فوق شعرها الكثيف وعبر رأسها الفتان، فانهمرت فوق بدنها، تأملتني ملياً في المرآة، حلم عبد الرزاق الشعيبي الذي تراءى

لــه في دكان الحمصــي اكتمل في زجــاج المرآة، انتظرت معهــا ليلة كاملة، أخرجتــني مــن خزانتها أربع مــرات، وعانقتني، وغنــت بصوت مرتفع مثل مجنونة، لعلها وقعت في خلط بســبب مــن اسمها الموحي المغري الذي تحمله حسناء بدأت تغزو اسطوانات الجرامافون وشاشة سينما البتراء، لو تجرأت وأخرجتني مرة خامســة لانتهت إلى العصفورية، هناك في خزانة الملابس لبّدت أنتظر شــهقته، دمعته التي لم يتمكن من ردعها عندما رأى الحلم حقيقة.

يمكــن لــرزاق أن يذرف الدمع عندمــا يتمكن منه اليقــين أن الممرضة أسمهان حرام عليه، هكذا فعل أيضاً عندما غمرت جسدها بالحرير، تزغلل أحمري في عينيه، بملء كفيه اكتشف نعومتي وملمسي البارد، وهو يجذب خصرها إليه، وكان عليه التقلب عليها وعليّ، ليكتشــف أني أنا البارد من الظاهر، دافئ من الداخل، التقط بســرعة حرارة جسدها، أنا قماش أنثى، ألا تمــوت اليراعات الذكر وتصير طعامــاً للطيور؟ ووحدي أنا الأنثى أصير الحرير! كافأتني أسمهان بلياليها الخالدات، في الأمســيات التي تتوحش فيها تلك الرقيقة ويتصرف العاشــقان بلهفة شرســة، تتجاهلني هي بحثاً عنه، هو أيضاً يضيق بي، يتم إلقائي أرضاً، وحســب عزم ذراعه أو ذراعها أتطــوح مهفهفاً، كما لو أن نغماً يتهاوى في فضاء الحجرة قبل أن أنثال عند زاوية الســرير أو باب الحجرة، في أمســيات أخرى تكون أسمهان متجلية وخبيثة في آن، يخيل إليها أن جســدها العاري أجمل من الحرير، تخلعني على مهل، برشــاقة، بدربة، وتتمشــى في الحجرة بأنــاة وهي تنظر إليه وكأنها لا تراه، وعندما يصرخ ملهوفاً منادياً باسمها:

– أسمهان.. أسمهان..

تمد ذراعاً ماكراً، وتعلقني على المشجب، هكذا كأنها ليست على عجلة من أمرها، تتمشــى نحوه عارية، ووحدي على مشــجبها الخشــبي أسمع

صوتيهما، وألتهب، لوني يتأوه، يحشــرج، يموء، وحدي على المشــجب المنســي، أمارس العشــق بكل تاريخي، ابنة القز تصــير ابنة الريح والمطر والعشب، والأحمر يفور، يتقرمز مثل نار موقدة، مثل دودة حية لم تسحق وتنثر أبداً، العاشــقان يكبحــان جماح الرغبات، يســيطران على وجدهما والاندفاع، يحتالان على الممارســات وصولاً إلى متعة مبتورة، يرابطان عند تخوم العذرية، يحافظان على عفة اللحظة الأخيرة، ويوشكان على البكاء، تنهدم أسمهان العذراء على الســرير، ويشــد هو بكفيه رأســه الخالي من الشــعر، يتأرجح متأملــاً في مكانه.. الصمت وأنفاســهما في المكان، ووحدي الأحمر، الخليع، الخالع، المخلوع، أمضي إلى نشوتي حتى النهاية.

حديث الحلقوم

وصلت الراحة الطرابلسية إلى عمان لأول مرة ذائبة.

كان صيفاً عادياً، لكنه آب اللهاب، وقد ألقى الحاج تقي الدين أبو عبد الرحمن بي في المساحة الأمامية من مقدمة السيارة، فسلطت الشمس حرارتها عليّ طوال الطريق من القدس إلى عمان، وصلت في سيارة أجرة فارهة، وتلقفت حسيبة الصندوق الخشبي.

قالت لزوجها:

- الصفط زي النار.

ثم وجهت كلماتها لابنها مباشرة، في حين كانت تقصد اليتيمتين اللتين لاحظتا ما جلبه عمهما:

- لا حد يقربهُ تا يبرد، مش تنفجعوا زي اللي عُمره ما هو شايف خير.

الصفط المفتوح يبترد في هواء البيت العماني، مغطى بناموسية صغيرة، ومرفوعاً إلى منخل معلق في سقف الحجرة، راحة طرابلسية هنا في عمان.

قبل أشهر طلب الحاج تقي الدين كمية مني، ولكن صانعي أرسل نوعية لا ترتقي إليّ، استخسر الحاج دفع قروش فائضة عن ثمن الراحة التي عهدها تأتيه من بيروت أو دمشق، فقرر أن لا يعاود الطلبية، ليس صانعي حسن الحلاب الطرابلسي بأشطر منه حتى يغشه، ولطالما اعتقد أن الراحة واحدة في الشام وطرابلس وبيروت، ولكنه عندما تلقى دعوة الحلاب عن طريق تاجر قادم من لبنان للحاق به في القدس في افتتاح محل الحلويات الجديد عند باب الخليل، قرر الذهاب، فرص المجاملات بين التجار مفيدة بلا شك، سيزور أريحا في طريقه، ويسهر سهرة طرب، ثم يلتقى بي في القدس، هكذا وصلت إلى يديه، صندوق من الراحة الطرابلسية عالية الجودة أعده الحلاب خصيصاً ليبهر أهل القدس الذين تعودوا على

الكنافة النابلسـية، والمشـبك، والزلابيا، والذين عارضوا فتح محله بداية الأمـر، وحاولـوا عرقلته إلى أن تدخل أمين الحسـيني، النـاس مقامات، وشهرة الحلاب طوت البلاد، ووصلت إلى الحسيني، أزعم أن الهدية القيمة مـن الراحة التي سـبقت وصول الحـلاب إلى القدس كان لهـا أكبر تأثير، الهدايـا تصنع المسـتحيلات عندما تمتاز بخصوصيتهـا، لعل هذا ما جعل قلب حسيبة يدق بفزع عندما أفرز زوجها صندوقاً باسم الأرملة نجمة، وفي محاولته تبرير الأمر، تمتم:

- بينا مصالح بالسوق.

ليس من السـهل تصور ذلك السـحر الذي توقعه حبة مربعة لدنة من الراحة بآكلها، إلا إذا كان لدى المرء مقدرة على تخيل العملية منذ البداية، وقبـل أن أعي محيطي كنت أسـترجع تاريخي، عندما أكون دقيقاً وسـكراً ناعمـاً، يقرفص الحاج حسـن نفسـه أمام المرجل ويحـرك المغرفة، وحده يستطيع تقدير الوقت اللازم لتعقد الراحة، ثم وحده، لا يسمح لأي مخلوق بمشـاركته تلك المسؤولية، يقدر عدد النقاط التي سيسقطها من محلول روح ماء الزهر في المرجل، ويتنهد عندما تفوح الرائحة، سيسـكب الصانع ولهه وأسرار مهنته في الصواني المتسعة، ويصبر حتى تبرد تماماً، في هذه المرحلة سيستدعي ولده عوني:

- تعال يا بـيي، قُص منِيح.

ويقـص عوني ببراعة، لا يسـتطيع أن يقدم عرضاً تافهـاً بيد رخوة أو سـكين مثلومة، فعيني الوالد تتابعان السـكين حتى تنتهي الصينية كلها إلى مربعات، تأتي أم عوني بصواني الدقيق، وحسـن الحلاب حريص على خلـط السـكر الناعم بالدقيق الأبيـض المنخل، لا يرتضـي بصنف تعتريه الشـوائب، إنها سمعة الراحة الطرابلسية، وسر المهنة الخاص لمنه تلاصق الحبات، سيقول لعوني في بعض الجلسات التي يسمح له بالتبسط أمامه، أن

الراحة اشــتقت اسمها من راحة اليد التي تعمل كالميزان، ومن راحة البال التي تفســح مســاحة للهناء في النفس، عندما تضع قطعة الملبن بين أناملك وتضغطها لا يجب أن تشــعر بمقاومتها، ولكن لا تســمح لها بأن تنهرس أبداً، إذا حدث هذا أو ذاك، اسكب كل طبختك، وأعد عقدها مجدداً، إنها سمعة الراحة الطرابلســية، تلك التي يجب أن تمضغها براحة، وأن تذوب بفمك دون أن تختفي كالهلام، ولا تلتصق بين أسنانك، يجب أن يفوح عطر رائحتهــا وروحها في ناخريك بمجرد أن تنقطع بين أضراســك، هذه أيضاً أســرار ماء الزهر الموزون، المحســوب، المقطر بحيث يظل أبيض نقياً، إذا اصفر عنق الزجاجة، أدلقها وتخلص من محتوياتها، وأعد التقطير، يجب أن تمر بخسارات كثيرة قبل أن تدعي أنك تجيد صنع الراحة الطرابلسية، يتعلم عوني بســرعة وصمت، بالطبع يكتظ المتجر بحلويات أخرى، كعك، ومعمول، ومدلوقة، وحلاوة الســميد بالقشــطة والعســل، وقوالب الفستق واللوز المغطســة بمعقود الســكر، ولكن الراحة هي الملكة، هي التي يتنهد حســن الحلاب وهو يصنعها، وعندما تتجمع العائلة حول صواني الدقيق، يغطــون الحبات الوردية الفاتحة أو البيضاء، في الدقيق، ويعيدون صفها في علبها الخشبية، يمد أحمد يديه مساعداً، ويضحك جده:

- لا تعفر الطحين يا جدو، لا توسخ ايديك وثيابك.

أحمد الذي هو قطعة مصغرة عن جد مربوع القامة خفيف الوزن، رزين الحركــة، يغطس حبة الراحة بالطحين، ويقلبها كما تفعل جدته، ويقول الجد:

- يا جدو الإيد ميزان، إذا كثرت الطحين نزعتْ منظر الصفط، ورخصتْ الهيئة، إذا قللته لزقت حبات الراحة ببعضها.

- قديش حط يا جدو؟؟

- ما فيني قول، إيدك ميزان، ذوقك ميزان.

هكــذا كان آل الحلاب يمنحونني محبتهم، وعندما ربط حســن العلب الخشبية بالشرائط اســتعداداً لنقلها إلى القدس مفصحاً عن سعادته بالنصر الذي جاء مــن اقتحامه المدينة العتيقة غطى الجانــب الذي رص فيه علب الراحة بفوال قطني ناعم، قال:

– الشمس ما بتسوا للراحة.

تلك الشــمس التي أذاقــني إياها أبو عبد الرحمــن العماني، ربما لأنه حصل علي على ســبيل الهدية، في حفل افتتــاح المحل، تذوقني بداية من الصحون المفتوحة على سبيل الاستضافة، وتلمظ، قائلاً:

– هذى غير اللي وديتهَا إليّ أول مرة لعمان.

أجابه الحلاب:

– وحياتك كله واحد، وما بغلى عليك غالي.

– لأ.. هاي غير، هه، هاي بتستاهل تكون أغلى.

– وحياتك الغالي للغالي، أنت بس سجل شو بدك، وبوصلك لعمان بعد رجعتي لطرابلس.

تناول تقي الدين» أبو عبد الرحمن«صندوق الهدية ووزنه بكفيه، خبرة تاجر، للحق، ابتاع صندوقاً إضافياً من حر ماله، كان معجباً بصانعي، قال في أعماقه..

ما أشــطره حسن الحلاب، بســاوي أحسن حلقوم في الشــام كلها، إذا رزقني الله بولد أفلح من الهبيله عبد الرحمن سأسميه حسن، بس من وين؟؟ خاف الله المرة عقمت، يمكن لو! ! نسوان اتنين! ! أعوذ بالله من غضب الله، اللهم اخزيك يا شيطان.

أنزلــت الزوجة البخيلــة الصفط المعلق في فضاء الحجــرة، قدمت حبة لابنها، وحبة لليتيمة هيام، وأخرى لشــقيقتها اعتدال، بحرص وعدالة، حســبت حســاب زوجها والزائرات المحتملات، لم تجادل في شأن الهدية

المقترحة، ولا سـألت عن فحوى تلك المصالح المشـتركة في السوق بين الحج ونجمة، ولكنهـا ظلت تردد بعصبية وغضب حبيـس إن كمية ما يحتويه الصفـط الواحد لا يكاد يسـد الحاجة، خبأت ما تبقـى منه، وقالت بحدة ناظرة صوب باب المطبخ حيث تجلس الشقيقتان، وحيث رمت هيام بحبتها بين قشور البصل ومخلفات السلطة التي قطعت للتو، في حين راحت اعتدال تذوب حبتها على مهل فوق لسانها

جلجل صوت حسيبة:

- لا حدا يمد ايده، بكسرها.

رمت هيام بصحن الألمنيوم المدهون بحدة إلى الأرض، ولم يمنع دورانه، وصوت ارتطامه بالبلاط عبد الرحمن من التقاط الحبة الملقاة في كيس القمامة زاعقاً:

- بترمي الحلقوم!!! سـبحان الله.. كانه بصح لوحده زيك تُوكل هيك نعمه.

تمد هيام لسانها تهينه وتتحداه هامسة:

- ما ظل في الخم غير ممعوط الذنب..

بينما عبد الرحمن يشد ضفيرة شعرها، وأمه تشتمها، وتهيل اللكمات على كتفها المحنية بفعل الشد، وبينما هي تصرخ:

- اقطعوا راسي.. ميله عليكم وعلى حلقومكم.

أما اعتدال فقد نظرت باستهانة هامسة:

- بتزهقوا.. مثل الشحمة والنار.

انصرفـت اعتدال إلى خيالاتها، وقد غمرها إحسـاس عميق أن مزاجها يعتـدل رغم ما يحيط بها من عنف، أدركت وهي تلوك الحبة الحلوة التي لا تلزق ولا تذوب، أن تلك الحلوى الفريدة مسـؤولة بقدر ما عما تشـعره، متعة غامضة تنتشر في فيها، وتصعد إلى رأسها.

حديث الأحذية

حبستنا السيدة نجمة في خزانتنا الخاصة، ليس هذا بالأمر المزعج، فنجمتنا المصون امرأة غير عادية، فقدميها نظيفتين دائماً، تغسلهما بصابون اللوكس في الوقت الذي تستكثر باقي النساء هذا الصابون النادر على وجوهن، أما نجمة، فتخصص الصابون النابلسي للوجه لأن زيته يحافظ على البشرة ناعمة، وتغسل القدمين بصابون لوكس، لأن عطره سيقضي على الرهق الذي يصيب أسفل القدم فيجعلها طبقة من الجلد الميت، ويقود إلى تعفن قد نعاني منه نحن، هذا لا يحدث لنا، أحذية السيدة (أم غالب نجمة)، إنها تدللنا، تغطينا بالبفت القطني، حتى لا تتسرب الأغبرة إلينا، ولكنها أيضاً مغرمة بالتجديد، هناك عشرات الأحذية مرصوصة بذوق عال، تضع الكنادر المخصصة للزيارات جانب بعضها، ثم الصنادل الصيفية المفتوحة، وبقدر ما تحب الكنادر المغلقة ذات الكعوب الرفيعة الحادة فإنها تقدر الصنادل المجدولة، التي تظهر أناقة أظافرها وبياض قدميها، تأتي بعد ذلك الحفايات، وهناك عدد غير متوقع من القباقيب، وقبقاب السيدة نجمة مختلف، إنه من ساروجة، خشب نقي خال من العقد، صنفر بصورة دقيقة، فلمع بفعل احتكاك اللباد بالخشب، وسيّر بعد ذلك بجلد فاخر نظيف خال من الروائح، أما لماذا تفاخر هكذا بمجرد قبقاب، فتلك حكاية ربما لا تصدقونها، لأن راويها قبقاب، أو مجموع أصدقائه من الأحذية المدللة.

بعد وقوع الهزة اقتاد أبو حمزة ابنته الوحيدة نجمة من كتّاب خيرية فاخر، الواقع مقابل البريد، قدم ظهراً إلى الكتّاب، ووقف خجلاً بالباب هامساً باسم ابنته، فخرجت البنت بجدائلها المتراقصة فوق صدر ممسوح، هتفت:

– بابا!!

قال:

– غطي راسك والحقيني.

لحقت نجمة بوالدها، ولم تعد إلى الكتاب، قال لها:

– كتبنا كتابك على أسعد التاجر في معان.

صاحت البنت، ولكن صفعة أسكتتها، لا تذكر نجمة من رحلتها إلى معان عبر درب صحراوي إلا صندوق الأحذية الذي ظلت تتأكد من صلاح أمره فوق البغلة التي لحقت بقافلتها، كأنه الحلم البعيد، كأنها لم تأت بشيء معها من المدينة إلا الأحذية، ولأن الرجل الذي اقترنت به فرض عليها ارتداء الثوب الدوبيت الأسود خالياً من الزخارف والنقوش، فإن ما تبقى لها من رائحة عمان كان مجموع أحذيتها، هكذا تعلمت العروس أن تدلل ما ترتديه قدماها، وعندما ضربها زوجها لأول مره بحزامه الجلدي العريض، اختبأت في خزانتها مع الأحذية، وبكت بحرقة، يومها قرَّ قرارها على الانفصال، قال أبوها:

– ما بتفرحي بالطلاق وراسي تشم الهوا، انتي مع هالزلمه تا يموت وإلا تموتي.

صرخت:

– يجعله يموت، والله ما بفرح مني بحداد.

ولكنها عادت إلى بيتها عندما أيقنت أنها حبلى في البطن الثاني، انتظرت المولود، لم تكمل بكرها لمياء العام عندما جاء غالب، غلبها الصبي، لا يكسر رأس المرأة إلا الولد، وغالب ثبَّت أمه بالوتد إلى بيت التاجر في معان، فكبرت فيه، لم يعد صدرها ممسوحاً، وصار كلامها أحلى، كانت تزداد جبروتاً ويزداد زوجها ضعفاً، إلى أن لعبت برأس الرجل الذي تنتظر موته لينتقل إلى عمان، وطاوعها، اشترى بيتاً في جبل عمان، وعمارة في شارع الرضا، ودكاكين في شارع السعادة، وأذعن لرغباتها، وأعراف أهالي عمان،

فسمح لها بارتداء الترواك المدني كارهاً.

أثـثت نجمة صالونـها بمقاعد من خشـب الـورد المصدّفة، وصارت تقيم صالونات الاسـتقبال النسـائية اسـبوعياً، فتدعو شـحرخان لتعزف على الاكورديون، وفايزة لتمتعهن بعزف على العود، صار لديها مكان ومناسبة لعـرض مقتنایاتـها مـن الزجاج الصيني الذي جلبته من دمشـق، كما صار بإمكانها اسـتعراض مجموعاتها من الأحذيـة الفريدة، تجلس رجلاً على رجـل تاركة حذاءها نهباً للعيون، وسـعت نجمة من خزانة الأحذية، ثم حدث ما اعتقدت أنها نسيته، مات التاجر أسعد، وتذكرت قسمها، ارتدت سـترة صوفية زرقاء، قالت إنها كحلية، ولكن النساء اللواتي ضمهن بيت العزاء تهامسن كلما تحركت من مقعدها:

– قال كحلية!! شـو الناس عندها عمـى ألوان!! الجرزايه زرقا مثل حبة الفيروز.

تعجبن من أسـاورها الذهبية تلوح في مرفقها تحت كم الرداء الطويل، وبانتهاء ليالي العزاء التي عرفت طعم الكنافة، جاء والدها شـبه غاضب، كأنمـا وصل إلى مسـامعه حديث الحداد باللـون الأزرق البهي، رفع صوته مؤنباً، أمرها بالعودة إلى بيته كما يجدر به كأب صاحب سلطة ونفوذ، ولأن نجمة التي برز نهداها لم تعد تلك الطفلة التي سارت وراءه بجدائلها مرة، ولأنها لم تكن على اسـتعداد للمسـاومة حول حريتها ومقامها في بيت هي سيدته، فإنها وضعت فنجان قهوة الضيف برفق بارد مدروس على الطاولة النحاسية المزركشة، وقالت باقتدار:

– وطي صوتكْ، الأولاد نايمين.

أخافت والدها، فكرر كلماته هامساً، متأكداً من الرد، لقد ركبت نجمة رأسها، وحلفت أن لا تغادر بيتها، خرج الأب متكدراً يغالب فرحة خبيئة غامضة، هـذه البنت لا فائـدة ترتجـي منها، لن يسـتطيع كبح جماحها

في بيتــه، فليكن، لتنفرد بمنزلها، وتتحمل مســؤولية أولادها، ومحلات زوجهــا التجارية، ومنازلــه العديــدة التي كشف عنهــا حصـر الإرث، مـن يريـد أن يتحمـل ثقلاً عويصاً مثل ثقل نجمة؟؟

تمتم رافعاً عن كاهله مسؤوليتـها:

– للقرود، هيك أحسن.. لا عين تقشع ولا قلب يتوجع.

اشترت نجمة مزيداً من الأحذية، وقالت لصديقتها البدوية ظبية التي تزورهــا كلما جــاءت من معان إنها تحب تغيــير الأحذية كما تحب ظبية تغيير الأزواج، معيبة عليها ولعها بالرجال.

– قطيعة، الواحدة ما بتصدق تخلص من همهن، شــو محببك فيهن؟؟ جوز ورا جوز!!

تضحــك ظبيــة حتى تنكشــف لثتهــا العريضة، وســن ذهبية تومض كالبنورة.

– ايش يدريك أنت؟؟

– والله لما ابوي قالي إن سلفي بدو اياني، جنيت، أنا ما صدقت أخلص، قلت له إذا قرب من هالبيت لأفتح نافوخه بكعب كندرتي، هو وإلا غيره.

عــادت نجمة إلى كتّاب الســت فخرية تتلقــى دروس تقوية لما تعلمته مســبقاً، تداركت مــا فاتها بســرعة، وتعلمت كل الأمــور اللازمة لإدارة مصالحهــا، لم تحفــظ القرآن عن ظهر قلب، ولا حفظــت قصائد عنـترة إلا لماماً، ولكنهــا أجادت القراءة بما يكفي، وتعلمــت الكتابة وخطت اسمها بالكــوفي والعثماني، وأشــرفت على بنــاء العلية الإضافيــة في عمارتها في شــارع الرضا، وقعت عقود الإيجار بالتوالي بينها وبين تامبي الشركسي، ثــم برنل الإنجليزيــة، وأخيراً الممرضة أسمهان، ثم راحت ترتاد الســوق بنفســها، تتفقد الدكاكين قبل أن تؤجرها، تتفحص الأبواب والشــبابيك، وتهدي المســتأجر لوكساً على الغاز لقاء تعهده بالامتناع عن إشعال الحطب

للإضاءة، أو استخدام فانوس الزيت الذي يشحبر الحيطان المشيدة بعناية، كانت دكاكين نجمة الأجمل والأوسع في السوق، حتى أن الحج تقي الدين شعر بالغيرة، وراح يقلدها، الطريش وجد باباً واسعاً للرزق في ظل احتدام المنافسة بين التجار الذين راجعوا تصوراتهم عن أناقة المكان بدخول امرأة حساسة مثل نجمة معترك السوق.

تمادت نجمة في زهوها، فأرسلت إلى أستاذ مدرسة الصناعة، بالتحديد يعقوب السكر الأكثر مهارة ورهافة، تطلب صنع ختم خاص بها، لا تريده مدوراً كأختام الرجال في السوق، صنع لها الفنان خاتماً بيضاوياً أنيقاً، فابتاعت له حبراً أخضر لتمتاز وتختلف، ووسط هالة بيضاوية يمكن قراءة اسم «نجمة- أم غالب»، سيقولون إن سرَّ قوة نجمة هذه الجرأة التي ترتدي فيها أحذيتها، بالطبع هذا ليس صحيحاً فنجمة لا تقصر تراوكها، ولا ترتدي البالطو الجوخ المبطن بالحرير، والقصير حتى الكاحل كي تظهر أحذيتها الجميلة، ولكن حفاظاً على أطراف التراواك، وربما بصيغة خفية لا تقر بها، إبرازاً لمساحة ضئيلة من بياض قدميها، نجمة لا تحب الجوارب، إنها اعتداء على جمال الأحذية، ولون البشرة التي أبدع الله تصويرها، بالطبع يرجعون سبب قوة شكيمتها أيضاً إلى وهن والدها، وإلى اقتدارها المادي، وإلى ما تعلمته في الكتّاب، كتّاب الست فخرية، كذلك سيقولون إنّ المرأة البدوية التي تزورها بانتظام وراء هذا الجموح، ألم تترك بيت زوجها الأول طامحاً، عائبة عليه عجزه عن إرضاء شبقها! وتتهامس نساء عمان:

- يا عيب الشوم، في واحدة بتحكي عن هالشغلة بينها وبين جوزها قدام الخلق والعالم، يا عيب الشوم.

يدفع أبو عبد الرحمن زوجته حسيبة أمامه كلما كان عليه أن يخبر نجمة عن أمر يخص دكاكينها، أو عمارتها القريبة من دكانه، لم يعينه

أحد مراقباً على مصالحها، ولكنــه يقوم بالمهمة تطوعاً، يراقب لها كيفية استخدام العقارات، ويؤكد أهمية شطف درج المنزل، وعدم استخدام قناديل الزيــت في المخزن الــذي يحتفظ به تامبي بعربته وثوريه، ويرســل صبيه أحياناً لجمع الإيجارات من مســتأجري العمارة، حيث يتجاور الشركسي تامبي محتلاً الطابق الأول ومخزن في الأسفل، وتعلوه الدكتورة الإنجليزية برنل في حجرتين، ثم عبر درج خشــبي تقــوم علية المرضة أسمهان، كان على صبي الحج تقي الدين أن يذهب مســاءً ويتخبط في الظلمة، ليعثر على الســكان في منازلهم، فالجدة شــحرخان زوج تامبي لن تفتــح الباب إذا لم يكن رجلها في البيت، والدكتورة والمرضة يغبن معظم النهار في أعمالهن، تبدي نجمة امتناناً عندما يقدم كبير التجار مساعدته، وترحب بالزيارات الشهرية التي تريحها من عناء ملاحقة التفاصيل، يقتاد تقي الدين زوجته حسيبة معه مقدراً أنه ليس من اللائق أن يدخل بيت الأرملة وهو حاج بيت الله، فهو شيخ التجار، لن يتهتك مثلما يفعل المحامي الذي يتسلل جهاراً نهــاراً إلى بيت أسمهــان كأن الناس عُمّي لا يرون، ولكن إذا ما مرت نجمة في شارع الرضا بمحاذاة دكانه وهو يلعب الشطرنج مع أحدهم فإنه لن يرفع نظره متملياً حســنها مثل الآخرين، وســيكتفي باستراق نظرة إلى الحذاء، ليقدر إذا ما كانت نجمة ملكة الأحذية قد ابتاعته من بضاعته، وعندما تمر في طريقها إلى أحد استقبالات النساء، أو إلى السينما، يعرف الجالسون على كراسي القش أمام الدكاكين أن الكيس القطني الذي يتدلى متأرجحاً في يدها في حركة لهو مقصودة، يحتوي على حذاء أخر، الحذاء الجديد، الأجمل، لا ترتديــه نجمة في طرقات المدينة المتربة، وقد ينهون ســلامة الكبابجي المستأجر في محلات نجمة إذا ما شاهدوه يملئ فيه بالبنزين ويبخه في غيمة رشاشــة ملحقاً الرذاذ بعود ثقاب، محدثاً ناراً معلقة في فضاء دكانه طارداً الذباب عن اللحوم في أســياخ الشــواء، يحذرونه مداعبين بأن الست نجمة

ستدق رأسه بكعب حذائها الرفيع الحاد الثمين، يغضب تقي الدين للدعابة رغم أن أحداً لم يقصد الاساءة للست نجمة، لكنه لن يسمح لهم بالضحك على هواية المرأة وولعها بالأحذية، نجمة فوق الضحكات، حتى عندما سمع تعليق الأمير على البنت الصغيرة التي قطعت الشارع باتجاه المدرسة الإنجليزية للبنات، فإنه غضب، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها بيت الأرملة دون زوجته، قدر أن حسيبة الثرثارة لن تحفظ ماء وجه نجمة المشرق، لهذا طرق الباب وحيداً واجفاً، أربكته إطلالتها العفوية، وكأنها تفتح الباب لشقيقها دون تحفظ، قالت:

– تفضل أبو عبد الرحمن.

تفضل!.. قال تفضل!! ويا مين شايفك يا أبو عبد الرحمن!!! لا..لا يمكن.

– يا أختي يكثر خيرك، مستعجل، بس إجيت أقولك

– يوه!! تفضل، ما بسوا هيك تحكي من الباب.

– معلش، مستعجل، جيت أقول، اليوم الأمير قال لمين هالبنت اللي لابسه إفرنجي، والله أنا عارف انها لميا، المحروسة بنتك، بس ما فتحت ثمي، قلت أقولك من راسي لراسك تطولي فستانها، وبلاش إفرنجي.

– جيتك غالية، بس الأمير، وإلا أبو حنيك ذات نفسه!! شو خصهن بلبس بنتي؟؟ هي طفلة، وأنا بساوي اللي بشوفه.. ما حدن إله عندي.

– مثل ما بدك يا خيتي ... مثل ما بدك.

انتهى الحديث عند الباب وانصرف الرجل يهتز مثل عود القصب، لعن في سره المعتمد البريطاني قائلاً:

– الله يلعنك يا أبو حنيك.

ثم اتزن وضحك متسائلاً:

– شو دخله أبو حنيك؟؟

ابتاعت نجمة دمقساً غالياً من دكان بدير، بدت القماشة الثقيلة المطبوعة بمزيج من الألوان والتي تبدو فيها أغصان زنبق وأوراق خضر لامعة فاتنة، حملتها لتخيطها عند زرواك بلتكيان، كانوا يسمونها المدام أو زازا استسهالاً للاسم.

– أما انتوا الأرمن عليكن أسماء!!

تفحصت زازا القماش بعناية، بدت وكأنها تفكر ملياً:

– بتعرفي ست نجمة، هذا القماش بيلبق لأميرة إنجلترا، لأ.. انتي أحسن وأحلى.. ممكن يتفصل عالوجهين، شوفي إذا كان هذا وجهه، فصلي الوجه المطفي، أكابر أكثر، بعدين خذي الوجه اللي بلمع، وكشكشيه شوية، هيك، بتصير عنا وردة، حطيها بالخصر، هيك، من القماش نفسه بلبق أكثر.

– والله إنك فنانة.

– وممكن تعملي هيك، من نفس القماش، الوجه اللميع تلبسّي الكندرة، بتصير هيك صرعة.

وصارت كندرة نجمة صرعة، عندما حملت القماش والحذاء إلى الحج عبد القادر سليم الكندرجي في شارع الرضا لتنفذ الفكرة التي جعلتها لا تنام حتى آذان الفجر، قال:

– من وين لك هالصرعة يا أم غالب؟؟

– هاي المهفوفة زازا.

صارت فكرة المهفوفة حقيقة، عندما ارتدتها في طهور ابن إمام الجامع قطعت النسوة المهاهاة من منتصفها..

يا مطهر الصبيان يا شلبي وبالله عليك

لا توجع الصبي وندعي عليك

توقفن وقد استرعى الحذاء أنظارهن، حتى صرر الملبس المضمومة بالتل

الأبيض لم تسترجع أغنياتهن وأعينهن المعلقة بخطوات نجمة وهي تتفتل راقصة رقصة السماح ومتغنجة، ضاعت جهود أم المتطهر في إعداد الحلوى وصرر الملبس بمقابل صرعة حذاء نجمة، وإذ مرت في اليوم التالي من شارع السعادة حاول البعض تفحص قدميها علها ترتدي الحذاء الصرعة الذي وصفته الزوجات، ليلتها حلم الحج تقي الدين بالأرض مبلطة مثلما رآها في القدس والسلط، من المؤكد أن رنين الكعب العالي على الأرض المبلطة موسيقى ملهمة، لكن الحذاء الشهير الذي شغل الناس لم يكن هو الحكاية، الحكاية قبقاب، نعم قبقاب من ذلك النوع الفاخر الذي شهد ميلاده سوق السروجية في دمشق، وضعته الست نجمة في الكيس وخرجت إلى الحمام العمومي، العيون التي تعقبتها دفعتها للتفكير في التحدث مع أبو نعيم حشيش صاحب حمام النصر عله يجد حلاً في هؤلاء الرجال المنتشرين على الدرب، يسحبون أنفاس الأرجيلة ويبحلقون في المارات!!

سرعان ما صرفت النظر عن فكرتها، أين سيذهب هؤلاء إذا لم يجلسوا عند أبواب دكاكينهم!! مرت متزنة ومتوازنة، ثم دلفت مسرعة، وسط سحب البخار كانت صرخات امرأة تأتي من الحجرة الداخلية، لا بد أنها تسلم جسدها لدودة العلق تمص دمها، قالت نجمة في سرها:

– شغلة بتقرف.. الله ياخد النسوان شو إلهن قصص معتّه.

في صالة التجهيز والفرفشة، أخرجت صابونتها وليفتها الخاصة من كيس الحمام ووضعت حذاءها فيه ثم ارتدت القبقاب، تبادلت كلمات سريعة مع النسوة، وضحكت للنكات البعيدة عن الأدب، وداعبت زازا وهي تخلع ما تبقى من ملابسها محتفظة بشلحة قطنية:

– لو الدني كلها حمام، والناس هيك بزلط ربها، كيف بدها تعيش الخياطة؟؟

تجاوبت زازا مع النكتة وردت بعربية ضعيفة:

- بفصل بشاكير ولباسات.

هي وزازا الوحيدات اللواتي يبادلن أسمهان الممرضة السلام في الحمام، النساء الخائنات يتناسين سريعاً خدمات الصبية التي قدمتها بمحبة رافضة تقاضي الأجر، تناسـت حسـيبة قدوم الصبية إلى بيتهم كي تشـطب عضل الفتى الضعيـف الصحة، الخفيف العقل عبد الرحمـن مانحة إياه الوقاية من الجدري، وكيف قامت بعشـرات المشـاوير إلى المختبر ترقب الانتهاء مـن إعداد المطعوم الوقائي، وتصرفت فايزة كأنهـا لا تعرفها رغم أنها من وضع الضمادات الباردة ليلاً على جبين مروان ابن شقيقها عندما راح يهذي وقـد ضربته الملاريا قبل أعوام، وهي مـن أحضرت امبولات الكينا لتحقنه بهـا يوماً بعد يوم، تعرف أسمهان أن تسـلل المحامـي إلى عليتها أمر لا يمكن إخفاؤه طويلاً، وبتهور عاشـقة لا تحسب للأمر حساباً، تراهن أنهم غداً سـيحتاجون إلى إبرتها فيسـتقبلونها في بيوتهم بكل تقدير واحترام، وسيظل الطبيب الإيطالي تيزو يرعاها، كذلك الراهبة ماري روز، سيغضان الطرف عن قلبها المشـبوب وتهورها العلني، قـد تهمس الراهبة في أذنها بالنصيحة، وتدفعها للركوع مطولاً تحت قدمي السيدة العذراء تطلب الصفح والنصيحـة، صمت العـذراء ونظرتها الحانية إقرار أنها تسـير في الدرب الصحيح، تشـعر بمباركتها، بيدها تمسح على شعرها، وتعرف أن الرب رب قلوب، لهذا فان نظرات المسـتحمات العاريات الاستفزازية لا توقفها عن الغنج الخفي وهي تدعك جسـدها بالليفة الخشـنة حتى يتوهج وردياً دامياً.

تتبسط نجمة مالكة الحجرة التي تسكنها معها بود، يتحدثن كسيدات أعمـال مختلفات عن ربات البيوت، ويتضاحكن حول غيرة الرجال منهن، اتهمت نجمة التجار بمحاربتها في الخفاء مستثنية شيخ التجار المنـزه عن كل عيب، وروت أسمهان حكايات مضحكة عن رجال يخافون شكة الإبرة،

وعن جهلة يذهبون إلى الحلاق لخلع أسـنانهم، وإلى الغجر لتركيب أسنان جديدة من الذهب، بدتا صديقتين، حتى أن نجمة تبادر إلى ذهنها أن تسأل عن حقيقة الشائعات التي تروج لعلاقة مشبوهة بين أسمهان والمحامي عبد الرزاق، ولكنها أمسـكت مقدرة أن لكل امرئ شأنه في تلك الحياة، وإذا ما أردنا أن يكف الناس عنا كففنا عنهم، تحدثتا بمرح حول الأحذية، أشارت أسمهان أن سندريلا رمز هام لدور الحذاء في حياة المرأة وقالت نجمة:

– هذا إذا كانت سندريلا بتفكر بالرجال من أساسه، ولكني صدقيني أنا بحب الكنادر أكثر، السـباط بيتبدل، والبابوج بترميه، أما الرجال لصقة أبدية، ولا هم للسيف ولا للضيف ولا لغدرات الزمان، لزقة وحياتك، للهم والعكننه.

ردت أسمهان ضاحكة:

– بعلمي قبعتي هاللزقة من زمان.

وتنهدت نجمة:

– بفضل الله، كريم.. كريم.. نحمده ونشكره.

لكثـرة ما تهامسـت المرأتان وضحكتا، فان نجمة نسـيت قبقابها عند المغسـلة، وحملت كيسـها مثقلاً بالبشـكير المبلل والثياب الداخلية التي اسـتبدلتها بأخرى، خرجت مسـرعة غافلة عن القبقاب الذي عثرت عليه الصبيـة الموكلة بعمليـة التدليك فرفعتـه في خزانة الأمانـات، في الفترة الصباحية، وقبل حضور أي من الزبائن سمع الفتى الذي يشـعل الحطب في حجـرة النار نداءً من صالة الانتظـار، كان هذا صوت الحاج تقي الدين أبو عبد الرحمن كبير السوق، هرع الفتي خارجاً من بيت النار وهو يمسح كفيه من هباب الفحم، قال بحماس:

– بعرف.. نسيتْ قبقابك..

عندمـا فتح الفتـى خزانة الأمانات، كان القبقـاب العالي الكعب الذي

يخص أبو عبد الرحمن التاجر يعطف على قبقاب نسـائي منخفض الكعب منمنم، دق قلبه، سأل وهو متيقن من الجواب:

– قبقاب مين هاذ؟؟

قال الفتى وهو يضع قبقاب التاجر في كيس ويناوله إياه:

– قبقاب الست نجمة.

لن يصدق أحد ما يقول القبقاب، ولكن هذا ما حدث، لقد انقلبت مقادير امـرأة ورجل، وارتبطت بصورة خفية بتلك الإتكاءة التي مارسـها قبقابان في خزانة الأمانات، ليلتها هرع كبير التجار إلى قاض القضاة إبراهيم هاشم قائلاً:

– نويت أتجوز مرة تانية.

ولأن الرجال لا يسـألون عن الأسباب في مثل هذه الحالات، فإن الرجل رافقـه في اليـوم التالي على رأس جاهة خاطباً الأرملة، لم يسـأله أحد عن مبرراته، حتى حسـيبة التي بكت وصارت عيناهـا حفرتين داميتين، لم تعترض أو تسأل.

قال المنافسون في السوق:

– معلوم، القرش بجيب القرش، والمصالح مطاعن الرجال.

أقر بعضهم أن نجمة امرأة تسـتحق أن تشـتهى، ولكن الشيء الذي لم يسـأله أحد، ولم يدركه، ولا حتى السـت نجمة نفسـها، ما الذي دفعها بعـد عمر من الوحدة وإدعاء الزهد في الرجـال للتوقيع بخاتمها البيضاوي الأخضر على عقد زواجها الثاني دون تردد.

حديث الحبر

تحشرني الدكاكين مع عشرات البضائع في حيز ضيق، يتاجر تقي الدين بحبال المصيص والحلاوة البيروتية والطناجر والأرز والعباءات من شتى الأصناف والمناطق، كيف يمكن إفهام معشر التجار أني رمز الحياة الجديدة، عندما يعتبرون دواة الحبر بضاعة مثل سواها في الفواتير وعلى الأرفف، يحق لي أن أحتج، فالحبر وجد أساساً ليمكن الناس من الاحتجاج، ولكن الرجال الذين يستمتعون بغمس أقلامهم الأنيقة في سائلي، وكتابة دفتر الفواتير كما يفعل تقي الدين، يجعلونني ألوب حبيس الدواة بانتظار تقدير من نوع أخر، ستشتري مدرسة الصنايع دواة بالحبر الأحمر لمدير المدرسة ليدون ملاحظاته حول مجموعة الحدادين والنجارين والبليطة، الذين يعدهم لاجتياح الشوارع الرئيسية التي بدأت تتقاطع حول السيل مكونة سوق عمان، فمعشر التجار العاملين في السوق استيراداً كثيفاً وتصديراً طفيفاً لن يسمحوا لهؤلاء الصبية بالتسلل إلى السوق ببساطة، التجارة شيء،والصناعة شيء، إذا تشاطر هؤلاء وتسيدوا، ارتبك هؤلاء وتقهقروا، إنها أرزاق، كما الرياح تهب تارة وتنحبس تارة، وهات القلم والدواة، وأكتب.

إذا أردت أن يكون خطك جميلاً مثل خط المحامي عبد الرزاق يجب أن يكون ورقك مسطراً، يمكن ابتياع هذا الورق أيضاً من متجر تقي الدين حيث يضعه قرب قطرميز الملبس، المتعلمون الجدد يظنون بزهو رفيع أن المتعلم ليس من يمتلك القدرة على فك الخط فحسب، عليه أن يعشق الخط، وعشق الخط وله يتبدئ في أنامل يعقوب السكر معلم مدرسة الصناعة، والشاعر المحامي رفعت الصليبي، ومعلمي المدارس الابتدائية، كأنما هناك وصفة سحرية جعلت التعليم ملازماً لإتقان رسم الخط.

يواظب أهالي عمان على دفع رواتب المدرسين ليضمنوا تدفق المعلمين

إلى المــدارس انتظاراً لقانون المعارف الذي ســيحمل الإمارة ممثلة بمديرية المعارف المنتظرة مسؤولية التعليم، وحتى يقر مثل هذا النظام فانهم يدفعون عن طيب خاطر، دون أن يتوهموا أن قروشــهم القليلة تخولهم امتلاك المعلم ملكية خاصة، في اليوم المدرســي الأول، وربما في كل يوم قادم، يصطحبون صغارهــم ويقفون بإجــلال وإذعان قائلين للمعلم، ولــي نعمة التعليم، هذا قربانــك، لك اللحم ولنا العظم، إليك الولد فاصنع منه رجلاً، هذه العجينة شكلها كما تريد، كما أن عليهم أن يرددوا مراراً وتكراراً، من علمني حرفاً صــرت له عبــداً، لإقناع الصغار بالانصياع إلى مســطرة المعلم وعصاه، هكذا يتعلمون في المدرســة العبدّلية الواقعة بالقــرب من قيادة الجيش والمفوضية الإنجليزية، يمســكون أيديهم الصغيرة ويتتبعون الخط يداً بيد، أساســاً، تأتي الأفكار مائلة، وتنحرف الأنامل، والحبر في الأصل ســيال، ولكن يداً ماهرة لمعلم مســؤول تتمكن من السيطرة على اعوجاج الجملة ليستقيم الخط ويثبت الحبر، مثلما تستقيم وتثبت خطى الفتيان الخارجين من المدارس، هكذا أمسك مدرس اللغة العربية في ثانوية عمان عبد المنعم الرفاعي بخطوط وخطوات الأولاد المســتقيمة، مثلما حضهم على تأليف صحيفة حائط أدبية فأنه حرص على اســتقامة خطوطهم ومسار نهجهم، في الصفوف الأولى وهم يدفعون رسم التحاقهم بالمدرسة جينيهان فلسطينيان، يتحرك الطلبة مثل قطبــة الزك زاك على ماكينة الخياطة، يطبعون بفرح خطى راقصة معوجة علــى الدرب، ويســيرون في الطريق الترابــي تفادياً لرؤيــة المعلمين الذين يســلكون الطريق المرصوف بالحصى والبحص حرصاً على أحذيتهم اللمعة، الصغــار لا يدركون أهمية تلميع الحذاء، ولكنهــم يرهبون الصورة الواثقة الجادة لمعلميهم، ويحبون الالتفاف في الطريق الترابي، ويعشقون النظر إلى آثار أحذيتهم المطاطية على الأرض، يقيســون اتساع الخطوات، ويتناكفون بإزالة آثار أقرانهم، فإذا ما تعلموا ضبط الخط على الورق المســطر، وانتقلوا

إلى ثانوية عمان قرب مقهى المنشــية عند أول طلعة جبل اللويبيدة، وارتفع الرسم المدرسي إلى ثلاثة دنانير، ستبدأ خطواتهم في الانضباط، قد يزايلهم ذلك الفرح والاندفاع، ولكنهم يقتربون حثيثاً من خطوات معلميهم.

كل الكلمات في الدفتر المدرسي لا تشبه ما تجود به قريحة فهمي الزعيم الذي هبط إلى عمان وحاول الاســتثمار فيها بشــراء فندق طيني أسماه فندق السعادة، فإذا ما مني بالخسارة استسلم معلناً أن هواه غلبه، وذرع الشوارع بعناية مختاراً شارع السعادة ليستأجر فيه دكاناً، ويعلق فوق بابها الخشبي يافطة مكتوبة بدهان فاخر (مكتبة وجرائد)، لماذا شــارع الســعادة؟؟ ربما لأن المطاعــم نادرة هناك، وفهمي يؤمن بــأن البطون تضيع العقول، وما دام يبيع شــيئاً خاصاً يتعلق بالعقول، ويكتب مذكراته بالحبر الذي يبتاعه من دكان يكتــظ بالبضائع المخالفة في طبيعتها ومغزاهــا لطبيعتي، فانه واجد ســعادته في تلك المكتبة، يجلس فهمي على كرســيه متكئــاً على طاولة في قلب دكانه في شــارع الســعادة، حيث كل البضائع، إلا بضاعته، من نصيب النساء، العرائس بالتحديد، وحيث من موقعه سيرى قمصان النوم البرلون تتراقــص لحظة إخراجهــا من الكراتين، أو تقليبها في يــد الصبايا، أما في أرفــف مكتبته فكانت تتلألأ أشــياء أخرى، حبر كثير وكثيف ومشــغول بعناية، تتوفر جريدة الأردن أســبوعياً، كما تتوفر جريدة الوفاء، ومؤخراً وصلــت جريــدة الجزيرة، يرتــب الزعيــم الجرائد التي يســميها العامة بالقزيتة بصورة ذكية بحيث ينكشف غلاف عدد بالكامل وأطراف الأعداد الأخرى لتبدو الكمية أكبر، تنفذ الأعداد بسرعة، أما الصحف التي سيأتي بها من الخارج كالمقتطف والرسالة فانه سيحرص على الاحتفاظ بعدد أخير للمكتبــة، هذا يمكن قراءته مجاناً وعلــى الواقف بعد نفاذ الأعداد المتاحة منه، والحبر صنعة الفكر كما الصحف، كان فهمي يمســك ملهوفاً بكتاب وصله للتــو من بيروت، تأليف دكتور داهــش، (ضجعة الموت) أي عنوان

آسر! قصائد بالخط الفارسي، وهناك لوحات للرسام الإيطالي موررللي، ولأن صاحبي ذهب بعيداً في تأمل تلك الأفكار الحزينة كان يقرأ (ليس من يكتب للّهــو كمن يكتب للحقيقة) ثم يقفز إلى عبــارة موجعة (أخبرها أن لاتعول عندما ترى رفاقي.. وهم بدوني ســائرون) أوشك أن يعول وهو يرى مسعد الجحــش مقبلاً عليه، طبق الكتــاب في يده وتهيأ غاضبــاً، لماذا كلما طلب الحبر أرســل له التجار بمســعد صاحب البغل! يقفز قلبه ومسعد يتناول الدواة بحماقة ويرجها فوق الطاولة الخشــبية بإهمال متفرجاً على السائل يتمــوج وراء الزجاج، أنا الحبر، أهتز بغضب أيضــاً في قلب الدواة، ليس من شــيء يشعر بالغضب في مجمل تلك البضائع التي تتعامل مع الناس مثل الحبر، أنا أغضب من أعماقي، مثلما يغضب صاحب المكتبة ومســعد يقلب الصحف والمجلات ويقول بغباء:

- ما في صِور؟؟

عندما تجاسر مسعد وشد غلاف كتاب عودة القسوس (القضاء العشائري) يقلب صفحاته، شاط صاحبنا الزعيم وصرخ بعصبية لم يبديها من قبل:

- يلعن هالزمان اللي خلط القمح بالزوان ... حطْ من إيدك وافرقنا.

مط مســعد شــفتيه اســتخفافاً قبل أن يفرقنا، وكنت قد هدأت قليلاً في قلب الدواة.

يتركني صاحــب المكتبة إلى جــوار قطرميزات الملبــس والقضامة التي يبعها للمارة ويغري بها طلبة المدارس، يصطاد عقولهم بتحلية ألســنتهم، عادة ما يتوقف طلبة مدرسة التجهيز، يبتاعون القضامة المالحة والسكاكر، ويســتأجرون الكتب، كذلك يفعل أساتذتهم ســيقلب أديب عباسي الشاب الرشــيق الوسيم، صحيفة الرســالة، ثم يســتأجر كتاب نديم الملاح (المرأة المسلمة) بتعريفة لمدة عشــرة أيام، أحب وقفة رفعت الصليبي المهذبة عند رف الكتب، أحب خطه عندما يــبتاعني، ويدبج بي قصائده الســرية التي

يتغنى بها بالخمر أسوة برفيقه شاعر الخمريات والحب وكشف المستور من حكايات الدور والقصور، مصطفى وهبي التل الذي يسمي نفسه، عرار، أما الصليــبي فان له قصائد معلنة يتغنى بها بالفضيلة في مقهى حمدان، حيث حملني هذا المساء إلى المقهى موقع اجتماعه المفضل بنفر من المتعلمين، صعد الشابان عباسي والصليبي الدرجات المؤدية إلى الشرفة والتي تعالت إلى ذات ارتفاع مئذنة المسجد، هناك علقوا أنوار اللوكسات، ولعبوا الشطرنج وقالوا كلاماً رائقاً هادئاً في ظاهره، نارياً في أعماقه، سيحولونه يوماً بواسطتي إلى فكر يقرأ، قال عباسي:

– يــا اخوان نحتاج مقر نجتمع فيه.. نحكــي.. نفكر.. ونتأمل، مقر نفتح فيه ندوة أدبية.

أيده الصليبي بحماس:

– عندي نزلة ع الشــام، وكم شــغله في السلط، بعدها بنساوي الندوة، يعني هو ما في ندوة غير بديوان الأمير!!

– أيوه محل ما الناس ما بتقدر تقول إلا..دمتم.. وادام الله عزكم.

– أفرض الواحد متضايق،!! بده مطرح يصيح فيه.. أه...

وعدهم معلم الموســيقى في دار الأيتام الأستاذ أحمد صبري بأن يسمعهم عزفه على البيانو في جلسة خاصة ليقولوا الآه تلو الآه ولا معترض، فضحكوا، وحدثهم فهمي الزعيم عن بائع الكتب الذي ســيطر على الأدب في فرنســا، آناتول صاحب المعجزات، كاتب قصــة تاييس والزنبقة الحمراء،فقال له فوزي الملقى مدير المدرسة:

– حيلك.. حيلك.. يا فهمي، أكتب تاييس وشــوف هالمتيسيـين كيف بدَهم يراجدوك بالبيض والبندورة.

لم يغضب الزعيم عندما ضحك المجتمعون، هؤلاء الذين بفضلي تناقشوا في نظرية العقد الاجتماعي، وقال المعلم أديب عباسي:

– لسنا بحاجة إلى جان جاك روسو لنعرف بأن المنفعة لا تتم إلا بالنظام، ولكن ونحن في هذا الحال يجب أن نقرأه، فالمنافع كثرت وغاب النظام.

وقال المحامي عبد الرزاق الشعيبي:

– في الأزمات سيكون هناك مثاليون وأبطال، ولكن المجتمع لا يقوم بهم، تبادل المنافع هو الأساس.

علق معلم الموسيقى:

– مثل حال السوق ما بين شارع الرضا وشارع السعادة، منافع تتبادل.. بس خاف الله كأنها طاسه وضايعه..

قال المحامي رزاق:

– غلطان..وان بدت الأمور فوضى شوي، بظل السوق أساس المدينة، بدك تعرف إذا أنت بمدينة وإلا قرية.. تفرج عالسوق.

– وهاي دخلك مدينة؟؟ عمركو حسيتوا شو هالذوق!! سوق القماش بجنب سوق الحلال بجنب الخضار!! فساتين وبدلات جنب محلات شوي الكفتة والكباب، وفوق السكر والشاي المحكمة ومكاتب المحامين؟؟؟

– معلش.. شوي شوي بتترتب الأمور..

– يا خوفي لما تترتب، ما نلاقي لنا مطرح لأولاد البلد في هالترتيبة، كل الوظايف رايحه للغربا اللي مش عارف من وين بجيبهم؟؟

– بتحيروا!! مش إحنا اللي راهنا على العروبة؟؟ ليش اليوم ضايق خلقنا من العرب وبنقول غربا؟؟

– مش هيك، بس المسألة ما بدنا نخلص جامعاتنا ونرجع من الشام والا بيروت ونقعد نتصفن بالقهاوي، وهم بعينوا بالوظايف كل من هب ودب من بره.

– بدك الصحيح، البلد بدها دعم من الكفاءات من بره.

– مش غلط، بشرط ما ننتسى، الأولوية لمين؟؟

لم يكمل عبارته لأن حسـني فريز دخل في تلك اللحظة بجسـمه المكور وحماسـه الفائض، رفع يده بالتحية دون أن تنبس بها شفتاه، ولكنه قال مزهواً:

– ها؟؟ قرأتم هياكل الحب؟؟

يشعر الصليبي برغبة في مناكفة فريز، يعتدل في جلسته ويعطي كتفيه بالكامل للمستمع.

– بما انك مشطت ذقنك لتكون شاعر الأردن، ممكن تفهمني كيف واحد بناجي حبيبته وبعاتبها وهو عاشقها، وبعدين بخبص وبقول لها

وان التي بالمال يشري غرامها   لعاهرة لا تعرف الحب والطهرا..

– هاذي ملاقيها مع بنات شارع السرور.

ضحك الحاضرون حتى اهتزت كراسـي الخيزران، هذه العبارة خارج اختصاصـات الحبر، على الأقـل في ذلك الزمان عندمـا كان الحبر لتنضيد الجمال وبعثه، يرتجف الحبر عند مغامرات البشـر الرعناء الفجة، وعند حكايات شارع السرور الغامضة، ويرد فريز على النقد الحاد مستنفراً:

– مش عارف شو هالغِيرة، الله مسلطكْ عليّ!!!

تمشـى الرفاق سـاعة من الزمان بعـد الانفضاض مـن المقهى، تحدثوا بلهجة رائقة مجدداً، كانت حلكة هذا المسـاء ملفتة، وهناك قمر يتوسطه ظل الأرض، ولكنهم مشـوا على درب حفظوه لكثرة ما سـلكوه، قال رزاق المحامي:

– بكره رايح استلم ماكينة كونتيننتال اللي وصيت عليها من بيروت.

ارتجفـت، ماكينـة طباعة!! ماذا عني في الـدواة؟؟ ماذا عني ولم أصل إلى أقلام الناس بعد؟؟ هل سـيتم صـبي في دواة الماكينة؟؟ ربما، وإلا كيف للحرف أن يعلن عن مجده دوني؟؟

وواصل رزاق:

- بتعرف، هاي شـركة نجار اللبنانية رايحة تسـاوي تغيير كبير في حيـاة الناس، ماكينة طباعة يعني عصر جديد، بكره بصير التأريخ للعصر بدخول الطباعة.

وضحك عباسي قائلاً:

- ولمين بدك تخلي خطك الحلو؟؟

كلمة على الوجع، لمين الحبر والخط الجميل!!

واكمل عباسي:

- الانقلاب الكبير في حياة البشر بدأ مع الحبر يا صاحبي، بس التقنيات الجديـدة رايحة تجيب معها خلافات سياسـية وأفكار متناقضة، وبعدين أنت عارف شـعار هاي الماكينة الألمانية، شـفته مرسـوم عليها! السـيف اليماني والفولاذ الألماني، وشو لم الشامي عالمغربي؟ سيف وترس! الحكاية القديمة، معقول نبدا عصر التغيير الفكري بشعارات القوة التقليدية؟

أجاب رزاق:

- أكيد، بتحكي صحيح، بس شـو بدهم البشر يجيبوا جديد؟ صدقني الحكاية بدها تظل نفسها من فجر التاريخ، مش الشاعر قال السيف والرمح والقرطاس والقلم!! وأنا مش متشـائم، بقول مهما حملنا من القديم معنا، بنظل ماشيين باتجاه بكره.

هواء عمان الساحر يلامس وجوههم الشابة، يصمتون دقائق منصتين إلى همس الفراغ وحلكة المساء، وأنا في قلب الدواة، في يد المحامي اهتز بتوازن غريب وأصير قطعة من المدينة، كان السائران قد وصلا حدود السيل، وشقت الفـراغ على حين غرة أصوات نشـاز، قرع عنيف علـى الطناجر والأواني الفارغـة وجمع غفير مـن الناس يتحركون في الظـلام كالعفاريت، يهللون ويخاطبون حوتاً متخيلاً كان قد ابتلع القمر.

مرق مسـعد مسرعاً إلى جوارهما، شـد كم جاكيت عبد الرزاق الشعيبي

صائحاً:

– حي.. حي..

ثم انفلت يلحق بالدراويش ومتسولي عطف الحوت المتوهم، ضحك السائران حتى شرقا بالدمع، وخبط عباسي كتف رزاق:

– شو رأيك يا أبو المطبعة والعصر الجديد، شو رأيك؟؟

وبين اختناقات الضحك قال المحامي:

– ولو.. ولو..بكره بده يجي..بده يجي.

أنا الحبر، قلت أيضاً، ولو، هناك عصر جديد قادم حتى لو ابتلع الحوت القمر في ليلة خسوف.

حديث الحبال

يحتاج الحمالون إلى مقص مسنن ليقصوا هذه الربطات المحكمة، ويحتاجون إلى رشاقة وأجساد قوية كي يوزعوا مجموع الحبال التي يجلبها تجار عمان، العالم كله يحتاج إلى الحبال، قد يظن الناظر باستهانة نحوي بأني مجرد حبل، مجرد حبل!! هل من شيء يتخذ قدراته دون الحبل؟؟

الحبال البغالية والجمالية يتم بيعها وشراؤها أيضاً في سوق الحلال، حيث يتجمع أصحاب النوق والجمال والخراف يتداولون الحبال في لفات ضخمة، تمتاز الحبال البغالية بمتانتها فالمهام المناطة بالبغل لا يمكن تصورها، من موقعي في رقبته يمكن أن أجعلكم تذرفون الدموع على مجمل ما سيقوم به البغل صاحب العينين الحزينتين، ولكن قبل وصولي إلى رقبته كان بامكاني وداع عدد من لفائف الحبال، تلك الذاهبة إلى سوق السروجية، أو تلك التي يبتاعها الخشابون الذين راحوا يقطعون الأحراش ويحولون سيقان الشجر إلى مواسير رشيقة قوية، يربطونها بالحبال ثم يدعمون بها أسقف المنازل، حركة البناء التي تزايدت جعلت الطلب عليّ غير عادي، رغم أن معظم البناة الجدد راحوا يبنون أسقفاً خالية من الخشب، ولكن الحبل يلزم في كل المهام، بدءاً من ربطة الكرتونة وحتى عنق البغل راجي، عندما وقف البغال مسعد عند باب المخزن، زم التاجر شفتيه، همس لصبيه: - شو بده هذا؟؟

عارض الصبي الباب، ويداه في خاصرتيه، وقدماه متباعدتان:

- نعم؟؟ أمر؟؟

مسعد عنيد مثل بغلته، لا يحب مثل هذه الاستعراضات، يمكنه أن يتشاجر بسببها، لكنه في هذا النهار بالتحديد جاء شارياً، أوشك أن يقول لصبي الدكان، ما في بيني وبينك حكي فأنا أتعامل مع التاجر مباشرة، ولكنه أرجأ غطرسته وهو يتأمل شقفة المصيص الزحلاوي الملقاة أرضاً،

قال:

– بدي هاي.

أجاب التاجر من الداخل:

– البغـل بحتاج لحبـل مذيع، محلي وأرخصلك، هـاي مصيص بتحز رقبته.

مسعد عنيد:

– بدي هاي، أربط تنكات المي، وواحدة مذيع لرقبة راجي.

ضرب صـبي الـدكان البغلـة الواقفة عند البـاب علـى مؤخرتها فلم تتزحزح:

– هاظ راجي بلا صغرة!!!

هز مسعد رأسه:

– هاظ راجي.

– وانت دشّرتْ شغلة العَتال وبدك تصير بغَال، الحافظ الله!!!

– أه.. غريبه!! مش عاجبك؟؟

– أه.. ما هو مش ناقص السوق غير هالخازوق.

صرخ الحج تقي الدين في صبيه من الداخل:

– بطّل لعي.. يلعي منَافسك، لويش مقربط بيه، عندي عندك!! اعطي هالمسكين طلباته وخلهُ يتسهل..

خرج من الـدكان حبلان، حبل الصوف في جيد راجي المدلل، والمصيص (أنا) على ظهره بانتظار البضاعة، لم أكن أعرف نوع البضاعة، مسعد نفسه لم يكن قد قر قراره على ما سـينقله على ظهر بغله، وسـرنا، أنا وراجي ومسعد، كان مسعد يفكر.. خاف الله اللي باعني هالبغلة سارقها، معقول! معقول بغلة مثل الحصان واضرب واطرح.. بس بنص دينار!.. ليلّت علينا، وكنا قد تجاوزنا الشارع المحظوظ المضاء ليلاً باللوكسات، سار مسعد ببغله

حتى درب الحوريات، انتصب الحائط العتيق مثل غول يصفر الهواء حوله، واندس مسعد بين الصخور الأثرية الضخمة، أنا الحبل المصيص الذي خرج من زحله ليصل إلى يد مســعد كنت أشعر ببعض الحزن، بالأمس تمنيت أن يبتاعني ذلك الشركسي الذي حمل شدة كاملة من الخشب، نتعها على كتفه بسهولة، ثم رماها في قلب العربة وحرك الثورين اللذين يجران العربة من أمامه بهمة ونشاط مخاطباً الحج تقي الدين:

- لا توخذنا، سكّر الشارع ثورنا.

قال الشركســي كلمة لا تواخذنا بطريقتــه، وتخيلت بأني أذهب معه لألف أخشــابه أو عيدان القصب الهشــة التي تخشــخش عندما يفرشها في عربتــه، أردت أن أحزم هذه العيدان بأناقتي، لمثل هذه المهام كان المصيص الزحلاوي، أه على أيام زحلة، في عتمة درب الحوريات الغامض المخيف، لا أعرف أين ســينتهي بي الأمر مع مسعد الذي انبطح فوق صخرة وغرق في نوم ســريع، كأنه مات، ظلت راجي البغلة ساهرة معي، كنت أفكر بعربة الشركســي، وكانت راجي تفكر بمدحلــة البلدية التي تربض ليلاً في وادي السير، والليل يطول في ســبيل الحوريات، عند الفجر سمعنا طرطرة ماء، وشممنا رائحة البول، كان المارة قد اعتادوا على قضاء حاجتهم في السبيل، ومسعد الذي ينام نوم الذئاب، لمح الحركة فتأفف، ولكنه فعل ذات الفعلة بعد دقائق، راح يفكر: عندما أجمع مبلغاً من المال ســأجعل راجي تبات في الآخور وتأكل أحسن التبن، ولن ألف حول رقبتها حبل الليف الذي يصلح للجمال، راجي الحلوة ستــدلل.

شدنــي مسعــد بإعجــاب بين قبضتــي يديــه، هــذا حبــل متيــن سأربطــه في عنــق راجــي، ما عليّ بما يقول التجــار، هذا يصلــح لراجي حلية، وقد أربـــط فيه بعض الدناديــش أحضرها مــن رفقه الخياطــة، لــن أهتم أيضاً بسخرية صبيان المحلات ودهشتهم بكوني أطلقت على بغلتي اسم راجي،

من أنّث الأسماء وذكّرها، حر أنا، كما أن راجي ليست بالذكر ولا الأنثى، حرة في أسمائها.

في هذه اللحظة قضت راجي أيضاً حاجتها في درب الحوريات، وقرر مسعد أن يربط كيساً من الخيش حول مؤخرتها، مسعد يحب نظافة الشوارع ولن يفسد هذا البهاء العماني، سيقولون انه رجل متحضر ونظيف يعامل بغلته كما يفعلون مع الخيول التي تجر العربات في شوارع القدس، لفني مسعد بثبات بحيث صنع من طرفي إنشوطة واسعة حول جيد البغلة، رجحت بأن البغل سيفر إذا شعر بأن الرقابة خفيفة والقيد رخواً، ولكني قرأت أفكار راجي، إنها مرتاحة، ربما لأن العمل لم يبدأ فعلياً، عملي وعملها، يقولون أن لكل امرءٍ من اسمه نصيباً إلا مسعد المنحوس، ولكنه لا يعتقد ذلك، يظن أن ليس في عمان أسعد منه، ولا حتى التاجر تقي الدين، ولا الأمير في رغدان، ولا الإنجليزي كلوب باشا أبو حنيك، كان بإمكاننا أن نستمع لساعات طويلة لحكايات مسعد: - أنا من هون.. يعني مش شركسي، مش شامي، مش أرمني، مش سلطي، مش نابلسي، مش نجليزي،أنا من هون، من يوم ما وعيت عيني ع الدنيا وأنا هون، لحالي لبالي، بتراكضْ بسوق الحلال، عمي اجِا من الطفيلة سنة المجاعة، كان حاملني ابن اربع خمس سنين، اجِينا بالبابور، هاظ الترين، وظني عمي ما دفع الاجرة، الناس كانت عايفة حالها، وعمي هارب من الجوع وأخذني معه، عمّنه بي بعمان شركس بزرعوا قمح وبربوا جاج، يعني بي لُقمه، خلصت المجاعة وما خلصت، وظلينا بعمان، بعدني واعي ع عمي سلّال بسوق الخضار، وأنا بتراكض بين رجليه، خاف الله سنتين ثلاث واحنا نركض، ونرد اوضتنا بحي الطفايله، أولاد العفاريت، أولاد عمان الصغار بغنوا، قال إيش؟؟ عمان للطفايلة، ووادي السير للشركس، أي شو للطفايله بعمان غير الجوع؟؟ مثل اللي إلهم بالطفيله، قَشَلْ، وجوز فاضي، بعدين عمي جرب

سوق الحلال، دخلنا السوق، كان يوم اثنين، ما عدت شفت عمي، وين راح ما بعرف، معقول اقعد ابكي والناس رايحه جايه!! دشرني وراح، ويا حيرة الحيره.. ومن يومها أنا هون، طلع لي شوارب بسوق الحلال، اعطوني سلة خيزران، وقالوا لي تعال يا ولد ورانا ع سوق الخضرة، لحقت كل الناس ع دورهم، وبعرف كل مرة كيف منافسها عالطبيخ، ذقت من كل دار صحن، نجمة معدلة، بتحط الكوسايات المحشية وورق العنب الملفوف مرتبين بالصحن، يعني بتساوي لي قيمة، وأنا برجع لها صحنها، بعد ما اوكل برجع لها الصحن، ها كيف؟؟ هو أنا شحاذ،!! لازم ارجع الصحن، ضرتها حسيبة حيا الله بتعرف تطبخ، وبتحط لي الطبيخ ع بعضه، جبنة ع مقدوس، ع مجدرة، بتستحي تمده لكلب، ما بوكل من صحنها.. إلا إذا جيعان، الحجه فضيه بتفعص تفعيص، بس بحب الفريكة من ايديها، مره كبيرة، وما بتقصر، بتعرم الصحن وبتزرق لي شقفة لحمة كمان، يعني عالتساهيل، بدكو الصحيح، الناس عايفة التنك، مقضينها برغل وعدس، وأنا أكثر واحد بوكل، كل الدور داري، ماكل محذي مكسي من بيوت الناس، بس شواربي طلعوا، ومش معقول اظل اوكل ببيوت الناس، كل تجار الملح بعرفوني، يوم اجوا الشرارات يبيعوا الملح والبعر والجلة، أجلكم الله، يصيحوا.. الملح.. يا شاري الملح، كنت رايح أشتري ملح للممرضة المليحة أسمهان، قالت لي خذ قرشين وهات الملح، يعني، هي قصدها بتعريفة ملح، والباقي إليّ، يومها شفت البغلة راجي، زرقا مثل لمبة الشارع، لوما ما يقولوا مسعد سافل، وكاني ماني، كان قلت اني وقعت بهواها، وقلت لحالي هو أنا بدي أضل اراكض لهاظ وهاظ؟؟ اشتريت البغلة، قرشين من المحامي، قرشين من الحمصي، قرشين من الحج أبو عبد الرحمن، كان عريس واعطاني أكثر، وعروسه نجمة أعطتني كمان، واعطتني بكيس كل كنادر جوزها القديمة، وكبود محرز، وقالت لي لا تضيع القرشين يا

أهبل، اعمل لك شي لكبرتك، وأنا خليت الكبود للبرد، وبعت كنادر الحج أبو عبد الرحمن، واشـتريت راجي لكبرتي، مش معقول اتجوز لكبرتي، مـين بعطيني بنت؟؟ يمكن المحامي اللي داير بتهامل مع السـت أسمهان يلاقي بنت اكبر عيله توخده، أنا ما مني أمل، ما لي سند ولا ظهر، سندي راجي اللي أخذتها برخيص عمنها مشـرومه باذنها اليسـار، وخاصرتها مشقوحه، مين قدي؟؟ صار لي بغله وحبل مصيص وحبل مذيع.

يعيدنـا الليل الهابط في عمان أنا ومسـعد وراجي إلى درب الحوريات، أما الصباح فأمره مختلف، أشـد مرة على أكياس الأرز، ومرة على كراكيب طلبتها الخياطة، ومرة على تنكة ماء تظل تنـز على طرفي وعلى بطن البغلة طوال المسير، ومرة أنقل عفش جماعة رحلوا، لحقوا مواسير البلدية في جبل عمان، مرة يكدس السـروجي بضاعته فـوق ظهر راجي ويربطها جيداً، لا يقتنع بي، يشاركني حبل أخر، ومسعد شهم من هذه الناحية، يعيد الحبل لصاحبه بعد انتهاء المهمة، يقول، إنّ من يسرق حبلاً يصير يوم القيامة في رقبته من مسد، عشرة مسعد للشيخ علي النوير تترك أثراً في كلماته، التقى مسـعد بالنوير في المولد، كانت عراضة الشوام تمر ببهجة عند درج فرعون تحـت أقواس النصـر المزدانة بأغصان الدفلى المزهـرة، والدفوف تضرب، شـعر مسـعد بفيض من الحماس والفرح، ظل يقفز ويركـض، يدور حول نفسـه والناس، دون أن يتوقف معتذراً لأولئك الذين يتشـركل بهم، ، قال له النوير:

– بس يا ابني..هدي.. شو؟؟ راكبك جني؟؟

أعوذ بالله، مسعد سيد العاقلين، لكنه يشعر بنشوة المهرجان، ويتمنى لو منحوه شـرف الضرب على صناجات النحاس، أو الدوران بالمبخرة حتى يدوخ، فهذا عيد مولد النبي.. حي.. حي..

تردد مسـعد على النوير في منـزله بعد ذلك، وقف مبهوراً بمعجزاته،

قال بدهشة:

- صحيح؟؟ بقولوا انك وقفت القطار بعينيك، وبتمشـي ع بطن العليل بقوم صاحي!! وانك بتدخل فرن النار وبتطلع منه صاغ سليم!!

لا يؤكـد ولا ينفي، يتفادى النوير الإجابة الصريحة الشـافية، ولكنه يكثـر من ذكـر الله، وقد قام بكيّ ثألولة ظهرت في كف مسـعد ولم يتقاض منه أجراً، قال له أنت مبروك يا مسـعد، وصدق مسـعد ما بدا أنه نبوءة، أنا، لم يعجبني الأمر لأن الشـيخ النوير أشـار إلى أسباب الثألولة قائلاً أنه الحبل، لمـاذا لا يقول أنها القذارة التي يعيش مسـعد فوقها!! لا أريد أن أهين صاحبي، ولكني بريء من ذنب الثألولة.

إن بـدا مسـعد للجميع غبياً فهـذا غير صحيح، قطعـاً يتجاوز ذكاؤه قـدرات عبد الرحمن المتواضعة الذي يعده أبوه لاسـتلام السـوق من بعده، مسـعد العجيب يلتقط الحكايات بأذنين ذكيتين،ويعيد تصفيفها وروايتها وكأنه مخترعها وقائلها.

ليل سبيل الحوريات طويل ومربوط بحبل متين ومشدود إلى جبال عمان الجديدة، ولكن البشر لا يعترفون، لم يشعروا يوماً بأهمية الحبال، وحده مسـعد جعل لي قيمة ومعنى، كنا نتمشـى في سـوق الحلال نهار اثنين، السـوق يكتظ بالباعة كل اثنين وخميس، لم تكـن هناك أحمال، بدا الأمر مجرد نزهة لراجي، ولكن رجلاً أسمر صاح:

- بغلتي، بغلتي.

والتم الخلق، كانوا يعنون راجي، راح مسعد يلطم حتى أوجع صدغيه قبـل أن يرتضي بالسـير مع الرجل إلى المحكمة، يا سـادة يـا كرام، ماذا يعرف مسـعد عن الدنيا؟ هو هنا منذ سـال الماء، ولكنـه ليس ابناً لأحد، كاتب المحكمة رقّص حاجبيه مستنكراً:

- يعني شو اسمك؟؟ ما لك أوراق؟؟ ما لك أهل؟؟

- ما لي غير هالبغل، اسألوا المحامي عبد الرزاق هو اعطاني المصاري، اسـألوا أبو عبد الرحمن، والست نجمة، أعطوني الله يعطيهم، حتى ملحم البخيل أعطاني

- زبال شاكل وردة..ولك من وين بتعرف هذول؟؟

- كيف يا سيدي؟؟ كيف؟؟ بعرفهم، اسألوهم..

- حدا شافك وأنت بتشتري البغله..؟؟

- خاف الله كانوا الشرارات، بياعين الملح.

وصرخ المدعي معترضاً:

بالله؟؟ وينهم الشـــرارات؟؟ هاي بغلتي مشـروومة إذنها، بعرفها بين ميت بغل.

استمر مسعد في النواح:

نادوا لي المحامي عبد الرزاق.. نادوه.. هو بعرف، هو اللي بعرف.

لم يكلف أحد نفســه باستدعاء المحامي، وأملى القاضي على كاتبه نص الحكم...

في مجلسنا الشرعي المنعقد في عمان بتاريخ ١/تشرين الأول / ١٩٣٧ باسم سـيدنا أمير البلاد عبد الله بن الحسين، حضر لدينا المدعي سالم الحميدي، وادعــى علــى الحاضر معــه في المجلس المعروف باســم مســعد (مجهول النسب) من سكان عمان، مشيراً بأن البغلة الزرقا الذي دخل وركها صبره، مقطوعة أذنها اليسـرى، الحاضرة بباب المجلس وسـنها ثلاث سنوات، قيمتهــا نصف دينار، آلت إليه بالشـراء من ابن عمه طالب الحميدي وهي صغيرة الســن، ســنة واحدة لا أكثر، وانه منذ سنة وثلاثة أشهر فقدها في المرعى في مادبا، والآن وجدها تحت يد المدعى عليه المذكور في سـوق عمان، وطالب الحكم بالبغلة وتسـليمها له بعد الثبوت بالوجه الشـرعي، ولما لم يقدم المدعى عليه ما يفيد ثبــوت البغلة لملكه، فان حكمنا للمدعى وإلزامنا

المدعى عليه مجهول النسب بأن يسلمها له.

وصل صوت نواح مسـعد إلى القلعة، وأخرج القاضي إبراهيم هاشـم من حجرته ليشرح له بتعاطف تام بأنه كان يمكن أن يسجن لو أن هناك مساحة طراحة في زنزانة السجن، وان عليه أن يكون شاكراً إذ انتهى الأمر على هذا النحو، كما نصحه باستخراج أوراق ثبوتية، قال برقة:

– يا ابني، بدون أوراق انت مش موجود، عدم، مين أبوك، مين أهلك؟؟ لازمك أوراق.. بكره أي شغله صغيرة بتوديك الحبس.

عندما أمسـك الحميدي براجـي، تجاوبت، الخائنـة، أو لعلها حقاً تذكرت طفولتها في مراعي مادبا، ولكن مسعد قفز كالمجنون صارخاً:

– اخذتوا راجي الله لا يسامحكو، لو كانت مش إلكو، بس حبلتي..لأ.. ما بتوخذوا حبلتي، أيوه، افتح تفترك يا قاضي، سجل.. هاي حبلتي.. أه.. اشتريتها من الدكان، بحر مالي.. ما بتوخذوها، شو هي الدنيا سايبه!!

فكني الحميدي بيسـر، لم أكن مربوطاً بقوة، وسـلمني إلى مسعد، هذا الذي احتضنني ووضعني في عبه تحت الفانلة المخزقة، سـار حتى الجسـر الروماني، نظر إلى القنطرة توشـك المياه أن تغطيها، وصعد الدرب إلى أعلى الجسر باكياً، سحبني من عبه وفردني في عين الشمس الحمرة لحظتها.

– يا ناس، يا خلق، اشـهدوا عليّ، هاظا حبلي، لا حدا يقول سرقته، هاظا حبلي.

انفلتت من كفيه في لحظة طائشـة، دفعني الهـواء نحو الماء، وسمعت الآهه ممطوطة ومخنوقة في صدر مسـعد قبل أن يبتلعني الماء، وسمع مسعد لأول مـرة صوتي الحقيقـي، صرختي المدويـة، رد عليّ.. ايـوه.. ايوه.. وواصلت الصراخ وأنا أهوي

قال مسـعد أن الحبل وقع من السـما وما تلقفته الأرض، بعد ذلك صار يقول..عمان وقعت من السـما وما تلقفتها الأرض، قالوا، جن الرجل، وظن

آخرون بأن مســعد صار فيلسوفاً، أرسل الشيخ النوير أحد صبيانه يستدعي مسعد، أهداه مسبحة من خشب الزيتون المصنوع في القدس، وعلمه أن يدور مع الدراويش.

اختفيت بين الأسماك التي تسبح، لا تعنيها زعقات مسعد فوق الجسر، بين الأحجار الصامتة، سـحبني الطوفان وأعادني، راح الزمان يبني حولي وفوقــي، جف الماء أولاً، وتيـبسّــت تحت كتل الطين الــذي بات صخرياً، صار مســعد ماضياً، ولكني وفي عام ألف وتسـعمائة وتسعة وتسعين، وهم يحفرون أساســات مركز الحسين الثقافي، وقعت بيد عامل مصري، سحبني متشككاً:

- إيه ده؟؟ حبل!!

ورد المهندس:

- لأ.. مش حبل، أكيد من تركيب المكان الجيولوجي.

واندلقــت صبة الباطون الحامية فوقي لاندثر مجدداً مثل النهر، واليوم في العــام الثالث من القرن الواحد والعشــرين، أقبع تحت أساســات المركز الثقــافي، وأسمع في الليــل أصوات الراقصين والدباكين على مســرح المركز، وعندما يلمون طبولهم وزماميرهم تعود مجدداً صرخة مســعد المفجعة مثل الصدى في المكان.

حديث السكر

لو أطاعت السماء أهواء البشر لرشت فوق هذه التلال سكراً خالصـاً بدلاً من المطر والبرد والثلج، الأفواه في هذه البقعة مغرمـة بيّ، أن تحلي فم أحدهم يعني أنك تحلي حياته، وليس هناك من مكان يشبه أقماع السكر مثل تلك المدينة، عمـان، كل شـيء يتخذ هيئـة هرم قمعي، كأنما تتشـكل هـذه التركيبة العشوائية من بلورات سكرية، لن يدرك الناس أبداً وجه الشبه بيني وبين المدينة الصغيرة، التي يسمون هضابها جبالاً، تطاولاً وزهواً، وهي لا تعدو أن تكون مجرد هضاب، مثل تل ألق شـكله تجمع ذرات السكر، في حين أن الحجارة والطين فقط يرفعان الجبال المتطاولة، مع ذلك يفلح الأهالي كل يوم في تصور قصبة عمان وسيلها محاطاً بالجبال.

وراء مدرسـة التجهيز حيـث تترامى كروم العنب يمكن شـم رائحة السكر الغامضة تخالط الهواء النقي وأغبرة الطلع وشذا المشمش والأكي دنيا المثمر، السـكر واسـع الانتشـار، لعل هذا توق المكان إلى تاريخه البعيد، حين كان السـكر يأتي من غور الأردن ويصدر إلى مصر والعراق، وما تبقت من تلك الحقبة إلا أعـواد للقصب الحلو تتغاوى في غور الأردن قرب النهر المقدس، أنـا خاصية اجتماعية في كل الأحوال، أنا من يدخل كل بيت ومن تشـتهيه كل نفس، في عمان بالتحديد هناك عشـق غريب بيّ، كان العسل المجيد المحاط بكل القداسة يتراجع أمام شوالات السكر التي تصل بالقطار من تركيا، قاوم الشـركس هذه الهجمة، روجوا للمناحل التي يمتلكونها، ولكني واصلت تدفقي، حتى اسـتحوذت على رضا كافة الملل، السـذج ظنوا أني تكثيف للعسل، ولكن قصب السكر صمد وأسس مملكته السعيدة، إضافة إلى كم غير يسير من سكر الشمندر الأسمر، وجن جنون التجار، ليس هناك من سـلعة مطلوبة مثلي، حتى لو جلبها كل تجار عمان لظل السـوق في ظمأ إليها، مثقال وشوكت عصفور لم يتمكنا من احتكاري، ولا حمدي وإبراهيم

منكو ولا ياسين دياب، إنني كالهواء في كل مكان، سكر.. سكر.. سكر في سـوق السكر، جيء بالرز والشـاي رديفاً، ليعمروا اثني عشر دكانا على اليمين ومثلها على اليسـار، وصارت عمان تعشـقني، تستلذ بي مثلما تسـتلذ بكل حلو، مثل أن تمر هيام ربيبة الحج تقي الدين، ويتنهد ملحم هامساً في سره:

- حلوه.. حلوه.. مثل السكر.

تسـير البنـت مثل العسـكري، لا تتمايل ولا تتلفـت كأن ردفيها من خشب، وتضرب الأرض بقدميها بانتظام وثبات، لا تشعر بالسكر المتساقط منها إلى فؤاد الرجل.

عندما تغرق حسـيبة رطل السـكر الناعم برطل السمن البلدي وتبدأ في دعكهمـا، عندمـا يذوبان في خليـط مائع، تقرص هيام شـقيقتها الصغرى اعتدال في فخذها هامسة:

- بموتك لو أكلتي من كعكها..فاهمة..ريتهُ سَـم.. خليه إلهم، مشان تكبر كرش عمي أكثر.

تمـر أمام ناظري عبد الرحمن ابن عمها الأبله الذي يفتح فاه وهو يلمح في صدرها رجراجين صغيرين، كأنه لم يرها من قبل، تواصل حسيبة إضافة دفعات الدقيق الأبيض، ثم تبدأ في تشـكيل العجينة، تتحول العجينة بين أناملهـا إلى عصافير صغيرة، تصيح بعـد أن تأكدت بأن ولدها عبد الرحمن غادر:

- مين اللي بدها تنقل صواني الغِريـبة للفرن؟؟

ترد هيام من الداخل:

- ولا واحدة بتروح، ليش ما وداهم عبد؟؟ والا خلي جوزك يودي صبي الدكان ينقلهن، وبعدين أنا مش عارفة هو عيدنا وإلا عيد النصارى!!

تضع حسيبة الصينية المدورة بين ذارعي اعتدال:

- عيــد.. هــاذا عيد..عيد الله.. افرديها، يخرب بيتك شــو بومة، هم جيرانا بقصروا بعيدنا!!

ثم تهمس في أذن الصغيرة:

- انتي خدي هاي الصينية، وارجعي فريره مشان باقي الصواني، مش تتأخري!! بدنا نلحق نودي صحن للجارة وصحن للخياطة زازا.

يسيل ريق اعتدال لمرأى الغريبة المكعكة في الصينية وتهمس في احتجاج ضعيف:

- صحن رايح صحن جاي، أنا أصلاً ما بحب كعك الخياطة.

تؤجل زراك الخياطة وتغرق في الدقيق والســميد والسمن والسكر، تلمح الصغيرة تجتاز الدرب إلى الفرن، ما أشــطرها أم عبد الرحمن، ولكن المهمة هنا أوسع، إنه عيد الفصح وعليها أن تنجز الكثير بدءاً بشي الكعك وتلوين البيض، ، في عيد الفطر ســيكون الثقل كامــلاً عند الجيران، أما الآن فالأمر يتجاوز عملية إعداد الكعك وإذابة السكر، عندما تدور الكعكة بين أصابعها، ثم تتأملهــا في باطن الكف، في حين تقترب بخشــوع بملقطها الحديدي في الكف الأخــرى، تنقش زازا الكعكة من الجوانب وصولاً إلى الوســط، مثل الإكليل، تماماً كما كان إكليل الشوك فوق رأس المسيح، وتدور حبة المعمول المنتشــية بالسكر والسميد ثم تسحب بلطف منتصفها لتصير هرمية بقاعدة عريضة، أنها الإســفنجة التي غمسها أعداء المسيح بالخل وقربوها إلى فمه فوق خشــبة الصليب عوضاً عن الماء، زراك لا تصنع الكعك فحســب، إنها تتعبد، ، تضرب شــرش الحلاوة بقوة في خليط السكر لإعداد سائل الناطف الرخو الحلو، تضرب حتى تشــعر بأن ذراعيها تخشبتا، وتصلي، وراء كل هذه الصلوات تعرف أنّها وكل نساء المسيح الطاهرات يحشون الكعك بالتمر والجوز والســكر، كأنهن يستبدلن آلامه بحلاوة الفداء، السكر يجعل طعم الحيــاة أحلى، ولكنه لا يعــرف إلا بالمر، الأرمنية تعــرف هذه الحقيقة

لهذا تصنع صنعتها دون عجلة، لا تريد أن تباري أحداً، وغداً ستخرج كل صواني العيد من الفرن ونتبادل حلاوة الفداء، بعضنا يعلم وبعضنا ليس له من العلم إلا الحلاوة الذائبة في فيه.

السـكر الذي وزع بالشوالات قبل العيد على محال البلد خارجاً معظمه مـن محلات عزات الرجال، معتقاً من بين بـكارج القهوة والمناخل وبالات القطن والطناجر وألواح الدراس، مسـترداً أهميته، ، السـكر الذي جاء من تركيـا ولحقت به علب البقلاوة والبرازق من دمشـق يتـوزع إلى أصناف، سترسـل كميات السـكر الفرط الناعم والخشن إلى محلات سبع علوش وعبد الوهـاب الحلواني، هناك سـتذوب وتخلط بالألـوان والنكهات، ثم تصير غلافاً خارجيا صقيلاً أو مخرمشاً لحبات اللوز والحمص والفستق، وستغني الصغـيرات وهن يـبتعـن القضامة، يـا قضامة ناعمة ويـا قضامة مغبرة، سـيرجئن بحس أنثوي مبكر بقية الأغنية إلى الجلسـات النسـائية عندما تصير كل الأصوات بحلاوة السكر وتواصل الأغنية بغنج المدربات، جب لي السكر بالكاسه، قلت له دمي ما بيلقى، أكلّني وأنا نايمه، النساء يضحكن كثيراً عند هذا المقطع، لا شـيء يؤكل والمرأة نائمة إلا السكر الذي يصير له ملتبس المعاني.. سكر.. سكر..

بين النسـاء وبيني أسـرار يمكن للدهشـة ذاتها أن تقف أمامها بلهاء فاغرة فاها، بيني وبين النسـاء عشـق منذ اكتشـفت ملكة سبأ سحر فعلي فقوّضت نوم سـليمان، كان يختـال عليها برواق من بلـور واختالت بفعل السكر، النسـاء يشحذنني سـلاحاً، عندما يبدأن بغطس أناملهن المنمنمة الناعمة، بالذات البنصر، يغمسـنه في السكر ويمصمصنه مستلذات، يمكن لتاريخ حواء أن ينتصب فجأة ويشـحن تلك المرأة المستكينة في بيتها الواقع فوق دكاكين الأقمشة وملابس العرائس في شارع السعادة.

تكيل حسيبة السكر بدقة، كأس من الماء، كأس من السكر الفرط، ترفع

الوعاء فوق بريموس الكاز الذي يصدر وشـاً منتظماً، تزغرد شـعلة اللهب عندما يتقعد الوعاء فوق ثلاث أثافي معدنية، وتحرك حسيبة المزيج بانتباه في اللحظــة التي تذوب فيها أخــر البلورات في قعر الوعــاء، تعصر نصف ليمونة، تعد القطرات المتسـاقطة فوق المزيج، السـخاء في عصر الليمونه قد يجعل العقيدة لينة أكثر مما ينبغي، والمطلوب ليمونة شـحيحة القطرات، ثم تبدأ عملية الخلط، فإذا ما راحت فقاعات السكر تموج وتبقبق على سطح الوعــاء وتصغر وتتقارب، رفعت حسـيبة وعاءها ودلقت المزيج فوق بلاطة رخاميــة مدهونة بالزيــت، تغلق الأبواب، لا تحـب أن تراقبها الفتيات وهي تؤدي هذه المهمة، انه طقس مؤلم لذيذ، سـترفع قدمها في وجه النور المنبعــث من طرف النافذة التي أبعدت سـتائرها بحيث سـقط الضوء تماماً حيــث تجلس، سـتراقب المزرعة من زغـب بني على امتداد السـاق حتى يتصحر اللحم في أعلى الفخذ، وسـتبدأ في تليين العقيدة بين أناملها، صيفاً يمكن للطبيعة أن تساندها، شتاءً سيكون عليها أن تبصق فوق المزيج وتعاود مطه، عجينة حسـيبة شقراء، تتسلل اعتدال عبر الباب تراقب نزع الشعر وتسـمع آهة زوجة عمها السريعة المقتضبة التي تبدو كأنها نجمت عن شد مفاجئ وألم عابر، تبتلع حسيبة الآه وتداري تلك المتعة الخفية التي تتأتي من انكشــاف بياض بطة القدمين كلما أنجزت حرث مسـاحة أكبر، وكلما تــورد جلدها، أحياناً تفكر كيف هو جسـد ضرتها نجمــة، وتنبذ الفكرة سـريعاً، تجرب أن تفكر بقدر معقول مــن الأمومة المصطنعة تجاه الفتاتين اللتين تربيتا في بيتها، ربما حان الأوان لتدريبهن على هذه المهمة الشــاقة المتعة، لكن هيام تتصرف بكبر وازدراء يسـتفزانها، تترك شعر قدميها الأسـود القوي كأنها فخورة به، تفكر حسـيبة بعداونيــة رداً على صلف هيام معها، وتقدر لو أن الصبية واصلت هذه العنجهية فان أحداً لن يلتفت للــزواج منها، قد تصبـح رفيقة حياتها حتى المـوت، ومن يدري قد يجن

تقي الدين ويزوجها بولده، الولد الأبله يرقب الصبية باهتمام هذه الأيام، لن تسمح له بالوقوع بمثل هذا الفخ، أما اعتدال فهي أكثر رقة ومرحاً، ستسمح لها بانتزاع الشعر في عرس جانيت الشركسية نكاية بهيام، كما أن عليها أن تخبأ عجينتها في علبة السمنة الفارغة.

تعد نجمة العقيدة بمقادير مختلفة لتصير بنية محروقة، تغمر السكر بالماء بحيث لا يزيد ارتفاعه عنه ولو قليلاً، وتعصر الليمونة كاملة، يحترق سكرها أسرع، ولكنها تعرف اللحظة المناسبة لإنقاذه من المزيد من الحرارة، ثم تمارس سرها، تسقط حبة من المسكة فوق المزيج فتذوب سريعاً مصدرة رائحة زكية، ستعلق تلك الرائحة في مسامات نجمة، ولن تخبر أحداً عن سر كون جسدها عطر، تميع العجينة بين أناملها القوية سريعاً، الحرارة التي ترتفع في كف نجمة كفيلة بإذابة العجينة، لن تسكبها على البلاط ستحتفظ بها في مقلاة الألمنيوم الجديدة التي جلبها الحج تقي الدين من الشام، وستقفز دون حرج وتتأوه كلما جذبت ما التصق من المعقود ناتفاً ما علق به من شعر، تلتمع القدمان حتى أعلى الفخذ، تتألم أكثر في الأعلى، يوم كان فخذاها قويين كساعد شاب كان الألم أقل، هناك ارتخاء طفيف يجعل العملية أصعب، تشد لحمها بكف وتنتزع العقيدة بالكف الأخرى، تحسد حسيبة التي لا تذهب إلى تنظيف الزغب في أعلى الفخذ، تلك يأتيها تقي الدين مساء بحيث لن يرى الكثير من التفاصيل، أما هي فانه يتسلل إليها في غياب الأولاد في المدرسة، فيكون ضوء النهار قوياً فاضحاً وإن أغلقت الستائر، وعليها أن تلتمع كما يجدر بها كنجمة (من راسها لساسها).

فايزة لا تحب العملية برمتها، عندما تقتلع معقود السكر عن جسدها ستلتصق ذرات كثيرة هنا وهناك، الاقتلاع مجدداً سيترك ندوباً كثيرة، الشعر القاسي سيفتح مسامات القدمين ويتركها حمراء نافرة لثلاثة أيام متوالية قبل أن يستريح الجلد ويتنفس من جديد، أما أعلى الفخذ فيتبقع

بالكدمــات الزرقــاء، يحلو لفايزة أن تكشــف عن فخذها أخــر الليل على ضــوء قنديل الكاز تتفحص الكدمات وتســب من اخــترع العقيدة ومن عقد حياة النســاء وربط اللذة بالألم، كما سيحدث أحياناً أن تبكي عندما تشعر بقدميها تنزلقان ناعمتين وحيدتين تحت اللحاف البارد.

رفعت زراك كتلة الســكر المعقود بعد انتزاع الشعر أمام عيني الدكتورة برنــل التي بحلقت بدهشــة، وهي ترى فتات الجلد الميــت الذي انتزعته العقيدة مختلطاً بالشعر، تاركاً الجسد لامعاً نظيفاً، قالت زراك:

– بلا معلم عليكي يا دكتورة، الســكر بنظف الســت، بقشــرها مثل الحية، بتصير ناعمة، وبلا معلم عليكي، شــفرات الحلاقة بتخلي الشعر مثل شوك الصبار.

– بين.. بين.. بوجع.

– اللي بده الدح ما بقول أح.

لا تتقن أسمهان صنع العقيدة، تصير حجراً بمجرد أن تبرد في طنجرتها، تتذكر أسمهان بأن جارتها الايطالية في بيت لحم كانت تســتخدم العسل، تمده على قدميها وســاعديها ثم برشــاقة تلصق فوقه قماش الدمور وترفعه ســريعاً، جربت أن تقوم بهذه المهمة ولكنها لم تحتمل الوجع، لم يكن من يدفعها لإطالة المكوث في حمام النصر إلا تلك البنت الشــامية اللهلوبة التي تزيل شعر السيدات قبل الحمام، حتى اكتشفت بأن رفقة الخياطة مستعدة للمجــيء إلى بيتها للقيــام بهذه المهمة، كفت عن إطالــة المكوث في الحمام العام، فرفقة بارعة حقاً، العملية لن تأخذ عشر دقائق، وستترك لها رفقة كرة صغيرة من العقيدة لتكمل المهمة على مجمل الجســد، كما ستخبرها في تلك الدقائق العشــر أن قدمي فايزة بتقّرف، وشــعر حسيبة طويل وناعم، وشــعر نجمة بدأ يخف مع الكبر، وأن شــبانور الشركســية لا تزيل شعر

جسدها الأشقر، وأنها لم تر أوقح من بنت نجمة فهي تزيل شعر ساعديها على صغر سنها، أما هيام فهي نص زلمه.

لن تستمع أسمهان بتركيز، إذ بمجرد أن تبدأ القدمان بالخدر بعد سحب الوجبة الأولى من الشعر حتى تبدأ هي في التهيؤ لاستقبال عبد الرزاق، فتتخيل كم ستكون طرية وناعمة وكم سيكون خشناً وكريماً.

السكر يحفظ أسرار النساء، ويبادلهن عشقاً بعشق.

قطع السكر المربعة، تلك التي تشبه القطع الإنكليزية التي يذوبها كلوب باشا أبو حنيك في فنجان الشاي عند العصر، هذه المربعات ترسل في معظمها إلى مقهى حمدان ومقهى المنشية الفوقا حيث يجتمع عمال سكة الحديد وعمال شركة النفط العراقية، يحكون مغامرات السفر ويسمعون الحكواتي وقصص أبو زيد الهلالي، والمنشية التحتا حيث يجتمع المتعلمون يحكون عن أخر ما سمعوه من قوانين وتشريعات محتملة سيصدرها الأمير، وفي مقهى ماتيلدا حيث يتجمع عاشقو الجمال والمعجبون، سيغمر الزبائن هذه المكعبات بالشاي ويحركون القوالب لتقرقع قليلاً مرتطمة بزجاج الكأس قبل أن تذوب تماماً.

يتبارى التجار في إشباع رغبة المدينة للحلو، ويخترعون نكهات كثيرة، بعضها يعرفونها أباً عن جد عندما جاءوا من الشام، نكهات السوس والتفاح والليمون والتوت، سبع علوش سيجازف ببيع الحلوى المفضلة لديه، الكعكبان، سكر ملون وممطوط ولذيييذ، كيف لا يكون السكر لذيذاً في كل أحواله، حتى عندما يقرر الخباز أن يتجاوز مهمته فان ذلك يكون لخاطر عيون السكر، الهريسة التي تصل محمضة من الشام لن تعجب نساء عمان، فلنصنع لهن الهريسة، مزيد من شوالات السكر ستأتي، وعلى التجار أن يحسبوا أرباحهم جيداً، في كل الأصناف يمكننا أن نتشاجر، أو أن نعقد صفقات شطارة، كل تاجر من وراء ظهر صاحبه، التجارة شطارة مشروعة،

ولكن عندما يتعلق الأمر بالسـكر، فان حلاوته تجعلنا نتناسـى الأرباح، نغرق كلنا في الحلو، نصير حلوين.

السـكر المسـال إلى قطر ومنكّه بماء الورد سـيصب فوق صواني الكنافة مختلطاً بحبائل الكنافة المفتتة، متسـللاً إلى قلب الجبن النابلسي الذي يمط كلما قضمه فم مشـتهي، أما الكلاج فانه حيلة الخبازين لتجاوز الحلويات الأخرى، في رمضان سـيصير والقطائف والعوامة سـادة السفرة العمّانية، وسـيضحك أبو رضـوان القدسـي بخبث وهـو يحلى لاعبي الشـطرنج في مقهى المنشـية بصينية كلاج تسبح في السكر، سينظر بالتحديد نحو جاره النابلسـي صانع الكنافة الشـهير، وعندما يسـألونه عن مناسبة التحلاية يقول بابتهاج:

– قصيدة عرار.

ثم يتخذ سمة الشاعر، ويطلق صوته مترنماً:

إن القطـايف لا تسـاوي لحسـة

ممـا يسـميه الورى كلاجـا

أتقول ما الكلاج؟ يا لك من أحمق

ضل السبيل وأخطأ المنـهاجـا

يضحك الجالسـون، لكن أنور النابلسي يرفع طربوشه عن رأسه ويضعه متمهلاً على الطاولة، ثم يقول دون أن يلتفت ناحية المخاطب:

– كم دفعت له تا يساوي هالاعلان عن كلاجك؟؟

– لا.. لا يـا حبيببي، كلاجي ما بده إعلان، الزلمه ذويق صاحب مزاج مـش كيف ما نكان، وبعدين انت شـو مزعلك؟ جاب سـيرة الكنافة؟؟ هو بقارن الكلاج بالقطايف وبس.

يستمر الضحك، ويضرب ملحم حجر رفيقه الذي يلاعبه الشطرنج قائلاَ، كش ملك، يدهش في أعماقه كيف تمكن من الانتصار في لعبة الشطرنج رغم

أن عقله كان منشـغلاً تماماً بالتفكـير في مصنع البوز الذي أقامه عبد الفتاح ملحس في شـارع الهاشمي، كان يفكر بأن مولد كهرباء سيمكنه من تجميد الماء وصنع الثلج، فإذا ما نزل دمشـق وابتاع جهازاً دواراً بيد تحرك المزيج داخل وعـاء محاط بالثلج، إذا ما أضاف السـحلب إلى الحليب وظل يحرك المزيج لسـاعات مضيفاً إليه السـكر ونكهة فاكهة ما، فانه سـيحصل على منـتج جديد لم يتذوقه أحد في عمان، سـيتمكن من صنع البوظة، تلك التي سـتلتهم كل ما يأفكون من كنافة وبقلاوة، البوظـة، عليها قد يتزحلق إلى المجـد، قد يصير من كبار التجـار، صاحب صناعة معتبرة، قد يتمكن من أن يفاتـح الحـج تقي الدين في أمـر هيام، البوظة تحتـاج إلى مولد كهرباء متواضع، وجهاز بيد متحركة، وسكر.. كثير من السكر.

حديث السجاير

يبدأ الكيف فكرة، ما أن توضع السيجارة بين السبابة والوسطى حتى تنتشي النفس، وما أن يسحب المدخن أنفاسها حتى تستريح الروح، انظر كيف يتعامل مسعد معي، يطبق علي بشفتيه ولثته الناشفة طوال النهار، ويشعل أعقاب السجائر من بعضها البعض، سيقضى معظم النهار باحثاً عما تساقط منها على أرضية مقهى المنشية التحتا، في المنشية الفوقا لن يسمحوا له بالدخول، سيؤنبه المحامي على التقاط أعقاب السجائر ولكنه لن يكف، طبعاً إذا جاد عليه أحدهم بسيجارة كاملة فانه سيكون شاكراً، ولكن السيجارة الكاملة ليست أكثر تكييفاً من العقب المستهلك الذي التقطه من فوق البلاط أو حتى من على تراب الشارع قرب السيل، المسألة حكاية كيف، منذ جلوس أول كييّف في الحقل يبرم أوراق التبغ التي عثر عليها صدفة يسلي نفسه بإشعالها، والكيف ليس صنعة ولا اختراعاً عمانياً، كان القرويون يتفننون في زراعة التبغ وأوراق التنباك العريضة، يسقونها بول الأبقار كي لا تنطفئ إذا أشعلت فيما بعد، وينشرونها في الظل بعد القطف حتى لا تجف وتظل فيها نداوة النبات، يفركون أوراقه العريضة في الكربال متخلصين من القش والعيدان الجافة، ثم بعناية يفصلون الورق عن التراب والهشل الناعم والتفل، ترمى هذه المخلفات لتتحول أوراق التبغ إلى سجائر يستمتعون بلفها على أيديهم صانعين لها حكايات ومقامات، فكبير المجلس لا يعتذر لصغيره إن هو صاح به أو أهانه، ولكن يسود الصمت حتى يلف الكبير سيجارته، يتهامس الجلوس.. دخنت معه، ثم يرمي الكبير بعلبته الفضية سحلاً فوق الحصيرة أو المصطبة التي يجلس عليها الجمع، موجهاً إياها صوب من أهانه، فإذا ما وصلته، دخن الطرف الأضعف سيجارته كأنما قبل اعتذراً لم يفه به أحد، ورد العلبة قائلاً.. عمار.. نادراً ما يجرؤ الأضعف وان كان مجروحاً، على رد علبة السجائر

دون تدخـين اللفافة ومثل هذا سيعني بالتأكيد مشكلة تطول وتتضخم، يتعاطى الرجال الهيشي أو المنظوري أو الحسبشي، وإذا كان الهيشي أثقل التبغ على الصدر فانهم يسعلون باصرار ويفاخرون بغلاظة أصواتهم وحريق صدورهم قبل أن يبدأوا بعد سنوات قصار بلعن من لف الهيشي ومن تعاطاه، ولكنهم يواصلون، يقدم الرجل لنديمه السيجارة قائلاً.. يكفيك شرها، فإذا ما أشعلت وتذوقها الكييف أجاب قائلاً.. ما تذوق حرها.. وواصلوا.. يحرص الخبراء منهم على وضع قشرة ليمون داخل علبة التبغ فيمنحونه بعض الرحيق المنعش ويحافظون على رطوبته خاصة نوع المنظوري السريع الجفاف، أما مفروك التبغ الكبيرة الفاخرة فهو ما تسعى لشرائه شركة السجاير الحديثة التي غامر التاجر بدير بانشائها، فتخلطه بالتبغ الفرجيني الذي قطع بأداة حادة ولم يعرف الفرك، تلف هذه الخلطة في ورق الاتومان الرقيق المصنوع من لحاء نبات متسلق رطب، العمانيون وكل البشر عرفوا هذا الكيف وأحبوه، إنه لا يضيع العقل مثل المسكرات اللعينة المحرمة، سيزعم البعض أنه يأتي بالأفكار الطيبة والتأملات، تأملوا كيف يسمى العمانيون تبغ الأرجيلة تطلي سرو، سرو لأنه مصنوع من خشب السرو، وتطلي أي مربى، أي كم من السكر يخلط بالتبغ ويطبخ ليصير تعميرة للأرجيلة، إنه اسم للمزاج، للتلذذ، يقول العامة فيه (أوله دلع وأخره ولع) في النهاية هو تجارة رابحة لشركة الدخان والسجاير الأردنية التي ستغمر السوق بالأسماء والأصناف.

تكمن طرافة الجوكر في اسمه، يتعامل العمانيون مع الاسم بمفهومين متناقضين، الجوكر في لعبة الورق هو الرابح، الذي يقش الكل، انه الأكثر مرونة، الذي يركب في كل الأماكن، الجوكر في شركة السجاير كان يرمي إلى هذا المفهوم، ولكن العامة يخلطون أحياناً بين الجوكر والأراجوز، ربما هو مرسوم على هذه الهيئة المضحكة على الورق، ولكن الأراجوز لا يركب

إلا في التسلي، ، إنه مسخرة شعبية، يقول الصيدلي أميل قعوار وهو يلعب أوراق الشــدة أمام محل بيع الأزهار الفريد والوحيد في المدينة، أن الجوكر مثل كلوب باشــا أبــو حنيك، الذي يقش أمامه الشــيب والولدان، مع ذلك يمكننــا أن نتوهم بأن له هيئة أراجوز تجعله محلاً للتندر والنكات، ولكن الجوكر يظل متأكداً من كونه جوكر، ينبه بائع الأزهار أبو الحافظ البزيان صديقه قعوار بأنه يتحدث في أمر سياســي، متســائلاً إذا ما كان من الممكن اختراع لعبة شعبية لا تحتاج إلى الجوكر، ويقول:

– يعني مثــل اجتماعات المؤتمر الوطني وحــزب الإخاء، كل الأوراق بتتساوى.

يرد قعوار :

– لأ يا صاحــبي، مش ممكن، الجوكر موجود، ومش معقول نســاوي حالنا مش عارفين..

– طبعاً ما هو انت من يوم ما منعك الأمير تلبس برنيطة، وانت حاسس بالجوكر بشــيل بحياتك وبحــط.. اقولك، دخن عليهــا تنجلي.. هات لك سيجارة.

يخرج البزيان سيجارة من علبته الفضية مقهقهاً:

– وهاي الســيجارة كمان جوكر، وهي اثنــين محررزين جايين علينا، يعني ممكن تقول الواحد فيهم قامة وقيمة، من وين ما خبطت الواحد فيهم بيرن، رئيس وزرا وقاضي ع ســن ورمح، توفيق أبو الهدى وهاشــم خير، اللهم الطف بينا.

يداعبه قعوار:

– شو؟؟ بتشاغب!! ع بالك ترجع السجن!!!.

يصل الرجلان باسمين وقد سمعا نتفاً من الحوار، يرفع البزيان ذراعيه في استسلام ضاحك:

- مرحبا حكومة.. والله كنا نحكي عن الجوكر.. السـيجارة.. مش اشي ثاني..

يضحك الجميع، ويجرون مزيداً من كراسي القش التي تحيط بها سلال الورد الجوري التي لم يبتع أحد منها هذا النهار.

يتزايد المدخنون، السياسـيون أكثر الخلق تدخيناً بعد مسـعد صاحب الجحش، ، بعضهم سـيطلب سيجارة بترا، المحامي يدخن هذه السيجارة رغبـة منه بزيارة البـتراء ذات يوم، والتجار يكتبـون اسمها في دفترهم بطـرا، الحروف ممتلئة بالتضخيم والتفخيم لأنهم يعزون هذه السـيجارة

ويقدرنها تقديراً عالياً، يدخنونها بفخر جلوسـاً على مقاعد القش على أبـواب دكاكينهم ويتعازمون بها، يبعدونها عن مخازن القماش، ومخازن الغلال والأطعمة، الأشياء كلها تعشـق رائحة السيجارة، المحامي يدخن بشراهة عند أسمهان، يحب أن يترك أثراً يدل عليه في خصلات شعرها وفي نسـيج شلحتها البرلون، ولأنه يغالب فكرة شـيطانية بأن يترك في زندها الرقيق حرق سـيجارته، فانه يكتفي بالرائحة التي تعلق الأشـياء، تقول له:

- الدكتـور تيزو ما بحـب التدخين، منعه في المستشـفى، بس الناس بتدخـن غصب، بنجـن إذا دخنوا قدامي، هاي قلـة أدب، وقاحة، بأكره ريحة الدخان، ولحد عندك بتتغير الأشـياء، ليش بتدوخني سـيجارتك؟ باشمهـا مثل المجنونة، هذا عجيب، ليش؟؟ شـو بتدخـن؟؟ بترا؟ كثير بدخنوا بترا، ليش سيجارتك غير؟؟

إنـه الإدمان يا حلوة، نفس الإدمان الـذي يعاني منه ملحم عندما كان يدخن سـيجارة صمصوم، ولكنـه وبعد اقتراضه مبلغاً مـن البنك الزراعي بضمانة عادل الصفدي، الذي ساعده في ذلك وهو يرى في مشروعه باب رزق

لتلــك المرطبات التي بدأ يســتوردها من إيطاليا وفرنســا، الصفدي قدر بأن معملاً للبوظة لا بد سيتعامل مع مرطباته، لهذا ارتضى أن يكفل ملحم لدى البنك، عندما وصل ماتور الكهرباء، قال معلم الشواء:

– يا عمي عرفنا المتعلمين شــو بســاووا بالكهربــا، الدكتور أبوغنيمة كان يكشــف على صدورنا بالأشعة قبل ما يهججوه عالشام، وأسعد الصابر بشغل المطحنة، وبدير بستأجر الماتور من المطحنة مشان يدور صور السينما بالليل، هاذا الساهي ملحم، شو بده بالكهربا؟؟

– بكره بتشوف غير يصير فوق الريح من هالشغلة الهامله.

– معقول!! بلبق هالبابوج لأم اجرين عوج..

لم يمر وقت طويل ليكتشــفوا بأن ملحم جاء بقوالب بلاستيكية صغيرة وراح يصنع البوظة والإيمه، قالوا انه سينافس بكداش في دمشق، الحاج أبو عبد الرحمن قال له:

– والله انــك مش قليــل، بوظة يم مرة واحدة!! ومــين بعمان عيمان بوظة!! هاي قصة خسرانه.

لم يجاوبــه ملحم تأدباً، ولكنه يعرف بأن بكداش دكان البوظة الصغير صــار محجــاً للعمانيين في دمشــق، يدلفون إليه قبــل أن يدخلوا للصلاة في الجامع الأموي، ولكن أبو عبد الرحمن لا يثق بـه، إنـه يستصغر شأنـه، وقد رفض منذ أعوام شراكته في صفقة الحديد من ألمانيا.. ولم ينجح ملحم نفسه في اســتقطاب أي من العاملين في السوق لمشاركته، وعندما صرف النظر عنها فوجئ بالكثيرين يغرقون الســوق بحديد ألمانيا، إنه سوق لا يرحم، حيتان يــأكل الكبير منها الصغير، لكنه وعبر مصنع البوظة ســيثبت لهم تفوقه، وأنه صاحب أفكار خلاقة، مختلفة، وســيبدأ منــذ لحظة التحدي الخفية هذه بتدخين نفس نوع السيجارة التي يدخنها الحاج تقي الدين، علناً، لا كما يفعل ولده الأبله عبد الرحمن، حين يدخن في الأزقة وعند السيل خوفاً

من أن تقع عليه عينا والده، وإذا كان الحاج بارع في لف أوراق الاتومان حول كمية من تبغ شـعر الغزل الأشقر المسـتورد، فانه سيكون أكثر أناقة منه، سـيدخن الأتومان الجاهز، السـيجارة الأكثر رشـاقة والمذهبة في أسفلها، وسيتصرف كتاجر من علية القوم، لن يبلع السيجارة حتى آخرها، سيترك دائمـاً مسـافة ناقصة عدا عن الكعـب الذهبي للسـيجارة الأنيقة، وعندما يقولون له ماذا عن صمصوم سيقول زمان أول حول.

فايزة شـقيقة ملحم ستكتشف علبة السـجائر اللطيفة تحت وسادته، وستدخن واحدة، ثم أخرى إلى أن تدمن، وعندما يدخل ملحم البيت كل يوم سيشم رائحة العطر قوية مشعشة، ويصرخ:

- شو... كابه قزازة الكولونيا يا ام خنانه!!!

وترد امرأته:

- مـا كبينا إشـي يا زلمـه، هاي اختك فايـزة بتحب تعطـر الدار ع جيتك.

ولكنه يكتشف أن سجائره في تناقص متواصل، يقول لشقيقته:

- بدك تحرقي صدرك، الله لا يردك، بس لا تخنقينا بريحة الكولونيا كل يوم، هاذ غالي بحطوا منه بالقطارة.. مش للكبكبه.

ويبدأ ملحم بشـراء باكيت السجاير لشقيقته خلسـة عن زوجته، انه يعرف طعم الإدمان وسطوته كما أن له دوافعه في استرضاء شقيقته.

زراك تفضل سـيجارة الفلاح، تقول وهي جالسـة في اسـتقبال حسيبة زوجة الحج تقي الدين، بأن باكيت الفلاح المربع مريح، هي تهتم بالأشكال كثيراً، وتخاطب حسيبة:

- معقول ما عندك سجاير؟؟

تغمزها هذه مشـيرة إلى اعتـدال، ثم تغمز الفتاة هازة رأسـها باتجاه البـاب، تفهم البنت إشـارة الأمر بالخروج، تجمع مـا تبعثر من فناجين

القهوة فوق صينية نحاسية وتخرج بصمت، النساء يسترخين على الأرائك أكثر ويتحررن بخروج الصبية، تسحب حسيبة باكيت الدخان من أسفل الصوفه

– مش الفلاح، بس كله سجاير .

– لأ يا خيتي، في اشي ثقيل، واشي خفيف.

– كله دخان للكيف، الله يرضى عليكن، كل واحدة تدخن سيجارة بس، ما بدي البنات يشوفونا ويتعلموا هالشغله.

– شو؟؟ عيب وإلا حرام؟؟

– شو بدريني.. عمهن بذبحني إذا تعلموا هالشغله، والله، امي وحماتي من قرامي السلط العُتقْ، وكل واحدة غليونها من هون للباب، وما برضوا غير التمباك البلقَاوي الأصلي، شوفوا غليون حجة فضية، شو ساواه عيب! ! ما بعرف، هاي قصص الشوام.

تضحك زراك مازحة:

– طيب، طيب، فهمنا، بدك تهبشي بضرتك..

تسعل حنه وتبدي ضيقها بعد أن استنفذت نفساً كبيراً من سيجارتها:

– يعني لازم الواحدة منكن تصير مثل بابور الترين، الست لازم تضل ست.

وتقول شبانور:

– والله عيب، مره تساوي زي زلمه.

وتعلق زراك:

– فكينا يا نور، لو الواحد بده يلاحق العيب زي الشركس ما حدا حكى مع حدا.

مزاج زراك رائق بما فيه الكفاية لتكمل:

– كان بس كل البنات عشــقن وخطفن، صحيح نواره! ! من وين عريس جانيت، شركسي؟؟

– معلوم شركسي، قرابة تيمور بيك من حيفا..

تشهق حسيبة:

– هه! ! ! هو في شركس بحيفا؟؟

– في شركس كل مكان حبيبي.. مثل ملح رشوه في السما.

تعلق حسيبة بعد ضحك كثير قائلة:

– الله يبعد عنا شــر هالضحك، شــو صار لنا؟؟ هذا كله من السيجارة، ليش لعاد بقولوا عنها تحشيشه! ! من هيك.

وسط الضحك تغص حنه وهي تضرب على صدرها وتسعل:

– لا.. لا.. مش حشيشة يا حوبه، هذي غير.

تحاول حسيبة أن تخفف الجلسة بأحجية طريفة، تقول:

– مدينة خضراء بيوتها حمراء، ســكانها عبيد، مفتاحها حديد، شو هي؟؟

يضحكن ساخرات، وتعلق زراك:

– ولك انتي ما عندك غير هالحزورة الهبلة! ! شو ما بتعرفي اشي غير البطيخة؟؟ راســك كلها صارت بطيخة، شــوفي كيف تدعبرتي وتدحبرتي زي البطيخة.

يضحكــن أكثر هذه المرة، حتى يشــرقن بالدموع قبــل أن يصمتن كلهن فجــأة، عندما تدخل هيام، تتجه بعصبية ملحوظــة إلى النافذة وتمد يدها وراء ستارة الدانتيل فتدفع درفة الشباك لتدخل الهواء النقي من الشارع إلى الحجرة التي تلبدت بسحب الدخان.

هيام لا تحب الســجائر، تحــاول إخفاءها عن عمهــا، وتعرف مخبأ زوجته المعتاد في صالون الاســتقبال، ولكنها لا تســمح بدخول السجائر إلى

حجرتهــا مهما كلف الأمر، عبد الرحمن ابتســم لها قبــل أيام في المطبخ، وحاول رشــوتها بســيجارة، اقترب منها حد الالتصــاق، وعندما أبعدته بضربة من المغرفة فوق رأسه، ولى هارباً ولكنها التقطت سيجارته الساقطة، تأملتهــا بحنق وفتتها قبل أن ترمي بها في صنــدوق القمامة، تعرف هيام أن البنت الحساســة فايزة تدخن بشــراهة مسعد، ولكنها لا تسمح لها بأن تولع سيجارة في حجرتها عندما تأتيها تلك لأخذ درسها، وعندما فوجئت بملحم يدق الباب نهاراً ويقف في بابهم وفي يده سيجارة، أوشكت أن تطالبه بإطفائهــا، ولكنها تغاضت لأنها لا تنوي تركه يدخل إلى المنزل أساســاً في غيــاب الرجــال، ماذا يفعل رجــل أمام بيت الحج تقــي الدين في مثل هذه الســاعة! ! وقفت تسد فتحة الباب الضيقة بجسدها، ملحم المرتبك تفضحه السيجارة التي ترجف بين أنامله..

- قلت أجيبلكم من شغل مصنعنا، شوية بوظة بستاهلوا ثمك..

كيف قال كلمة ثمك؟؟ هذا تهور لا يحمد عقباه خاصة وأن هيام برمت شفتيها كعادتها، وتلكأت في الإجابة، لكنها تزحزحت خطوة إلى الجانب الملاصــق للحائط لتســمح للصبي الذي كان يلحق بملحــم للدخول إلى ردهة البيت حيث أطلت حســيبة متوجســة، وضع الفتى حملــه من البوظة على الطاولــة، وأرتد عائــداً تاركاً معلمه صانع البوظــة الجديد يلتهب في رأس الســلم عند الباب الموارب، اهتزت ســيجارة ملحم، هذه الرجــفة أزعجت هيام، إنها لا تحب الســجائر فما بالك بالمرتجفة هكذا! ! ابتســمت هيام اللئيمة فجأة، قال:

- هــاي بتتاكل دوغــري، لا تتركوها تذوب، حــرام، حلاوتها تتاكل دوغري..

- أبو أيش بلا مؤاخذه؟؟

فاجأه السؤال، لم يتمن أن يسير الحديث مهما قصر نحو مسائل عائلية

خانقــة كهذه، هو ليــس غبياً، اللعينــة، القوية، الجبــارة، تذكره بأنه أب..

– أبو مروان.

تتجاهل هيام نداء حسيبة الخافت من الداخل، تعرف انه نداء احتجاج على إطالة الوقوف بالباب، ولكن اللعبة أعجبتها، بنفس الابتسامة الجبارة تقول:

– عاشت الأسامي، طيب، إحنا أهل، وقبلنا هديتك، بس أمانة عليك، بكرة بتخلي أم مروان تمــر علينا، كمان اختك فايزة.. مش اختك!! ليش ما بتيجي للدرس بانتظام؟؟ خليها تيجي مع مرتك، مرت اخوي بتســاوي استقبال كل يوم أحد.

هز ملحم رأسه بذلة واضحة، وراح يرتجف من رأسه إلى قدميه، قالت الصبية اليافعة الجبارة وهي تهيء الباب للإغلاق:

– أبو مروان، دير بالك السيجارة حرقت أصابعك.

أغلقت الباب، فأوشك أن يبكي، لولا أن صبي المحل ينتظره عند أسفل السلم، واتخذ صوت حسيبة إيقاعاً اتهامياً حاداً وهي تزعق:

– ولك يا هيام ردي الباب، شو هالمسخرة؟؟؟

ترد هيام ببرود:

– تعالي مرت عمي، تعالي كلي بوظه قبل ما تذوب..

لأول مرة تحترق ســيجارة ملحم حتى نهاية عقبها، الربيبة المتسلطة القاســية، أشــعلت نيران قلبه وانصرفت الآن لالتهام مــا جلبه من بوظة باردة،فكــر بــأن قلبه يحترق وهي تبــترد، وقرر أن يحرقهــا تماماً مثل الســيجارة، سيشــطبها من خياله، سيذيبها مع الســكر والحليب لتصير بوظة مثلجة، ســيأمر قلبه بأن يتجمد تماماً، ولكنها حلوة.. حلوة.. مثل السكر.

حديث الغندورة

يخلط المتجر الحابل بالنابل، يعرض بعض الاحتياجات التي تقرب الصغيرات من الغندرة، القضية ليست كيف نصبــغ الشــفتين أو نكحل العينين، كل الأشــياء التي تؤشــر على وجود الأنثى، غنــدرة، والأغنية المفضلة، الأقــرب إلى القلب التي تدفع بالبنات إلى الوقــوف بدلع ودلال أمام المرآة، غندرة مشي العرايس غندرة آآآه أه

القراميل

قطعت شبانور الدرب بقلق، تلفتت مرتين إلى الخلف، خافت أن تتلفت ثالثة فيقع المحذور وتقع عليها عينان تعرفانهــا، وقفت مثل عمود بباب الــدكان، تراجع قلقها والمكان يخلو من المارة، لم تفه بكلمة، فالتجار أذكى الرجال، ليســوا بحاجة إلى الكلمات، ســحب تقي الدين قطعة من القماش ملفوفة بعناية من تحت عباءات الصايا المقصبــة وناولها إياها، فتحــت جزدانها وهي تتلفت مجــدداً، أخرجت النقود ودفعتها إليه.

قال:

- بعدين..بعدين.. شو هي الدنيا طارت.؟

ولكن شبانور دفعت ثمن مشــترياتها السرية، منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناها على جدائل الشــعر في الدكان انخطف فؤادها، يومها همست للتاجر:

- بتقدر تجيب مثلو؟؟ أحمر.. مثل هاذ..

كيف تجرأت شــبانور على رفع غطاء رأســها وكشــفت غرتها للبائع، حمراء مثل القمر في ليلة ربيع،لم يبد تقي الدين استنكاراً، كأن هذه الحالة اعتياديــة تعرض له كل يوم، تحدث بود مهــذب عن إمكانية إحضار هذه الجدائل التي أسماها قراميل، فأصابتها حالة غندرة فارقتها منذ ســنين،

ولأنه تاجر لا أخ له ولا شـبيه،ولا يسبقه أحد فقد أفهمها بكلمات مبهمة انه يدرك بأن مثل هذه المشتريات أسرار صغيرة بين البائع والشاري، حتى زوجتاه لن يتسـى لهما الاطلاع على أسـرار شـبانور، هذا التاجر يساوي كل رجال السـوق، وإذا تجرأ أحدهم فطاله بكلمة سوء، كأن يتحدثون عن جبروته مع حسـيبه وضعفه مع نجمة، فإنها لن تكتفي بالصمت، سـتعلم أصحاب الألسنة الطويلة آداب الحديث عن الغائب، وفي المساء ستصل جدائل الشعر الأحمر التي أحضرها التاجر الأمين إلى ما تبقى من شعرها.

ما تبقـى! ! كيف؟ وأين راحـت الخصل النارية الحمـراء التي كانت حديـث البنات، عندما رافقت والدها تامبي ذلك الصباح الصيفي إلى النبعة القريبة من السـيل، هبطـوا راكبين عربة الأب، جلسـت بين حزم القش وأشـولة القمـح، وعاملين رافقـا والدها، صرير العجلتـين الضخمتين صم أذنيهـا طوال الطريـق، ورائحة الثورين القويين ظلت عالقة في أنفاسـها، حتى بعد أن أفرغ تامبي شوالات القمح فوق البساط صانعاً منه قناة مرتبطة بقناة النبع، تنشـقت هواءً ممتزجاً بالروائح، وتطاير هباب القمح، إلا أن ابتل جله، راحت تشـارك العاملين مهمتهما فتحـرك القمح بهمة رافعة طرف البسـاط بذراع نحيلة، ولكن قوية بمـا يكفي لمنع القمح من الانهمار نحو السـيل، راقبت رفع القمح بعد ذلـك إلى التنكات التي خرمها والدها بحـرص ثقوباً صغيرة ترشـح الماء طـوال رحلة العـودة إلى مزرعة البطيخ في جبـل عمان الجديد، يومهـا اعترضهم رجال الـدرك الخاص بالأمير، فتلاشـت كل الأشـياء، وظل هناك شـعرها بجعداته الخفيفة متطايراً مع الريح، صمت أذنيها عـن الحديث بين والدها والدركيين، وتعلقت عيناها بالأزرار اللامعة و(قلبق) أسود فوق رأس الفتى.

أبلغ الدرك المزارع تامبي بأن غسـل القمح على السيل لم يعد مسموحاً، وأن هناك عقوبـة بانتظاره إذا أعاد الكره، المفاوضـات المعلنة بين الدركي

والفلاح،لم تمنع العيون من مفاوضات سرية، لم تكن عينا شبانور واسعتين ولكنهما تشيان بالدهشة، لم تكتحل كما يفترض بصبية شركسية مهذبة في الرابعة عشرة من عمرها، ولكن الدركي علق في أهدابهما، ورد هدية المزارع، بطيخة خضراء مدورة واعدة بحمرة حلوة، قال وهو ينظر باتجاهها:

– ناكل بطيخ عندك في مزرعة.

واصلت العربة بعجلاتها الكبيرة الصعود، وتحدث والدها مع نفسه بصوت مرتفع:

– الله يحفظه.. أولاد الناس غير..لولا هو من ملتنا.. كان إحنا مصيبة..

جاء الدركي تيمور لزيارة المزارع تامبي مراراً بعد ذلك بحجج طريفة، مرة لتناول البطيخ كما وعد، ومرة لتفقد القمح المنشور على سطح المنزل، حتى أن شحرخان زوجة تامبي وأم الصبية، تساءلت فيما إذا كان الأمير يتابع الأماكن التي ينشر فيها الناس قمحهم، أعربت عن فكرتها باللغة الشركسية فلم تفهم الصبية التي كانت تسمى آنذاك لمعان تيمناً بجميلة جميلات الشركس التي هبطت عمان عام مجيء وحيدته إلى الدنيا، والتي صار اسمها فيما بعد شبانور بناءً على اختيار حماتها، كيف للمعان أن تفهم وهي تخلط بين العربية والشركسية على نحو ملحوظ، كما أنها المنشغلة بزيارة الدركي والعالمة الوحيدة بدوافع الزيارة، واقف هناك يتحدث مع والدها خاطفاً قلبها، ولها في فؤاده مثلما له عندها، إلا أن لوالدها رأياً مخالفاً.

– صحيح شركسي.. بس مع الأمير..عسكري!! عرب بقول اسعدهم وابعدهم، هذا مش فاضي لبيت وأولاد.. أحسن تتجوزي ابن عمك.. بكره نروح وادي السير.

بكره، لم يتمكن والدها من شد رحاله، لأن الدركي الوسيم اختطفها

وأودعهـا أمانة في بيـت محمد المفتـي، وعندما جـاء والدها لم يكن هناك مجـال للعتاب، انتصر الحب وباركه الشـيوخ وأذعـن تامبـي، صـارت زوجـة الحبيـب، وسمتها أمه، شبانور، النور الطالع، وكمـا يطلع النور، صعدت لمعان درج بيت العسـكري تيمور، وصارت زوجته باسمها الجديد شبانور، يضم خصل شعرها الأحمر كل مساء متغزلاً ذائباً فيها، كأنه ليس ذلك الجسد الذي يقف مثل رمح في قصر رغدان.

ترفعها أمها فوق الطاولة كي تتمكن من تمشـيط شعرها بمشط العظم المسـنن، تسـحب خصلاته وصـولاً إلى النقطة الفاصلة بـين الفخذ وبطة القدم، تتذكر شـبانور شـعرها عندما ترى شـعر ابنتها، ورثت جاني الشعر الأحمر، ولكن البلهاء قصته تقليداً لدولت أبيض بطلة فيلم الوردة البيضاء، أما هي فان شعرها ظل يتناقص، يقصر، ويتساقط على وسادتها عاماً بعد عام، للعمر أحكام، وإذا بلغت جانيت السادسة عشرة وخطبت، فإن شـبانور كانت تودع شـبابها مبكراً، تظن أنهـا لم تعد الحلوة التي تستحق أن يتغزل حبيبها بشعرها، وأن عزاءها في الأولاد يقبلون كفيها كلما دخلوا أو خرجوا، ولكن جدائل الشـعر في الدكان حركت أشـواقها وحرقـت فؤادها، ذكرتها بغـادة كانتها، والتاجر اللمـاح الذكي، فهم أشـواقها، وباعها دون أن يبوح بسـرها، أما زوجهـا تيمور فقد فوجئ بشـعر شـبانور الجديد يصل حتى خاصرتها، ضمها بـود، وفك أزرار الجاكيت المشـدودة بإحـكام، لم يعد الضابط الشـديد البأس، تحرر من صرامتـه، وداعب زوجته التي بالـكاد دخلت في ثلاثينات العمر معتقدة بأنها شاخت، همس بود صادق:

– مجنونة.. شبانور.. سيـبسا.. انت حلوة بشعر وبلا شعر..

تتظاهر بتصديقه، ولكنها تعرف بأنه لم يضمها هكذا منذ سـنوات،لم يناديها بالاسم السري الذي دللها به في الماضي، لم يقل..روحي، سيـبسا..

بهذه الرقة منذ سـنوات تعرف أن هذا مفعـول الغندرة وما أثارته جدائل الشعر الأحمر.

العطر

الغندرة، زجاجات عطر تخرج من السوق، مواسير ريحا عند الحلاقين ليست كتلك التي تبحث عنها النساء، اللواتي يتعطرن بماء الورد ويدعكن أكفهن بورق الليمون، ويخبأن كمش الياسمين بـين نهودهن، مؤخراً وبعد العطر المقطر من ورد وياسمين الشـام، وصلت العطور الألمانية والفرنسـية، كانت فائـزة أول من ابتاعت زجاجـة كلونيا ريف دور، التاجر يعلـم أن أفضل زبونة لمثل هذه البضائع هي شـقيقة ملحم، منذ اشترت زجاجة العطر الألمانية التي شهقت النسوة مستنكرات سعرها، وحتى وصلت إلى استخدام العطر الفرنسي، لن يفوقها في شـراء هذه السلعة الشيطانية إلا الجميلات لمعان وشقيقتها برفيين، وان كنّ في الأغلب يعمدن إلى الشراء من القاهرة أو بيروت، ويتفضلن لماماً بشراء ريف دور من دكاكين عمان.

تنسحب حسـيبة برزانة حزينة إلى المطبخ عندما يفوح العطر الفرنسي مـن قمباز الحج تقي الدين، ليلتها تنقلب في أقصى السـرير، ويتظاهر هو بالنوم حتى ينام فعلاً، العطر أجرأ الوشاة، إنه فضاح وعندما يختلط بعبير الجسد يتخذ له معاني مغايرة.

تدس هيام رأسـها تحت خصلات شـعر فايزة التي تتراجع دون فزع، بثبات، وهيام تتضاحك:

– مش معقول، عمي بجيب الريحة عالبيـت، بس ما بتيجي معي مثل معك، بتجنن عليك.

تشرح اعتدال:

– هاي مسألة كيميا..

تنزعج فايزة من كف هيام التي ما زالت تمسك بزندها منذ لحظة الشم

المصطنعة، تكره إصرار شقيقها على قيامها بواجب زيارة عائلة الحج تقي الدين وتلقي اساسيات القراءة على يد هيام بالتحديد، أخبرته أنها تكره القراءة، وان هيام لا تجيدها مثلما معلمات الكتاب الأخريات،وأنها لا تتعلم شيئاً هناك، ولكنه أصر إصراراً مشبوهاً، ودعم إصراره بود ومحاباة لا تنقطع لشقيقته، كأنه يرشوها، وهو أسلوب لم يتبعه في تعامله مع زوجه وولده، وإذا كان يضرب زوجته بمعدل مرة في الأسبوع فان ضحيته الحقيقة هو مروان، ويمكن لفايزة أن تحتج لقسوة شقيقها:

– أعوذ بالله، إيدك والهواه.. تقول بينك وبين ابنك ثار! !

لسبب تجهله فايزة، شاط غاضباً وهددها بحرمانها من المزايا، بل بالضرب إذا تمردت على الذهاب إلى درس هيام، هل تخبره عن هواجسها حول العطر، عن لمسات هيام المتأنية، عن زجاجة العطر التي أهدتها إياها دون مناسبة، منذ متى تمنح هيام الهدايا لأحد! ! من أين تأتي بالعطر إذا لم تكن تسرقه من زوجة عمها؟؟ لم تخبره ولكنها نظرت في وجهه باستهانة:

–كنك زلمه اضربني.

ولم يضربها، فقط تمنى من قلبه أن تتزوج هذه الشقيقة الصلبة الناشفة من رجل قاس، يضربها حتى يدمي وجهها، عندها قد يقتله، لا يجوز للرجل الحر أن يسكت عن ضرب شقيقته، حتى لو تمردت على دروس هيام.

على فايزة أن تنتظر خلو الدار من الساكنين، زوجة أخيها تذهب كل نهار خميس إلى الزرقاء حيث أهلها، وملحم لا يعارض، إنها فرصته الذهبية لقضاء فترة العصر في مقهى ماتيلدا، ثم الانطلاق إلى مضارب النور، قبل أن يبزغ الصباح سيهرع إلى حمام النصر يغتسل، ويلحق بالمسجد لصلاة الفجر، البيت خال تماماً، ترشه بالعطر لا لإخفاء دخان

السجائر، فالعطر يساعدها على تكوين سحب الخيال، تغلق النوافذ جيداً، تطفئ لمبات الكيروسـين، لا يجب أن يخالط العطر أريج سميّ كهذا، تعطر جسـدها العاري، تدخل في مرحلة الجوى وهي تحتضـن عودها، تضغطه على بطنها، وتداعبه برفق، تمرر أناملها فوق القاعدة المستديرة، ثم تلتقط الأوتـار، وتتوقع أولى الضربات، عندما يتجاوب العود ويمنحها الموسـيقى مختلطـة بالعطر، تذرف فايزة دموعها في ظـلام الحجرة، لقد بلغ عمرها أربعة وعشرين عاماً ولم يلمس زندها سوى كف هيام.

لمن الغندرة؟؟

الشيالات

عندما ابتاع عبد الرزاق المحامي شيالات الجرابات تغاضى عن الابتسامة الماكرة على وجه التاجر،كان هو نفسه مفتوناً، ضحك في سره، وقال:

- الله يجازي بلايشك يا سمسومه.. نهفه، الملعونة.

أصابته الدهشة عندما رآها لأول مرة بشيالات الجرابات، بدت مثل جريتا جاربور، تجاوزت الجرابات النايلون ركبتيها إلى أعلى الفخذ ثم علقت بملاقط تنتهي إلى لباسها الداخلي، مازحها معلقاً:

- شو هذا؟؟ مثل ملاقط الغسيل.

أجابت:

- يخرب بيت تشبيهاتك..

وقع بعد ذلك في هوس ابتياع الشيالات التي غزت سوق عمان حديثاً، مشكلة المحامي مع الشيالات أنه لم ير إلا أسمهان ترتديها، ولكنه وعندما يتمكن الخيال من أفكاره يروح يتصور النساء اللواتي يبتعنها، كيف ستبدو في أقدامهن، فايزة، من المؤكد أنها جميلة، استغفر الله، لمعان الشركسية بقدميها الطويلتين ستكون أكثر فتنة من أسمهان، ولكن في النهاية ليس له أن يتجاوز أفخاذ محبوبته التي هي حرام عليه أساساً، استغفر الله، لقد أعطاه الله شيئاً كثيراً، لماذا إذن يفكر بلمعان وشقيقتها برفيين، قاتل الله الشاعر عرار، عندما يتغزل رجل بامرأة شعراً تصير ضيفة أحلام كل الرجال، ولكنه ومن موقعه كمحام بدأ يتعامل مع النساء، صار يعرفهن حق المعرفة، يعرف من لهجة المرأة إذا كانت عابثة أو خجولة، يعرف المحامي السير ببراعة على الحبل الرفيع لمهنة حساسة مثل مهنته، مثل التاجر والطبيب، إذا لم يلعب اللعبة ببراعة وبسوية أخلاقية عالية فهو خاسر لا محالة، وما دامت سيرته تلاك سراً وعلناً بسبب من علاقته بأسمهان فان عليه على الأقل أن يزجر أفكاره الشيطانية تلك.

رغم أن نساء عمان اللواتي اعتدن على مطاط الكلاسين يعقدنه في دائرة ثم يدخلنه وراء الجرابة إلى أعلى منطقة ممكنة، عادة ما تكون المرأة على امتلاء مناسب لتعلق المطاطة في منتصف الفخذ تماماً، عندها سترتدي الترواك الذي يصل حتى الكاحلين تاركة الفرصة للجرابات الأنيقة بالظهور، نجمة، أم غالب فقط لم تكن تحب الجرابات، عندما تتعلق بالحذاء إلى الحد الذي يعميك عن مستلزماته يعني أنك تفتقر للذوق، كان هذا رأي أسمهان حول عزوف نجمة عن ارتداء الجوارب، ورغم أن المحامي وافقها بهزة من رأسه، إلا أنه كان يخفى رأياً مغايراً، هو يظن بأن نجمة تكتفي بلون بطة رجلها الوردية، يستغفر الله، متى رأى بطة رجلها ليصل إلى مثل هذا الاستنتاج؟؟ ثم أنه معجب بشيالات الجرابات التي عرفته عليها أسمهان.

رفضت حسيبة ارتداء مثل هذه الشيالات، مفضلة حلقة المطاط التي ترسم دائرة محمرة وغائرة في لحمها، واستخدمتها هيام سراً، عندما يحضر تقي الدين بضائعه عادة إلى البيت لا يسأل عن من يستعملها، ولكن بما أنه لم ير الشيالة في قدمي حسيبة بتاتاً، فمن المؤكد أنها هيام، أو قد تكون العفريتة الصغيرة اعتدال، لقد لحقت بركب النساء سريعاً.

عندما ابتاعت شبانور زوج الجرابات، قالت لتقي الدين كمن يحدث صديقاً:

– هذا لجانيت، احنا لما بنت بتجوز لازم أمها تودي (أحه) هدية، بشكير وجوز جرابات.

حلف أبو عبد الرحمن يومها أن يكون البشكير هدية منه، وغضبت شبانور:

–لا يمكن.. عيب.. لما جاني بروح بيتها ودي انتي هدية زي ما بدك.. بس هاي أحه تبعي.

ابتاعت فايزة الجرابات وشيالاتها دون تردد من المحل الذي قرر ملحم أن عليها أن تحذر حتـــى مجرد الاقتراب منه، ولكنها تعرف بأن أحداً لا يأتي بالعطور وشـــيالات الجرابات عدا الحج تقي الدين، ولأنها لا تعرف أســـرار مزاج شـــقيقها المتقلبة بين إقبال على الحج تقي الدين أو مجافاته، فإنها حرة تشـــتري من أي مكان يناســـبها، هي حرة أن تتغندر في مشيتها أيضاً لدى مرورها بالدكان، حيث ســـيقف عبد الرحمن كأنه يتوقع دخولها المحل، ستسأله وهي تعرف الجواب.. – عندكو شيالات جرابات؟؟

ويتلجلج الفتى مؤكداً أن لديهم الكثير منها، ستبتسم بلا معنى وتقول وهي تدلف إلى الدكان: – طيب.

يســـعدها أن تربك عبد الرحمن الأبله، رغم أنها تعرف بأن والده يريد تزويجـــه إحدى بنات عمه، أو من لميا بنت زوجته نجمة، هي تحتقر مثل هـــذه الصفقات التجارية، ولن تســـمح لملحم أن يقايضهـــا بأي ربح تجاري محتمـــل، ثم أن عبد الرحمن بالكاد تجاوز مرحلـــة البلاهة، قد تحلم بأن يأتـــي أكثر الرجال وســـامة وأناقـــة وعلماً لخطبتها، هـــذا محتمل، فمثل هؤلاء لـــن يبحثوا عن الصغيرات اللواتي لم يحققـــن نضوجاً كافياً، صحيح أن تعليمها لم يكتمـــل حتى المرحلة المعقولة ولكنها تقرأ وتكتب، ويعرف الناظر إليها تتغندر في الســـوق أن عنقودها استوى، نضجت حتى النهاية، كانت لحظتها تمر مقابل المســـجد الحسيني، ورأت الشابين الفارعين أديب عباســـي وعبد المنعم الرفاعي يتجهان صوبها، في الواقع كانا يتجهان صوب درج قهـــوة حمدان، ولكنها تخيلت، أو تمنت، وقع كيســـها من يدها، أو أنهـــا أوقعته، لم تكن غافلة عن إيحاءات ســـلعة أنثويـــة كهذه في ذهن من يراها من الذكور، وانحنت تلم محتويات كيسها، بعثرت بعفوية جرابات النايلون والشـــيالات، وتظاهـــرت بالحرج والارتباك وهي تبســـطها كأنها تحاول إخفاءها، والشـــابان اللذان تحدثا عن الثوار الفلسطينيين والمناضلين

السـوريين واصــلا حديثهمــا وتجاوزاها، أعــادت الجرابــات إلى الكيس بعصبية، وشتمت من اخترع الشيالات، وكل عسكر الفرنسيين والإنجليز، ومن أجج نار الحرب في فلسطين.

لأسمهان تصور أخــر للغندرة، صحيح أنها ترتدي الشـيالات، وأنها واحدة من قلائل يسـتعملن أحمر الشـفاه، وأنـها تحب العطر، صحيح أنها كحلت عينيها بالأثمد العربي، ورأت دهشة الرجال عندما أطرّ الأسود عسل عينيها، ولكنها تعتقد بأن الغندرة فلسفة خاصة، كيف تـثني المرأة رأسها عند الحديث، إلى أي جانب ترسـل شـعـرها، كيف تتناول كأس الشاي، الأسلـوب الذي تلامس شفتاها زجـاج الكـأس، كيـف يتحـرك كتفاها وهي تخلع حريرها الأحمـر، أو تنـثني قدماهـا وهي تسحـب شيالة الجرابـات، كيـف تلمـس كـف الرجل في اللحظة المناسبة، لا قبلها ولا بعدها، كل هذه أسـاليب غندرة تفوق جنون الألوان المصطنعة، والحب قادر على خلق امرأة تتقن الغندرة، امرأة قد لا تكون عرفت في ذاتها تلك القدرات، عندما تصير العيون أكثر إشـعاعاً، والجسـد أكثر انصياعاً للفرح، عندما يصير الصوت موسـيقى، وأسمهان الخبيرة بالحب، تعـرف أن حبيبها لن يقترن بها، وأنه لم يعمد مرة إلى مناقشـة اختلاف ملتيهمـا، عندما يقاربان الحديث في الأمر يزوغ ناظراه، يركز على طبق مربى السـفرجل أمامه على الطاولة، يهرب مـن ناظريها، فلا تلاحقه، تقدر له كثـيراً أنه لم يغمرها بالوعود الكاذبة، الوعود المشتهاة، وتعرف بأنها مذمومة محسودة لدى نساء عمان اللواتي ينتظرن بفارغ الصبر شـيخوختها، ولكنها تتوقع أن تكون عجوزاً مفعمة بالحياة كما كانت منذ البدء طفلة، ستكون دائماً قادرة على الغندرة وتعتقد بأن الرجال أيضاً يتغندرون، يصنع الحب فيهم ما يصنعه في المرأة، الحب لا الشـهوة التي قد تلتبس به، الشـهوة بالمطلق لا تسـتلزم الحب،

والغنــدرة فيض من الثقــة، عبد الرزاق يتغندر أيضاً، قبــل أن تلتقيه كان يحرص على ارتداء طربوشــه مثبتاً كأنه ملتصق برأســه، لا يخلعه إلا في بيته، تعوداً وشــعوراً بالخصوصية، لم تكن النســاء في الســوق يعرفن بأن رأس المحامي أصلع تماماً، أمه فقط تعرف هذا السر وتصونه ريثما يحظى ولدها بالعروس المناسـبة، حتى الرجال لم يشــاهدوا رأسه المكورة، ولكن بعد أن مررت أسمهان أناملها الناعمة وشفتيها فوق المساحة الملساء، بعد أن استشعر بأن مكاناً لا يخطر في بال مخلوق يمكن أن يمنحه كل هذه المتعة، صار يعتز بصلعه المبكر، يتغندر به، يخلع طربوشه في السوق، في المقهى، يتظاهر بتجفيــف عرقه بمنديل قطني صغير يحملــه، ولكنه حقاً يعرض رأسه اللامع الفاتن الأملس الذي عمدته أنامل الحب.

القصدير

ماذا تفعل رفقة بكل هذا القصدير والصباغ الذي تبتاعه؟؟ حير السـؤال التجار، ولأن رفقــة الطيبة مجرد خياطة متواضعة، فما هو السر؟؟، عندما يبتاع سعيد الحوراني كميــة كبيرة من الصباغ يكون معلوماً بأنه سـيقوم بنقع الأقمشــة القطنية البيضاء فيه ثم نشــرها على الحبال في بستانه في الأشرفية تمهيداً لبيعها، ولكــن أن تبتاع الخياطــة كل هذا الصباغ والقصدير، فهــو أمر يثير فضول التجار، فحتى حنه الخياطة والمدام لم تطلبا مثل هذه المستلزمات يوماً ! !

تلعــن رفقة اليوم الذي جعل من حنه الســريانية خياطة مهمة، ماذا يعني كونها تشنشــل أطــراف المناديل بالهدب؟ مــاذا يعني أنها تضيف علــى القبة الخرز والترتر، أو تطرز العصافير وزهور النرجس على صدر الفســاتين، ما أهمية الأزهار التي تمضي نهارها تكشكشها وتزمها؟ هذه فزلكة، حتى زازا، المدام التي تتظاهر بأنها أميرة أرمنية، وتنافس حنة بصورة مكشــوفة، تلعبان وتتصارعان في حــدود قصر رغدان، تخيط حنه ثياب الأميرة الأم مصباح، وتخيط المدام ثياب العروس الجديدة زوج الأمير طــلال، الأميرة زين الشــرف، لن تعترف رفقة بــأن الخياطة للأميرات تشــكل فارقاً يذكر، فثيــاب لمعان الخوتات أكثر أناقــة، عدا عن الصبية الاســكتلندية الشــقراء زوجة بيك باشــا، صحيح أن المدام تجيد تثبيت الكتافيات في ذراع الترواك، وأنها تخيط حقائب مناســبة للفساتين، فهي صاحبة امتياز صناعة الحقيبة والحذاء من مقلوب القماش، كان من الممكن أن تســتمر الحياة بوجودهما دون إلغائها.. ولكن رفقة لن تخفي شعورها بعد اليوم، إنها تحقد عليهن منذ شــدت الســت نجمة فستان ابنتها من إبــرة الماكينة، فانكســرت، كانت نجمة غاضبة، تبربر مقســمة أنها لن تعود لرفقة:

– هيك ! ! هيك يا رفقة، شو هالشرشحه؟؟ يعني بدك بنتي تلبس أقل

مـن البنات في عرس جاني؟؟، لو كنت عارفه، وديت الشـقفة عند المدام أو حنه، أنا الغلطانة

ردت رفقة بخنوع وتردد:

– ليش زعلانه يا خيتي؟؟ هي الإبرة انكسـرت.. مليح هيك!!.. والله الفستان حلو، من شو بشكي؟؟

– حلو؟؟ هاذا حلو؟؟ بس عاد، في حدا براسـه مخ، بخيط شقفة حمرا بخيط وردي؟ معقول!! بدها شويه زوق، شوية نظر.

– ما هو الوردي من الأحمر يا ست نجمة.

– كمان بتباوي بالمحسـوس!! دخـل الله.. أنا غلطانة، من الأول قالوا لي انك مش شاطرة، الحق عليّ.

لا تعترف رفقة بأنها مش شاطرة، ولكن النساء يتعاملن معها على هذا النحو، إذا جاملنها أرسلن لها لتركيب زر أو خياطة سحاب مقطوع أو إطالة فستان طالت صاحبته، لقد قضت الأرمنية والسريانية على مستقبلها، ولو أن زازا لم تحظ بدعم خياط الجيش قريبها هايك بتلكيان لما قام لها صيت، تحدث رفقة نفسها بكل هذا ثم تعود للاعتراف بأن غريمتيها محترفتان

– شو بدنا بالحكي، معدلات عن جد..

تظن رفقة أن النسـاء لا يمتلكن فروسية الرجال في السوق، الخياطون، حسـن أبو شمطة في شارع السـعادة، وعبد الحميد المفتي في شارع البلدية، وعبد الله جمعة في شارع الرضا يعملون بتنافس شريف، لا أحد يسرق قوت أحد، ولكن الأمر مع النساء مختلف.

وصلـت رفقة إلى عمـان قبل أعوامٍ مع شـقيقها منـذر، لم تكن الكرك قريبة، والشاب الذي راح يعمل مراقباً في خط سكة الحديد احتاج إلى حجرة يقطنها، وامرأة تعد له لقمة هانئة، ولأن بنت عمه قالت، بسـم حالي ولا بوخـده، فانه اصطحب شـقيقته، توأمه رفقة إلى عمـان، هل كانت رفقة

عانساً حتى فرط بها والدها بسهولة، هامساً للشقيق:

- يمكن نصيبها في عمان.

ولكن نصيبها لم يأت في عمان، ووجدت نفسها وحيدة بين جدران حجرة معلقة في باطن جبل القلعة، لا يعود منذر إلا مع غياب الشمس، يأكل مسرعاً، يترك لها نقوداً قليلة تحت الوسادة، هكذا بدأت تبتاع قطعاً من الأقمشة التي يأتي بها البرجاوية المتجولون حتى باب البيت، تشترى بقروش قليلة وتفصل ثياباً للصغيرات، وعندما ظن منذر انه واقع على كنز في أنامل شقيقته ابتاع لها ماكينة تدار باليد، كانت مصنوعات رفقة مقبولة، إلا أن استعرت المنافسة بين حنه والمدام، وضاعت هي بين الأقدام، نساء عمان حتى القرويات منهن بتن متطلبات، يبحثن عن كل جديد يتشبهن بنجمات السينما، ويقلدن ثياب الأميرات والخوانم الشاميات، ويفضلن لمسات حنه أو زراك، أما هي فإن نصيبها لم يأت في عمان، ولم تعد تشكل الدجاجة التي تبيض ذهباً للشقيق الذي استلذ بطعم الدخل الإضافي في البداية واستاء لتناقصه فيما بعد، قالت أطرز فساتين فلاحية، تعلمت تطريز بتلات الورد والنجمة المثمنة، وتعلمت أن تمثل سهم كيوبيد متجهاً إلى القلب في الثوب الفلاحي، وأجادت كل أشكال التطريز بدءاً من أجر النملة إلى فتافيت السكر، ولكن النساء المتطلبات يقلن أن قطبتها إما رخوة تهدل القماش، وإما مشدودة تورب الثوب، وهناك حاسدات يشرن إلى افتقار ألوانها إلى الذوق، مع أنها لا تختار، عادة ما تبتاع ما تجده في سوق البخارية، فما ذنبها؟؟ الحجة فضية زبونة هامة، ولكنها تكتفي بتسخيرها بقطب أردانها التي فتقت وهي ترفع تنكة السمنة البلقاوية، وقد تجود عليها بأن تمنحها شرف تثبيت زر قميص ولدها المحامي، عندها يمكن لرفقة أن تقطع الخيط بأسنانها مقربة أنفها دون أدنى شبهة لاستنشاق ما اختزنه القميص من فوح الرجل، وستشعر بوخزة صغيرة في

صدرها إذا ما خيل لها بأن القميص اختزن أريج عطر نسائي، تقول:

- المحامــي هامل، بس الرجّال ما في اشــي بعيـبه، الحق عالداشــره أسمهان، بس أخرته يوعا ع حاله، ويشوف له بنت الحلال، ويتزوج.

لما جرأت رفقة على زيارة المحامي في مكتبه فوق ســوق الســكر، دست كفيها بين فخذيها وطأطأت رأســها مثل أي آنســة مهذبة خجول، لم تفه بكلمة حتى تحدث هو:

- زارتنا البركة، أأمرينا ست رفقه..

يا الله، إنه يعرفها، ســيأتيها يوماً مدركاً مكانتها، تأتأت يومها وهي تعرض أن تشــارك في معــرض المصنوعــات الوطنية الذي ينظمه الشــبيبة الوطنيون، وفرحت بدهشــته وهو يسأل ماذا تســتطيع أن تقدم، ثم برضاه عن مشاركتها بثلاثة أثواب، الثوب الكركي والسلطي وثوب الرمثا، يومها قال لها المحامي:

- لا تتعــبي حالــك وتطرقي مشــوار، ودي الثياب مــع أي حدا، وأنا بعلقها بالمعرض، أكيد صنعك ومشاركتك بتشرفنا.

رغم أنها الوحيدة من النساء من شاركت في المعرض، فان المحامي اختفى مجدداً من حياتها إلا إذا انقطع له زر أو احتاج الأمر إلى قلب ياقة قميصه، وقد خيل إليهــا أن تعبث بأزرار القميص كلها فتخلخلها عله يصير زبوناً ثابتــاً، رغم تخطيطها الماكر إلا أنه تبخر كأنه ليــس في المدينة، ما هم!! المدينة ملأى بالشــباب المميزين، أما النســاء فقد تمردن سريعاً على الثوب الفلاحــي، كأنهن هاربــات من جلودهن وعمان تغــذ الخطى نحو المدينة، وأخــيراً اهتدت رفقة إلى صنع عقيدة الســكر، راحت تعرض خدمات نتف شــعر القدمين والذراعين والإبط على النسوة، يستجبن مرات، ويفضلن أداء المهمة بأنفســهن مرات، بعدها بدأت حكاية الأصبــاغ والقصدير، والأصل الغندرة.

البنات اللواتي يذهبن كل عصر إلى السـينما يتسـاءلن عـن اللون الذي يصبـغ أفـواه الممثلات، لماذا يتدور فـم نور الهدى مثل الكـرزة؟، وكيف تجعل (أسمهان) المطربة شـفتيها الرفيعتين تبـدوان ممتلئتين؟؟ إنه ميل الحمرة الذي تحضره ماتيلدا صاحبة القهوة بوسائلها الخاصة من بيروت، وتحضره لمعان بوسائلها أيضاً من القاهرة، وقد قررت رفقة أن توفره لنساء عمان، زارت الصيدلي حداد في شارع الرضا.

– بدي قزايز صغيرة، أصغر مقاس، اشي هيك بطول الأصبع.

– شو بدك تساوي يا رفقة، صايرة صيدلانيه؟؟.

– لا والنـبي، أنا ما باخذ لقمة غيري مثـل أولاد الحرام، إذا في بطنك محل للسر بقولك.

ابتاعت رفقة الأصباغ، والقصدير، أحضرت شيئاً من ماء النار الكاوية، وقصـدت بيت الضابط تيمـور، انتظرت خـروج الفتى أنـزور لتعلن على العروس المرتقبة خطط الغندرة، قالت شبانور

– عيب الشركسية تساوي هيك.

– يا أم أنزور، هاي عروس، بدها تتغندر لمين يعني؟؟ ما هو لعريسها، بس جربي والله ما بتندمي.

غمست قطعة الشـاش بالمحلول السري في الزجاجة الصغيرة، فصارت حمراء، راحت تمسـح بها بلطف شفتي الصبية وتنقل اللون من الشاش إلى اللحم.

– من وين هاذا وله رفقه؟؟

– من الشام، وحياتك بالغالي، الحومرة كثير غاليه..

أكدت جاني أن هذا يختلف عما رأته مؤخراً في السـينما فأقسمت رفقة أنها أول من سـيحضر ميل الحمره الأصلي، قريبـاً، ولكن الآن نجد لزاماً الاكتفاء بقزازة الحومرة الدمشقية!!

في طقــوس غاية في الحذر كومت رفقة القطن في القصدير ولفته في لفائف طويلــة، بأصابــع ترتجف، لأول مرة، صبــت قدراً من مــاء النار في قلب اللفافــة، ثم بملقط الســكر برمــت رأس اللفافة وأغلقتهــا، راحت تتناول بخفة خصل شــعر جاني الأحمر وتلفه حول القصدير، كانت هناك تكتكة خفيفة، كأن شيئاً يطقطق في قلب اللفافة، وعندما تصاعد بخار ناعم طفيف من الخصلة الملفوفة ســحبت رفقة بالملقط اللفافة الحارة، وشــهقت شبانور وهي ترى النتيجة المدهشة، على مدى ساعة تحول شعر الصبية إلى لفائف التمعت بضوء برتقالي، وعندما نظرت جاني في المرآة عضت شفتيها إعجاباً وقالت:

- بالضبط.مثل تسريحة نور الهدى.

قبل أن يتعرف التجار على ســر القصدير الكثير الذي تبتاعه الخياطة والأصبــاغ التي لا تتعدى لوناً واحداً هو الأحمــر، قبل هذا كانت رفقة قد ابتكرت طريقة لتثبت التســريحة أطول زمن ممكن، كانت تمسحها بخليط من الفيزلين والاسبرتو تعده في حجرتها حريصة على إخفاء سر صنعته عن الأخريات، كما اســتعانت بها شبانور في تفصيل صدرية تضغط ثدي جاني بحيــث لا يترجرجان أثنــاء قيامها بمهامها المنزلية تحــت نظر حماتها المرتقبة، ولكن اللعينة زازا سخرت من هذه الفكرة بالذات، الأثداء خلقت لتــبرز وتترجرج، لهذا صنعت صدرية مغايرة، حشــت القطن المنشــي في مثلثــين ثــم خاطتهما ليصبحا نصف كــرة، وهكذا ابتدعــت صدرية تدفع بالثدي إلى الأمام وتجعله ينتصب حتى لو كانت صاحبته أربعينية كنجمة التي كانت أول من ابتاع ذلك الاختراع المذهل، اســتهوت فكرة زازا نســاء عمان أكثر، فصدر المرأة عنوان الغندرة الجريئة.

الأســاور

مثلما تخشــخش أوراق شــجرة الكباد في بستان نجمة، سمعت لمياء خشخشــة الأســاور، أخرجتها اعتدال من حقيبتهــا في الدقائــق الفاصلة بين خــروج معلمة اللغة العربية ودخول معلمة الإنكليزية إلى الفصل، ليس هناك من ســبب محدد لانشــغال الصبية طوال فترة الدرس بتلك الأســاور الفضيــة، ذلك أن لمياء تمتلــك كثيراً من الأســاور، ولكن هذه تلمع مثل النجــوم ببياض محبب، رفيعة وكأنها ســتنقصف، تتحرك بحيوية في الذراع، ليســت بثقل أساور الذهب التي تصر أمهــا على الإكثار منها، فتحفظ حصة لمياء إلى أن تكبر، أيضاً لا تعرف لماذا تصر أمها على أنها لم تكبر بعد، إذا كانت جاني تستعد للزفاف، وهي في الواقع تكبرها بعام وأشــهر، كيف إذن لا تريد لها أمها أن تكبر!!.

– ماما.. بدي مثل أساور اعتدال.

كانــت جملتها اعتراضية لأنها اندفعت إلى الحجرة بحماس، لم تخمن وجــود العم أبو عبد الرحمن في مثل هــذا الوقت، ظهراً يكون في دكانه، ما الذي أتى به اليوم ليمد قدميه على طول الصوفة، ويلف رأســه بالبشكير، ويغنى، كان يفرقع صوتاً موسيقياً راقصاً بضرب أصابعه الوسطى بالإبهام، عندما دخلت، كان يغني وأمهــا خارجة من الحمام دافئة متوردة الوجه، رأســها أيضاً ملفــوف ببشــكير وردي، وزوجها الجاد، المتجهــم دائماً، يضحك، ويفرقع بأصابعه مغنياً:

– طلع الزين من الحمام.. هلا..و يا هلا.

أحدث دخولها الفجائي شــرخاً في الانســجام المتبــدي، ولكنها بحس خاص تعرف أن الوقت مناســب جداً لطلب أي شــيء، لهذا أسرعت نجمة تحتضنها:

– أساور بس!! اطلبي وتمني.

رفع زوج أمها حاجبيه في استفسار إيمائي، وتحولت نجمة إلى لبؤة:

- جايب أساور لاعتدال؟؟ ولميا لأ..؟؟

لم يأخذ تقي الدين الغضب المفاجئ على محمل الجد، كان ما زال منتشياً ببهجة الحمام الدافئ

- أي! ! أساور اعتدال هذول فضة.. مثل أساور البدويات والنوريات، معقول بدك هيك شغله للميا؟؟

- أه .... بدي، وبعدين ما تقوم تروح البيت الثاني، أنا ما بهون عليّ تغيب كثير عنهن، الحق حق.

يعرف أبو عبد الرحمن أن هذه إشارة نقص الرضا، وأن نجمة غالباً ما تلجأ إليها كلما تعلق الأمر بابنتها لمياء أو المحروس غالب، عند حدود الولدين يمكن لنجمة أن تتصرف بقسوة، فتقصيه من يومياتها وهي تداهن وتراوغ فلا يتسن له حتى مجرد اتهامها أو التشكيك بدوافعها التي تبدو نبيلة ظاهرياً.

سيشتري للمياء قلادة واحدة واثني عشر سواراً، تخشخش مثل أساور اعتدال، وستحرك لميا ذراعيها بخفة وتتابع ودقة مدروسة ليتحول هسيس الفضة إلى مقطوعة موسيقية، ستقترح على معلمتها إدخال مشهد راقص على مسرحية صلاح الدين الأيوبي التي تلعب فيها دور الأم النصرانية التي يكرمها القائد المغوار، تريد أن ترقص بأساورها، ولكن المعلمة تظل مجرد معلمة، لا تتصور الرقص في مسرحية كهذه ولا في سواها، تتجاهل طلب التلميذة وتطالبها بأن تسمّع غيباً قصيدة محي الدين الملاح

وان العلم خير حلى وأزهى عقود زينت صدر البنات

به تعلو، لهيبته وقار ولا تدنو لعار الجاهلات

علقت فايزة على هواية البنت باللعب بأساورها قائلة:

- تعالي نساوي فرقة، انت بالاساور، وأنا عالعود.

تسمع لمياء الموسيقى الكامنة في الأشياء، تلتقط وقع النغم حتى في خرير الماء في السيل والقنوات، وتجننها حكاية فرقة الموسيقى العسكرية التي تقف فجر كل يوم تحت شرفة زوجة المعتمد البريطاني فردريك بيك باشا، ليس كما يحدث مع فايزة التي تتساءل عن ما تمتلك تلك الاسكتلندية الصغيرة ويزيدها فتنة عن باقي النساء حتى يأمر بيك عازفي موسيقى الجيش بتوقيع ألحانهم تحت شرفتها كل صباح!! ليس أمر غرام القائد بزوجته الذي يجنن لمياء، ولكن تصورها للموسيقى كائن فائق الجمال يتسلق سور البيت صاعداً إلى الشرفة، تدوخها موسيقى لم يتسن لها سماعها.

خرب فستان لمياء بين يدي الخياطة البلهاء رفقة، وليس من المؤكد إذا كانت المدام ستجد الوقت الكافي لخياطة البديل، قالت إنها أصلاً لا تخيط إلا للنساء، كأن لميا ليست من النساء، لعلها نحيلة، ولكن!!

حدثتها المدام غاضبة:

– إذا شفتي صاحبتك جاني، قوليلها تمر عليّ، جبت لها كريم العرايس من الشام، بخلي الوجه زي الحرير، وقولي لها عيب تروح تطرز فستانها بغير هالمشغل، وإذا كان فستان شركس، أنا بعرف أطرزه.

غضب المدام لم يمنعها من قياس حجم ثدييّ لميا بقبضة كفها دون حرج قائلة:

– ولك هذول حبتين كستنا، اسكي دنيا!! لازمك صدرية.

خاطت لها صدرية راعت أن يكون حشوها سخياً، قالت إنها يمكن أيضاً أن تخيط لها فستاناً خاصاً بالمناسبة، إذا أقنعت الشركسية بخياطة جزء من جهازها في مشغلها..

الأساور أنست لمياء وصايا المدام، شغلت وقتها بفرحة حلوة، وحرصت لميا أن تتزين بأساورها عندما ذهبت إلى السينما، وبعد أن شد رجلان ستائر الكتان البيضاء الثقيلة كاشفين عن الشاشة، عزف رجل أرمني مارش أزمير

على الأكورديــون، مصحوبا بنقرات على الطبل، ثم ســاد صمت، وأطفأت أخر لمبات اللوكس في أرجاء القاعة فغرقت بالعتمة، أســاور لميا فقط راحت تصدر إيقاعاً متعمداً، لكزتها اعتدال في خاصرتها فضحكت.

لميا تحب الأساور لأنها نوع من الغندرة المسموحة إلى أن يحين الوقت، وقت ماذا؟؟

تؤكد نجمة في أكثر من اســتقبال بأن ابنتها ستكون طبيـبة، منذ زارت عيادة الدكتور دانيال لخلع ضرســها هناك، وشاهدت العجلة الغريبة التي يديرها بقدمه لتنعكس حركة حفر دقيق في جهاز صغير يرفعه ويدخله إلى فم المريض ملاحقاً الحفر الســوداء المسوسة، وقبل ذلك منذ سنوات، عندما اصطحبــت الحاج إلى عيادة صبحي أبــو غنيمة ليصور قفصه الصدري تحت الأشعة الكاشفة التي تعرف ما في أحشاء البشر، منذ ذلك الوقت وهي تقول سأفتح للميا عيادة في جبل عمان، سألت اعتدال لمياء:

– صحيح يا مقصوفة الرقبة بدك تصيري دكتورة؟؟

– ماما بتحلم توديني عالشام.. بس بيني وبينك أنا بدي اشي تاني

– خير!!

تهمس لمياء جادة:

– بدي أشتغل رقاصة في تياترو أطناس.

تزعق اعتدال مرعوبة وتضرب صدرها، تنـتفض كمن مسها جان:

– الله لا يعوضــك.. انجنيت يا بنت؟؟ ولك اهلك بيجوا فارعين دارعين من معان بدبحوكي زي الغنمه..

تنقلب لمياء في الكنبة ضاحكة:

– بمزح.. بمزح.. مالك انهبلتي؟؟.. بمزح.

تظن لمياء أن المزح غندرة، والمزح أحلام يطيرها الهواء، الأساور غندرة، والأغنيــة الحزينة التي يعزفها الأرمني في ختام الفيلم الســينمائي، لحن

أزمير أيضاً غندرة، والموسـيقى التي تنبعث من مقهى الشالاتي حين تغني أم كلثــوم على بلد المحبوب وديني، البعد كاويني، غندرة، ولكن فايزة لا تفهم، إنها كبيرة على الغندرة، لا تفهم بالموسيقى حتى وان ضربت العود، الســت شــحرخان جدة جاني تتغندر أكثر منها في حفلات الفنطزية، تظل تضغط منفاخ الأكورديون وتمطــه وتداعب أصابعه، تخنقه وتطلقه وتحرك دمــاء الصبايا ليتحركــن مثل الحوريات، الأكورديــون الذي سمعته صباح العيد يوم أرسلتها أمها للبحث عن غالب عند درج فرعون، وغالب كثيراً ما يختفي، هذا الولد لا يمكن السيطـرة عليه، ولكنها تستمتع بالبحث عنه، عنــد المدرج رأت عراضة موســيقى الجيش، كـان الضابــط يتقدم العــازفين بســتــرة وبنطال كحلي وخوذة بيضاء مشـدودة بزرد مــن فضة، وأصابها السحر، ثم سمعت موسيقى الأكورديون وتقدم شبيبة الشركس وشاهدت من بينهــم نجمهم الفتى أنزور يقفز علىالالحان كأنه جزء منها، كان يطير في الهواء، ويهبط ثانيا ركبتيه، مرتكزاً على أطراف أصابعه، وشاهدت عيني فايــزة تلمعان، ولكن تلك لم تعترف، قالت فيما بعد أن أنزور نحيل، وأن خصــره بمقاس خصر لميا، وما هكذا يكون الرجال، كأن فايزة تعرف كيف يكون الرجال ! !

ألهمهــا الراقــص الرشــيق بأن ترتــدي أســاورها وترقــص متجاوزة كل الحجــرات في المنزل، راحــت تصفق الأبواب، وتتمخــتر في الفراغات المتاحة، تزن وتطير كنحلة، وترندح شــعرها في كل الاتجاهات مثلما تفعل نعاشــات الزار، تخشخش الأســاور وهي تترنح على صدى موسيقاها، لن تصبح دكتورة كما تتمنى أمها، ولن تتزوج عبد الرحمن الســمج كما يخطط زوج أمها، لا تعرف ماذا ســتفعل حقــاً، فتياترو اطناس من المحال، ماذا لو فكرت بعشــق الفتى النحيل أنــزور ! ! ! لتتغندر إذا مثل الحلم، مجرد حلم، ما الضرر؟؟

صباحاً، فوجئت بأن مديرة المدرسة تجمع التبرعات من الطالبات للثوار في فلسطين، شعرت بالخجل، كيف نسيت هذا الأمر فلم تأت بشيء معها، فتحت حقيبتها المدرسية، وسحبت اثني عشر سواراً وقلادة، أسقطتها في حركة واحدة فوق ما تبرعت به زميلاتها، سمعت الخشخشة لأخر مرة، وقالت في خاطرها، ربما عليّ أن أصير دكتورة، على الأقل، ريثما يطرد الثوار اليهود والانجليز من فلسطين.

حديث الزيتون

الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم * سورة النور -٣٥ -

لما ضرب مكرم السلطي أول ضربة فأس في الأرض الطينية الكلسية، استبشر خيراً، وقال يخاطب أصغر شتلة زيتون:

- هاي سهله جخه، بكره بتكبري بيها، وغير أهل عمان ما ينسوا طعمة حلوقهم.

لن ينسى أهل عمان طعمي، الخليط بين الصلابة والليونة، بين المرارة والحلاوة، مذاق مز يملأ الفم بالرضا، وكما لا شيء يشبهني كانت قصة مكرم، عندما كانت الأرض مواتاً قرر إحياءها، ظن لوهلة بأنه موجوع وفي حلقه مرارة، وأن تلك الأرض المهملة تشبه روحه، لم يكن مذنباً ولكنه تعرض للعقاب، وأراد مكافأة نفسه الحزينة بما يرفع كربتها فكافأها بالأرض، وبمساندة المحامي عبد الرزاق، استخرج مكرم سند تصرف يخوله زراعة خمسة وعشرين دونماً من الأرض السليخ، قرر أن يعمرها بالزيتون، الزيتون بركة وفي غضون ثلاث سنوات سيكون قادراً على جني الثمار، وسيكون عليه تجديد سند التصرف، قال له المحامي بين الجد والهزل:

- بيجي يوم بتصير الأرض إلك، كل القوانين بدها تتغير، اللي برعى الأرض، بقدر يملكها بعدين.

عندما تغطس الشمس وراء التل القريب في الجبيهة، يحلو له أن يحدثني عن الخروج الكبير، عندما جلا بأسرته من السلط، يتنهد قائلاً:

فرقت بنقطة، يعني ابن عمي منصور، سابع ابن عم،كان بلعب بالفرد مع صاحبه، هو الفرد مش إله، لقاه بالمغاره، كنه فرد تركي، وإلا إنجليزي من أيام الحرب، وبين لعب وغشـمره يثوّر الفـرد، وابن عمي يا غافل إلك الله،حمل صاحبه ورجع بيه عالسلالم، ها! يخليه بالبرية عشا للوحوش؟؟ مش أخلاقنا.. مش عاداتنا.. بس شـو تقول بأهل المتوفى!! راسـهم وألف سـيف ما بصلحوا ولا برد روسـهم غير نجلي لسـابع قريـب، وأنا هذاك المنحوس السابع، فرقت بواحد، لو ابن عمي هواش عاش كان هو اللي جلا، وأنا ظليت بجلعاد، بس هذاك مات سنة التيفويد، وأنا شوفة عينك (يقدر مكرم أن لي عيناً ترى) شوفة عينك، اجيت عمان، قلت جنب قرايـبنا، ما هو المحامي عبد الرزاق الشـعيبي قرابتنا.. بصير لنا.. ها كيف؟ برد شعيبي من وادي شعيب، وأمه الحجه فضية عمتي لزم.

زرعنـا مكرم على بعد مناسـب فيما يشـبه المربعـات، أحكم تعميق القرميـة الصلبـة في الأرض، وردم التربة الغنية فوقهـا، جلب مزيداً من التربة الحمراء المطعمة بسـمرة وسواد، قرر أن يغني الأرض لتغنيه، وقد عـاد ظهراً من عمان مصطحباً المحامي وفتى أشـقر يعلـق في رقبته جهازاً بعـين زجاجية، تجولـوا في الأرض وأثنى رزاق على العمـل وراح المصور الأرمني بدروس دومانيان يلتقط صور المكان، ومكرم يعدل من وضع كوفيته مائلة على الرأس:

– متأكد كل الزيتونات بيّنن بالصورة؟؟

– وين الزيتونات يا عمي؟؟ لسه صغار، بس الأرض كلها بينت.

– لا تنسى بعد ثلث أربع سنين بجيبك توخذ صورة المزرعة والشجرات.. شو.. بالعلالي..

شـبك عبد الرزاق ذراعه بذراع مكرم وسحبه إلى ما يشبه الخلوة بعيداً عن الصخب الذي تسبب به الأولاد وهم يتسابقون لأخذ الصور.

– أنت واعي يا اخوي يا مكرم انك يومن غزيت أول زيتونة بالجبيهة، يعني مش ناوي ترجع السلط! !

– وانت يا رزاق يومن فتحت مكتب محاماة مش ناوي ترجع كمان! !

مكـرم هـو الوحيد الذي يخاطـب المحامي باسمـه، لم يعترف بلقب الأبوكاتو الشـائع في سـوق عمان، ولا بتعبير أفندي وبيك، في أعماقه يظن بأن هؤلاء المتمدنين يسخرون من ابن عمته ولكنه لن يصرح بذلك علناً.

– هاي غير، الزيتونة بتحبسـك هسـه بالأرض، واللي مش بارضك لا إلك ولا لولدك.. وبعدين المستقبل بعمان للمهنة وبس.

يدرك مكرم أن ابن عمته المحامي يناقض نفسه:

– اسمعوا هالسمعة! ! ما كنت تقول القوانين بتتغير وبصير ملاّك! ! !يا زلمة طول عمرنا بنعرف المسـتقبل بالشـجرة، وبنقول الشجرة لولد الولد، وبعدين شو السلط وشو عمان؟؟ كلها بلاد الله.

– عمان غير ياخوي، ما بيها مسـتقبل للزراعة.. هاي بلد بدها تصير بيـوت ودكاكـين، مش شـايف؟ محتارين شـو يسـاووا إدارات ومكاتب ومدارس، وبكـره دور حجر وخلافه، ما بظل مطرح للمزارع، انت بتوكل منها، وبخسروها أولادك.

– وحـد الله، عمان بلـد البيادر، أي لو الخلق شـرقوا وغربوا، عمروا وتاجروا، ما بوصلوا الجبيهة، حدهم جنب المي، لاحقين البعوض والرمد، ول عليهم.

– بتشـوف بكرة غير يمر من هون شـارع إسـفلت يقص أرضك قص، ويمكن دور وقصور، وبتقول ابن عمتي نصحني وما نتصحت.

لم يكـن مكرم بحاجة إلى نصيحة ابـن عمته، ما زال يذكر دموع بناته وهن يركبن عربة الشركسي تامبي الذي تطوع لنقلهم إلى عمان، يذكر بحزن كيـف صاح بزوجته لتخنق بكاءها وتمسـح دموعها، يدرك بأنه غير عائد

إلى السـلط وان ظل يدعي عكس ذلك، يقول لي عندما يتمدد في ظلي مسنداً رأسه إلى ساقي الفتية:

– ما هو قاصم ظهري غير طلعة مصطفى من المدرسة، كان موصل المترك، هسه المدرسة بعيدة، شو بده يوديه كل يوم حد السيل؟ ومين بده يساعدني بالأرض؟؟ بس كلها سنة زمان غير أشتري حمارة، وأودي اخوته الصغار، عزمي مخه مليح.. شـو بدريني حكي رزاق يصـير صحيح، ما هو محامي وفهيم كمان، ساعتها شو بده يفيد الزيتون!!

الزيتون يسـمع، الزيتون يتألم، وهو يحكـي أيضاً، كما يحكي لي عن قصة الجلوة القسـرية أحكـي له عن رحلة العمر منـذ حملت حمامة نوح أول غصن للزيتون عائدة به إلى الناجين، سـواء كان ذلك في جبال آراراط في أرمينيا، أو جبال الأناضول الشاهقة حيث رست السفينة، في ذرات الزيت الذي يتفصد من حبة الزيتون الناضجة ملايين الحكايات عن شجرة أبت أن تصير ملكة الأشـجار حتى تظل زيتـاً ينير الدرب ويمتدح فيه الرب، منذ أن حملها الفراعنة من فلسـطين قبل ١٢٥٣ عاماً قبل ميلاد المسـيح إلى مصر لتصير تيجاناً على رؤوس الملوك، ومنذ أن نقلها الفينيقيون إلى إيطاليا ٦٢٧ قبـل الميلاد، ذاهبـين فيها إلى قرطاجنة وبرقة في أفريقيا، ثم اشـبيلية في الأندلس، حيث أضاء نورها على الغرب، منذ أن اسماها اليونانيون شجرة الحكمة والخير والسلام، شجرة منيرفا آلهة الحكمة، وحملها سيركوبس مؤسـس أثينا إلى اليونان وصقليه، ثم رسا بها في مرسيليا الفرنسية، وهي تنـتشر، تذرو الريح طلعها كل يوم لتصير جنة للبشر، ومكرم جاء بي إلى الجبيهة ولكن ولده مصطفى فعل بي الأعاجيب.

لم يوافـق التاجر تقي الدين على اصطحـاب مصطفى معه إلى القدس في افتتاح محلات الحلاب رغم وسـاطة المحامي، قال بأنه لا يضمن ظهور أي من أبناء عم المغدور قتيل (السلالم) الذي قد يفور دمه ليأخذ بالثأر، ورغم

أن مكرم لم يقتنع ولكنه لم يجادل خاصة أن من أبلغه بالرفض هو المحامي عبد الرزاق، وعندما شكك مصطفى بالرسالة المنقولة غضب مكرم:

– ولك هاذا عمك رزاق، ما بحكي غير اللي بيه مصلحتك.

– أنا بس بقول لاتخليه يحل ويربط بشغلنا، هو إحنا بنتدخل بشغله!!

يظن مكرم في أعماقه أن المحامي رجل كهين قادر على الكذب والادعاء، لكن صلة القربى من ناحية، ونشاطه ضد الإنجليز من ناحية يشفعان له، ومكرم أميل إلى أن يكون حافظاً للجميل، فلولا ابن عمته لما تمكن من عقد الصلات بسرعة مع تجار عمان، فهو من سهل له أمر بيع الزيت في المعرض الاقتصادي، وأرسل له للمرة الثانية بالمصور الأرمني الذي وقف مبهوراً يتأمل المزرعة التي التقط صورها منذ أعوام، ثم يلتقط الكثير من الصور رافضاً أن يتقاضى الثمن مكتفياً بتذكر جبال أرمينيا الخضراء قائلاً بأنه سيقبل الثمن زيتاً وزيتوناً، سيكون رابحاً بهذه المعادلة، ولكن مكرم لن يخسر على أية حال، فلولا تصريف التجار لبضاعته لما تمكن من الصبر على تكاليف عمان المتزايدة، مع ذلك يصر مصطفى على السفر إلى فلسطين، إذا كان من الخطر الاقتراب من أحراش عجلون المكتظة بالثوار، وصولاً إلى المعصرة، فان الطريق إلى معصرة نابلس سالكة، في عامه الأول، عاد الفتى بصفقة مع معمل الصابون، وبحلق المحامي متعجباً:

– معقول!! بعت زيت لنابلس؟؟ هاي سمعه، هو ناقصهم زيت!!

– ما بتقدر تتصور يا عمي كم طن بحتاج مصنع الصابون هناك..

– والله علمناهم الشحذه سبقونا عالابواب.

لا يستسيغ مصطفى دعابات المحامي، ويعتقد بسماجتها فضلاً عن كونها تلميحاً مغرضاً، ولكنه يمسك عن الرد عليها، حتى لو تجرأ بعد انصراف المحامي على البوح بما يجول في خاطره عن حسد الرجل لنجاح

مزرعة الزيتون في هذه الأعوام القياسية، وقال:

-ابـن عمتك ضاقت عينه ع المزرعة، ما هو طول نهاره بلعب عالخلق، بلبس طواقي، بشـيل من هون بحط هـون، وبهيل بالنيرات هيل، وبنقول الله يزيده.

يتكفل مكرم بإسكات بكره:

- عيـب.. حدا بقول عن زيته عكر! ! كلـه ولا رزاق، ولك هو ناقصه اشـي؟؟ بكيل بالمصاري كيل، أه، شو محسـب؟ وعلى إيش بده يحسدك يا ابو ايدين مقشفة؟؟ وبعدين هاذ عزوتنا في عمان.

- طيب بكره بتشوف، لما نبدا نتاجر بالزيت مشان الصابون النابلسي، غـير ابن عمتـك ما يحلا له غير الحكـي بصابون اللوكـس المعطر، وهات عطرها، بتشـوف المكايدة ع أصولها، أصلاً صابون الزيت ما بقبل عطر غير ريحة الزيتون، وأهل عمان هذول عقلهم خفيف، بدشـروا صابونة الجمل والمفتاحين والنمر، وبدوروا ورا اللوكس.

-شو اللوكس هاذا؟؟

سأل أبوه ولم ينتظر الجواب إذ انبرى مدافعاً عن نزاهة المحامي وحبه للخير.

بعد مصادرة بغلة مسعد، استعان مصطفى بعربة الشركسي تامبي لنقل الزيتـون، يوزعه على المحال التجارية، وتظل هناك كميات مرقومة تأخذ طريقها هدايا للأعزاء.

الحجة فضية تفضل تحويل الزيتـون إلى زيت وتقول متفاخرة بصلابة عودها

- الزيت مسامير الركب.

تكبـس أسمهان الزيتون بحيث تظل الحبة مكتنـزة وقوية ولامعة دون أن تشـطبها بالسكين أو تدقها بالحجر، لكن زيتون حسيبة سيكبس بالملح

والليمون، ولن تنسى قرن الشطة الذي يمنح الطعم حرارة محببة.

تكبس نجمة الزيتون في زيته، وتفضل الأسود المتلئ، ولا تحلو لها مائدة خالية منه، تقول:

– لقمة بلا زيتون ما بتسوا، هاذا سلطان السفرة.

أنا سلطان السفرة، لقمة منيرفا السائغة، نور على نور، الشجرة التي يقطع بها المؤمنون درب الآلام من كنيسة العازرية حتى كنيسة المهد في عيد الشعانين، الزغبج الذي تصير نواته حبات في مسابح يذكر بها اسم الله، الزيتون الذي يعرف بالعاشق، الذي يستظل بفيئه الفول والقمح والكرمة وعناقيدها، الزيتون العاشق للتين، لهذا كنا معاً قسماً قدسياً، لا دلالة على الموقع فحسب، فذاك ذكر لذاته ولكن لأجل العشق الذي نعرفه، أما علماء العصر الحديث فتحدثوا عن الحب بين التفاح والعنب، وكأنه اكتشاف، كل ذرة زيت في كل حبة مني تحفظ تاريخ العشق المجيد، عندما تمر المياه قطرات عبر النسغ الذي يتمدد في الجذور تحت الأرض، حيث لا عين رأت ولا أذن سمعت، حيث يتعانق جذرا التين والزيتون.

هطلت الأمطار مبكرة، وحلت المربعانية في أواخر ١٩٣٧ باردة، وسخية المطر، فحملت بشرى للزيتون خاصة ذلك الذي طعمه مصطفى بأصناف جديدة، وقبل موعد السبع المستقرضات من شباط وآذار قطع قامة شجرة النبالي تماماً مكتفياً بجذرها، مضيفاً إليها طعومات الزيتون الأكثر عطاءً، ليكون لديه النبالي المحسن، خالطاً البري الصغير بالجوي، حريصاً على الإكثار من النبالي والخضاري والليلك المعطر، فإذا ما جاء سيل كانون، وغاص مكرم في الوحل، تفقد متانة السلاسل الحجرية التي أقامها منذ أعوام لمنع انجراف التربة، انتشى صارخاً:

– سيل الزيتون من سيل كانون.

اعتدلت الأجــواء في فبراير، ولكن خير الســماء كان واعداً وكان يمكن لعائلة مكرم بعد مطرة أول تشــرين أن تســري مبكراً وقبــل ارتفاع قرص الشــمس في السماء، تخرج إلى المزرعة ليتحول النســوة والأولاد إلى لاقطي زيتون، على الرغم من تردد مصطفى الذي استحســن تأخير القطاف أســوة بمــا يفعلون في برما، ولكن مكرم حســم الأمر مؤكداً انه لــن ينتظر ذبابة الزيتــون التي تأتي على المحاصيل التي يتأخر قطافها، يســتخدم مصطفى المشط الألمنيوم المعقوف، ويفرط مكرم الحبات بكفيه، ويغتنم الصغار فرصة انشــغال الأب والأخ الأكبر في غرب المزرعة ليكتوا الأشــجار خرطاً بالعصا قبــل أن تتنبه الأم التي كانت تجمع ما تســاقط من الأشــجار على البســاط الممدود في الأســفل، فتؤنبهم وتأمرهم بالفرط بأيديهم حفاظاً على الشجرة، سنة عادية، ولكن سعر رطل الزيت في ذلك العام هبط إلى اثني عشر قرشاً، وعندما جلس مكرم مهموماً في ظل الشجرة همس مصطفى بحذر:

– والله إنــي عارف، طبعاً بده يصير أرخص، إذا الحج أبو عبد الرحمن ببيــع الزيت الصناعــي اللي ما حدا عــارف من وين جــاي، بثمن قروش للرطل.

– وشو عليه يابه؟؟ ما هو عمان مليانه غربية، كلهم بدهم زيوت غير، ما بحبوا زيت الزيتون.

–مــش صحيــح، الأرمن ما بدلوا عنه، والشــركس كمــان، بس هذول النجليز ما بعرفوا طعمة ثمهم.

يســتبقى آل مكرم الأشــجار أعلى التل ليكتمل نضجهــا، فإذا ما أقبل أيلــول متقلباً بين برودة محببة ودفء منعش، زغردت زوجة الرجل التي بكت يوم الجلوة مبشرة الجميع:

– الزيتون دبغ أحمر، بكرة بصير أسود، بنلقطه وبنكبسه بالزيت.

تظل مزرعة الزيتون خضراء، تمر الريح عصفاً في أعالي الجبيهة، تميل

الأشجار في كل اتجاه، ولكنها لا تنقصف، ويتوزع الصغار مجدداً يغربلون الأرض مـن الحصى والحجـارة، ويدخل مصطفـى ثوراً قويـاً يجر وراءه المحراث، يوسـع مكرم الجور حول سـيقان الأشـجار، وترفع أم مصطفى بهمة قفف زبل الغنم والبقر التي جاءوا بها من مغارات وحظائر الشركس، يمشـطون الأرض من الأعشاب، ينكشون التراب ويقلبونه، يسيجون المكان ويتراكض الصغار وصوت أبيهم يلاحقهم:

– يا منعونين الوالدين، فغشتوا البندورة، والله والله إن وصلتكوا..

يرقب مصطفى اخوته يلعبون، يحك عوداً بالحصى ويقول بتوجس:

–يابه، هاذ عزمي صار زلمه بكفيه مدرسة، يقعد يساعدنا.

يقفز مكرم مغتاظاً ومشوحا بذراعيه:

– ايـاك وهالحكـي، غراب بنعـق عالخراب، أي أنا مـا صدقت واحد يصـير بيه خير، إذا نوصت وتعبان يابه، بنشـوف حدا يسـاعدك وخلي الولد لقرايته.

يطأطـئ مصطفى رأسـه ويمضي دون جواب خابطاً كل شـجرة يمر بها بالعود الرفيع في يده.

ويكمل مكرم حديثه وكأن مصطفى يسمعه:

– هـاذ ابن عمتي رزاق، مـن عظام الرقبة، مثلنا مثلـه، صار وتصور عمنه تعلم! ! أهلوا فلاحين مثل أهالينا، هريله صار زلمة بوقفوا له، أنا ما بقول الأرض خامة، الأرض بتكبرنا وبتسـترنا، يعني ما بيش حد أحسن من حد ، بس هو الواحد بظل يرفع راسه يوم ابنه تكتور وإلا محامي، شو بدرينـا كمان، ما هي عمان صـايره كنها اسـطنبول! ! وبكره بودي عزمي عالشام بصير محامي، وبنعمر دار صغيرة على التل، والزيتونات أنا وانت بنكفيهن، ما انت عارف كل ما كبرت الزيتونة قويت عينها وأنطت بزود.. بزود..

إلا أن عزمي لم يكن يريد حقاً الاستمرار في المدرسة العسبليه، لقد التقى الفتى بالأستاذ أحمد الشبلي الذي زار المدرسة ليحدثهم عن خيار جديد، قال بأن مدرسة الصنايع ستجعل منهم رجالاً يكسبون أرباحاً مالية محسوسة بسرعة قياسية، وأن البلاد في حاجة ماسة إلى الحدادين والنجارين، ورغم أن الصغار لم يبدوا اهتماماً إلا أن عزمي وحده سأل:

- بنفع أجي مدرستكو هسه؟؟

ورد الشبلي:

- السنة الجاية، بتكون خلصت الصف الرابع، ومرحبا بك.

الزيتون الخصيب وحده يثمر أكثر كلما شاخ، الزيتون وحده خصب لا يموت، ووحدها الشجرة التي يحترق قلبها حزناً على ما هو آت.

عزمي

ضرب الهوس قلب عزمي السلطي منذ زيارة أحمد الشبلي أستاذ الصنايع للصف الرابع في مدرسة العسبلية المتلاحمة بذات السور مع ديوان الأمير، بات يحلم بمدرسة الصنايع المقامة في بركسات من الزنك، يساعد والده في جمع عروق الفول الأخضر من تحت الأشجار، ويحلم بصناعة كرسي من القش، يشطب مع أمه حبات الزيتون ويفكر بصنع خزانة خشبية تمتد من الحيط إلى الحيط، يحلم بشاكوش ومنشار، ولا يعرف الطريقة المثلى لمفاتحة والده بالأمر، عادة ما تظل الأحلام سرية، كأن يحلم مثلاً بأن يخالف تمنيات والده فلا يتحول إلى محام بجاكيت وطربوش، ولكنه لم يكتشف حلاوة أن يمتلك حلمه حتى التقى بالشبلي، كانت زيارته للمدرسة أكثر وقعاً على الفتى من زيارات الأمير التفقدية التي يكثر فيها من الأسئلة في النحو والصرف وقصائد الأولين، كما يصر على تفقد نظافة الهندام وحسن الهيئة، أما زيارة الشبلي فوعد بدنيا جديدة، لم تنحصر مزايا الصناعة في الكسب الخاص ولكنها تعدتها إلى الخلاص النهائي من مسطرة الأستاذ، وسيل المعلومات التي لا يتسنى له الوقت لحفظها بين مواسم الزيتون وتشليف الأرض بالخضار، لم يفهم أبداً سر شغف غالب بالقصائد، ولا حماس مروان لمعلومات التاريخ، ولا حتى أهمية أن يتلهى أنزور برسم العربات والخيل والخيالة، ونساء يرتدين أثواباً مطرزة، ورجال يعتمرون القلبق، لم يكد عزمي يعرف ما يحب وما يريد، باستثناء لعب الكرة في ساحة درج فرعون، غالباً ما تكون كرته من الشرائط المضغوطة، في حين يتمكن غالب من إحضار كرة مطاطية تستحوذ على الاهتمام إلى أن تشقها ركلاتهم، وتعود كرة الشرائط إلى الساحة، باستثناء هذا اللعب،لم يكن عزمي يظن بأنه يمكن أن يحلم أو يتمنى، وقد أغضب أستاذه حين أكد له بأنه لا يرى

الأحلام ولا حتى في المنام، شرح له المعلم أن هذا الأمر يستحيل علمياً، وأنه يحلم ولكنه لا يتذكر، ولأن الفتى دخل في مناكفة مع أستاذه، فان الأخير عاقبه بأن تركه واقفاً على قدم واحدة في باب الصف لساعة متواصلة.

أقسم عزمي للعصبة الأصدقاء:

- عليّ النعمة ما بحلم ولا بشوف منامات.

ولكن زيارة الشبلي للمدرسة أثارت اهتمام الفتى، وحده في الصف الذي سأل:

- بنفع أجي مدرستكو هسه؟؟

ورد الشبلي:

- السنة الجاية، بتكون خلصت الصف الرابع، ومرحبا بك

يتحدث أحمد الشبلي في جولاته على المدارس وجلسات الأنس على المقاهي عن الصناعات، مؤكداً أن لا مستقبل بدونها، والأهالي الذين بدءوا يلمسون رفاه المدنية يقرون برأيه حذرين، فما كادوا يتقبلون الإقبال على التعليم الإلزامي حتى بات واضحاً بأن للحياة الجديدة شروطاً عديدة.

يقول الصيدلي قعوار لاستاذ الصناعة بأن ما يقومون به ليس أكثر من ذر للرماد في العيون، أين نحن من معنى الصناعة الحقيقي؟؟

يشير الشبلي إلى المقعد القش سائلاً:

_ من أين لك هذا؟؟

فيشير قعوار لسيارة توفيق أبو الهدى التي اجتازت طريق المحطة في تلك اللحظة مزينة بلافتة تحمل الرقم ١

- إذا بدك تحكي عن الصناعة، قل لي كيف يصنع هذا؟؟ مش شقفة كرسي قش لا راح ولا إجا..

يتحشرج صوت الشبلي انزعاجاً:

- وحدوا الله، إذا مش قادر أساوى طيارة، بقعد وبتكتّف! ! واحدة

واحدة يا ناس، شو هي الشغلة، يا بطخه يا بكسر مخه!!

الذين يسخرون من منتجات مدرسة الصناعة تجار لا يحبذون دخول العمال إلى السوق بهذه القوة، لا بد أن تظل هناك بضائع تستورد، ماذا عن التصدير، سؤال الشبلي المطروح لا يجد آذاناً صاغية، ولكن طريقته في الإقناع وتزيين الأمر راقت للفتى عزمي وان جعلت مكرم السلطي يهوي بكفه الخشنة الكبيرة على وجه ولده تاركة كدمة بقيت أياماً.

أن يتمرد الفتى على الزراعة أمر يتمناه مكرم وأن نقص عماله واحداً، لكن أن يتمرد على المدرسة فهذا مرفوض، وعزمي الذي تجرأ على القول بأنه حصل على الشهادة الابتدائية التي ستخوله الانتساب لمدرسة الصناعة لم يتمكن من الاستمرار في المجادلة، فصفعة والده ألقت به طريحاً تحت شجرة الزيتون وجعلت الصمت يخيم على العائلة المهذارة.

لأول مرة منذ الجلوة شوهد مكرم غاضباً، في الواقع كان خائفاً، وقف مساءً يتأمل غياب الشمس فوق حد الأفق، ورآها تغطس من فضاء الجبيهة إلى قعر عين الباشا، وتذكر أن السلط هناك وراء تلك التلال، وأنه وحيد يباطح زمانه، وأن مصطفي يسرق مكانته دون ضجيج بروية خبيثة، وقد أوشك تذكره لقوة الصفعة التي أوقعها على خد أمله وولده المحبوب أن يبكيه، ولكنه تماسك، هكذا يأدب الفتية المارقون، هكذا يتعلمون الانصياع لأحلام آبائهم، والضربات القاسية وحدها تصنع منهم رجالاً، لماذا هو متوجع إلى هذا الحد إذاً؟؟ جر قدميه إلى حجرته، تذكر فجأة أنه لم يجدد سند التصرف الخاص بالأرض والحجرتين الطينيتين، أية مهام لا تنتهي، سيرسل مصطفى غداً ليقوم بالمهمة، أو يرسل الولد المارق عزمي، ما دام يظن نفسه رجلاً قادراً على اتخاذ القرارات في شأن مستقبله، لكن مكرم نسي الأمر تماماً عند الصباح، مع صياح الزوجة المتعبة، صاحبة العواطف الجياشة والذي غطى على صياح الديك:

- يا مصيبتي، يا سخامي، يا غراب البين، الولد مات، مات.

لم تكــن اللحظة مناســبة لرد المرأة عن عويلهــا، أو حتى زجرها وهي تشد جسد ولدها الراعش الداخل في نوبة تشنجية لا يمكن تفسيرها، ولكن مكرم أدرك أن ما يراه، صرع صريح، وكأن نصلاً شق جسده وروحه مرتين، مرة وهو يربط بين ما يحدث والصفعة القاســية، ومرة عندما يتذكر أخاً له فاجأته نوبة الصرع عند ســيل وادي شعيب، فســقط فوق الحجارة الصلبة وقضــى نحبه نازفــاً، نوبة عزمي القصيرة، جعلــت الوجع يجتاح مزرعة الزيتون وعيون الصغار، مصطفى فقط، تصرف بمســؤولية، أبعد أشقاءه عن المكان، هدأ أمه، لم يبادل والده النظرات أو الكلمات، كأنه تجاهله بوقاحة مغلفة بالتهذيب، ومرت الزوبعة.

تكتمت العائلة على ســرها الأليم، حتــى عزمي لم يدرك ما حدث له، ودخل في حالة شجون خاصة، كان يرى عند طرف الحقل، ينظر إلى الوادي الفسيح الذي تنــزلق عنده الأرض وصولاً إلى عين الباشا، أضحى الفتى قليل الأكل، فاقد الشــهية، حتى عندمــا جاء زميله أنــزور بصندوق العنب في موسمه هدية من المزارع الشركسي، ورغم إغراء العناقيد الحمراء والصفراء، إلا أن عزمي صمد رافضاً تناول العنب، واكتفى بأن همس لأنزور:

- رايح مدرسة الصنايع.. رايح مدرسة الصنايع، لو علقوا مشنقتي

ظنــت أم مصطفى أنها قادرة على معالجة فقدان الشــهية بحيل قليلة، كأن تحول العنب إلى شــرائح من الخبيصة المعطــرة، فترفع عصارة العنب الحلــوة علــى موقد الفحم مضيفة كمية من النشــاء ونثار اليانســون وحبة البركة، ســاكبة المزيج ليجف على شرشــف تحت الزيتون، لم يمنع طنين الذباب والغبار المتســاقط من الأشــجار الأطفال من ترصد أول بادرة جفاف للمعقود، ثم نزع شرائح منه للتذوق المبدئي، وحتى تعلن الأم أن بإمكانهم نــزع الكمية كاملــة، والاحتفاظ بها ملفوفة بقمــاش قطني نظيف، عزمي

وحـــده عف عن تناول الحلـــوى التي أعدت له خصيصاً، كما لم يتجاوب مع اعطيات التين المجفف والزبيب الذي ترشوه الأم بها.

– بلا قُطّين، بلا أكل هوا، بدي مدرسة الصنايع.

نوبـــة الصرع الثانية أفزعت الأب، أدرك قســـوة انفلات الأمر من يده، لم يكـــن قد ضرب ولـــده يومها، ولكـــن النوبة وجدت طريقها إلى جســـده الضعيف، وفي حين أســـرع مصطفى يحشو حطته المتسخة في فم شقيقه منعاً لتكســـر أسنانه أثناء التشـــنج القاسي، فان مكرم قرر اللجوء إلى أبي نوير، ألم يوقف القطار بعينيه!! ألم يدخل بيت النار في الفرن وخرج ولم يمسسه سوء، فقد كانت النار برداً وسلاماً على سيدنا الشيخ، وحده أبو نوير قادر علـــى معالجة الفتى والتخلص من الجن الذين يتلاعبون بولده، قال مصطفى لأشقائه:

– أبوكوا حرج علينا، مش تدرّوا الأولاد بالمدرسة، ما بدنا حد يعرف، خص نص المحامي، ابن عمته فضية..

لأول مرة يحرص مكرم على اســـتبعاد المحامي عبد الرزاق عن شؤونه العائلية، بات يشـــك بالمتعلمين، وبقدرتهم على فهم أسرار الحياة المعقدة، واستشعر بأسى أنه فقد الرغبة في رؤية ولده محامياً.

شـــرب عزمي من الماء الذي قرأ أبو نوير تعويذتـــه عليه، أربعين يوماً وليلة، وأغتســـل بـــه دون أن يعرضه لنار، تحمل برودة المـــاء آملاً التغلب على الكابـــوس الذي دخل حياته، لكن أمه أثارت زوبعة في البيت المنطوي على أسراره، عندما وصل الأمر إلى إعلان الشيخ أن أخر العلاج الكي، وأنه ســـيقوم بمداوة الفتى بطريقته المفزعة عندما يمتطي فرســـه الأبيض ويسير فوق جسد المريض تحت عين الشمس لحظة غروبها، صاحت أم مصطفى:

– بدكـــوا تموتوا الولد!!..ما بقرب ولدي ولا بطب بطنه حافر بهيمة، ولو راكبها مين ما كان، ما بتسووها وبيّ نفس.

يقــدر مكرم بأن أم مصطفى هي الواشــية لأســرار العائلــة، وإلا كيف للمحامي أن يعرف ويأتيه معاتباً، يجلسه مثل تلميذ صغير أمامه، ويؤنبه على توســله شفاء ابنه عبر هذه الطرق، أم مصطفى استعانت بالشيخ القطان ليقــرأ القرآن علــى رأس الفتى، ولكن المحامي اقترح الذهاب للمستشــفى الطلياني، وشــعر مكرم أن عليه أن يحتج ويدافــع عن وجهة نظره بمقابل ذلك الجبروت الذي يتمتع به ابن عمته.

– الطلياني!! هاذ.. النســوان بتلد بيه، شــو خصه بالجن والعفاريت اللي راكبين الولد؟؟

– مــا عفريت إلا بــني أدم يا زلمه، وحد الله، انت مش مســلم!! وديه يتعالج زي العالم والناس.

استمع عزمي صامتاً كما حاله مؤخراً، ولكنه فجأة وبهمس ثابت، تفوه بما أدهش المحامي.

– بدي أروح مدرسة الصنايع.

– طيب.. وين المشكلة؟؟

لم يتخيل مكــرم أن ولده على هذه الدرجة من الدهاء، أن يخلط الأمور بهذه الصورة الذكية المدروســة، أن يغتنم فرصــة مرضه ويلعب بها ورقة رابحــة، ثم يســتغل تدخــل المحامي ليطالب بهذا الاســتقلال المشــين، فكــر مكــرم (الله يجازيك يا عزمي، على هالمخ اللئيــم، والله بتصلح تصير محامي).

عندمــا يقرر المحامي أن ليســت هناك مشــكلة، ماذا يملــك مكرم أن يفعل؟؟ ادعى بأن لا قدرة له على التخلي عن يد عامله في الحقل، وأشار إلى انعدام الوســيلة التي تنقل الفتى إلى المدرسة يومياً، فضحك المحامي هازئاً بالأعذار الواهية:

– مكرم.. قلنا وحد الله، اضحك بعبك إذا صح لك ابنك يصير صنايعي،

ما هو إن وديته مدرسة التجهيز بدك تدفع ثلاث نيرات، وبده يروح ماشي أو راكب حماره، وبعدين لويش يظل رايح جاي؟؟ ما يبات داخلي بمدرسة الصنايع؟ بدك تظل حاشي الولد بحضنك؟؟ فكه، خله بصير زلمه كسيب ما دام العلم مش بهواه، بكره هو بمدك.

– وأنــا محتاج منه مصاري أنا؟؟، هو أنا شـكيت من لقمته!! ما بدي منه، سنحه ع وجهه، وبظل اعطيه تا يصير ويتصور.

– لا تركب راسـك يا مكرم، الولد مش رايح ينفع بالمدرسة، وفي براسه مـوال ثاني بـده يغنيه، بده يغنيه، ما غير فك عنه، واحسـب ان صراره بتسند الخابيه.

– بتمون يا خوي بتمون.

لم يناقشوا مسألة مرضه بعد ذلك، فالفتى الذي دخل في حماية المحامي هجــر مزرعة الزيتون، وما عاد الأب قادراً على التدخل في مجريات حياته بعدها، إلا في اصراره على عدم اللجوء للمستشفى الطلياني مسـتبدلاً هذا الخيــار بموافاة طبيب المستشـفى الحكومـي الدكتور (حنا القسـوس)، فتباعدت نوبات الصرع، لكنها لم تنحسـر تماماً، كان بامكان رفيق السكن الفتى النجار أميل الفحيصي أن يسـمع رجع تحرك عنيف ومنتظم للسرير الحديدي الذي يشـغله الجسـد الراعش، ويدرك بـأن الصرير المنبعث عن الرفاصـات الحديديــة لا بد حادث بفعل اهتزاز غير عــادي، لكن أميل لم يغادر فراشه، فكاه أيضاً يرتجفان في عجزه عن تفسير ما يتعرض له زميله، فيما بعد، اطلع أنزور على الحالة وهما يلعبان الكرة في ساحة درج فرعون، كان عزمي يحشو الشرائط ويشدها، يعالجها بحيث تتخذ شكلاً كروياً بعد أن انبعجت الكرة المطاطية التي آتى بها غالب، قرفص تحت عمود أثري،، يشد الكرة بدقة وعيناه تتأملان النقوش والزخارف على حجر كان في أعلى العمــود فاســقطه أمر ما، كان يفكر، من نقش هــذا الالتفاف الرائع، أهذه

زهرة أم حرف؟؟ أي المعاني كانت في رأس الناقش لحظتها؟؟

فجأة شعر بالحرارة تعتريه، يعرف معنى هذه الهبة التي تجتاج بلعومه ممزوجة بمرارة الاستسلام للنوبة، أمسك تاج العمود الأثري، واستسلم، تدحرجت كرته التي اكتملت، وتنبه أنزور، وقف مرعوباً محبوس الصوت، عاجزاً عن الآتيان بفعل، ولم يسعفه في حيرته إلا الفترة الزمنية القصيرة للنوبة، استطاع بعدها أن ينحني ويلتقط جسد صاحبه دامعاً ويمسح عرقه بكم قميصه، كانت دموع الصديق أول ما رأته عينا عزمي وهما تنفتحان بتؤدة على عالم بعد النوبة، هناك دموع أيضاً تدحرجت على خديه، ولكنه ابتسم ببساطة سائلاً:

- وين الطابة؟؟

التقط أنزور الكرة، وساعده على الوقوف، سارا بهدوء، تحدثا باقتضاب حول الحالة المرضية، ثم لحقا بباقي العصبة وقد وحدهما سر خاص اتفقا على عدم البوح به دون أن يتفقا، وواصلا اللعب.

يرفض عزمي أن يجعل من مرضه عائقاً أمام تمتعه بالحياة، باللعب، والفن، يواصل العلاج في المشفى متفادياً الذهاب مجدداً إلى أبو نوير، رغم أن مسعد هدده عند التقائه به في شارع الرضا قائلاً:

- إذا ما بترجع للشيخ غير تصير هبيله، الجن بلعبوا بيك، حد بسلم راسه لدكتور الصحة!! صحيح انك مجنون.

ضحك عزمي في سره، منذ عامين كان بإمكان العصبة أن تجري وراء مسعد وتتضاحك، كانوا يرمونه بحبات القضامة ويختبئون، يضعون قشور الموز في دربه وينتظرون صرخته عندما يتزحلق، اليوم يحاول مسعد أن يلعب دوراً على غير قياسه.

يلمح عزمي الأستاذ يعقوب السكر في أخر الدرب فينطلق بحماس نحوه، عندما يوازيه يخفف الخطو، ويبتلع جرعة كبيرة من الهواء قبل أن

يجرؤ على محادثته، لكن الأستاذ يعقوب يعرف فيه تلميذه فيبتسم بود:

– السلام عليكم.

– وعليكم السلام، كيفك يا بطل؟؟

بشاشة الأستاذ تخفف عن الفتى وجله، يقول ما بين الهمس والاجهار:

– أستاذ.. كنت بدي أسال عن الرسمات اللي على الحجر في درج فرعون.

يبتسم الأستاذ حتى تظهر أسنانه كاملة، يحك أنفه ويسير والفتى معاً:

– القصة طويلة يا عزمي.. مش اسمك عزمي؟؟

يهز الفتى رأسه إيجاباً:

– ممكن تحكي كثير عن اللي نقشوا ورسموا وعلوا الحجر، وتحكي أكثر عن حالنا كيف تاركين هالثروة هيك مهملة، بتعرف أن الإنكليز بهربوا أثارنا ع متاحفهم؟؟

لم يجب الأستاذ على سؤال عزمي ولكنه استولد مزيداً من الأسئلة، وأصاب الفتى فضول دفعه مراراً إلى حجرة أستاذه في المدرسة، كان يتلجلج في البدء بالحديث إذ غالباً ما يرى الأستاذ مطأطئاً رأسه على عمل جديد، وراح وهو يتأمل تلك الرسوم الفذة التي تبدعها ريشة الأستاذ يكتشف بأن التخصص الذي أعطي له كصناعي في إنجاز كراسي الخيزران قد لا يناسبه تماماً، انه يريد أن يبدع فناً كهذا الذي يفعله الأستاذ، بالطبع لن يحلم بتصميم طابع بريدي كما فعل يعقوب السكر حين كثف كل جلال المدينة الوردية البتراء في طابع لا يزيد حجمه عن نصف إصبع صغير، ولا ذلك الطابع الذي يصور ملامح الأمير، إن مثل هذا الفن عسير على ريشة ما زالت تخط الخطوط عريضة وكبيرة، المنمنمات أمر لا يطمح إليه، ولكنه يشعر

بأن مستقبله معلق بما يقترحه الأستاذ عليه، لهذا أصيب بالدهشة والزهو عندما قال له:

- أنت فنان، ما في ذلك شك.

اصطحبه إلى مادبا، وتفرجا معاً على الفسيفساء، حمل عزمي سطلاً ممتلئاً بالماء وبناءً على توجيهاته دلقه على أرضية القديس ثودروس الشهيد، فتلألأت، لم يصدق الفتى عينيه، تقاطعت المثمنات وراح الأستاذ يشرح:

- قدامك هسه، أنهار الفردوس الأربعة، تمعن مليح يا ولد، هنا جيجون وفيشون ودجلة والفرات.

وعلى أرضية كنيسة العذراء كان بإمكان عزمي أن يرى خريطة العالم ببحارها وممالكها، قال الأستاذ السكر:

- دير بالك، ما فيش مكان بالخريطة بشير لدولة اسمها اسرائيل.. فاهم.. لا زمان ولا بكره..فاهم.

حدق عزمي في أرضيات المعابد والمسارح والقصور، تأمل الفصول الأربعة وآلهة الخصب والحظ تايكي تحمل الربيع ممثلاً بالأزهار، والخريف قرن ممتلئ بالفاكهة، والصيف حزمة سنابل، والشتاء انسكاب الماء، وكانت هناك افروديت، وآخيل، وهرقل يصارع الأسد، وغزلان شقر تجري في مروج خضر، أزهار حمراء، وعنب بنفسجي يتدلى من كرمة وارفة، ومربعات ودوائر تتقاطع لتشكل مثلثات ومثمنات ملونة، جف ريقه رهبة واحتبس حسه، وارتعشت أنامله، لا ليس الآن، ليست النوبة، لم تحضر النوبة ولكن الافتتان ليس أقل عصفاً منها، عندما انتهيا من التفرج الصامت كأنهما يتعبدان، قال الأستاذ:

- سنحاول، أن نصنع مثل هذا.

لم يكن الشبلي يصنع مثل هذا، ولكنه يعمل ويتحدث.. يقول:

- بتعرف يا عزمي... في سـوق البزوريه بالشـام جدي عبد الغنى بنى بيت.. شـو! ! ولا في الأحلام.. بتدخل من باب واطـي.. بقولوله خوخه.. هيك بتحنى راسك احتراماً للبيت.. من الشارع الضيق لا يمكن تعرف كيف سـحر البيت جوه.. هلا جوه.. رح بتشـوف العجب.. بكل قرنه اrابيسك وموزاييك، نحت ورسم، خط عربي ومنمنمات.. إشي بياخد العقل وبأرض الديـار بحرة بتغذق غـذق.. وفي الحرملك بحرة تانيـة أصغر.. جدي كان ياخذنـي معه لنـزور أهل البيت..كانـوا بيت جبري سـاكنينه.. وجدي بيشتاق لصنعته.. كيف لكان! ! وكنت دوخ لمن شم ريحة الشمشير والنارنج في الساحة.. هيك البيوت والا بلا..

يعرف عزمي أن الشبلي يحلم بأن يحول عمان إلى دمشق ثانية.. أما هو فانه معجب ببلكونات السـلط والأقواس والأعمدة في أبوابها العتيقة.. تري كيف ستكون عمان؟؟

درس يعقوب السكر ليس درسـاً عملياً في كيفية قص الحجر والبلاط، ولا حتى في تنضيد قطـع الرخام إلى جانب بعضها البعض، وصنع أرضيات تشـبه ما تركه الموآبيون على بسـط مدينتهم الخالدة، أنه درس في التذوق وصنـع الجمال، وعشـق الألـوان والزخـارف، انه درس في الإحسـاس، وهكذا وجد الشـبلي نفسـه مضطراً لنقل الطالب عزمي مكرم السـلطي من صف النجارة وصناعة كراسـي الخيزران إلى صف التبليط، سـيدخل عزمي بيـت الوجيه (عبد الحميد النمر الحمـود) ليصلح اختراماً حدث في بلاط الردهة الأساسـية، وسترقب المستأجرة الإسـكتلندية الحسناء زوجة بيك باشـا أنامله وهي تعيد تنضيد الممرات برسـوم جديدة بدهشة، ستمد يدها نحوه بمبلغ إضافي يرفض أخذه، لم يكن يؤدي عملاً بقدر ما كان يتدرب، في المستقبل قد يكسب الكثير من المال، إذا ظل أهالي عمان مصرين على تزيين بلاط بيوتهم الحديثة بالبـلاط المزخرف وإذا لم ينجح عوض الحايك بغمر

السوق بالبسط والسجاد، ولكنه عن نفسه، سيفكر بذاته فناناً لن يجود الزمان بمثله، وستصبح معظم أحاديثه حول عمله، وقلما كان بإمكان بقية العصبة مروان وغالب وأنزور أن يتحدثوا عن ما يتلقون من تعليم في المدرسة الثانوية، يقول غالب:

– عزمي بده يصير بليط، ومروان شاعر، وأنا تاجر، وأنزور رقاص.

يلمح إلى كون أنزور أكثر فتيان الشركس كفاءة في أداء رقصة الفنتزية، ويرد أنزور:

– أه..يكثر خيرك.. مشان جدي يعلقني محل الثور بالعرباية ويلف بي عمان.

للعصبة أحلامها، ولكن الواقع الذي اختاره عزمي مبكراً صار أمراً ملموساً، لم يتمكن مكرم من تغيير مجراه رغم غضبه:

– هاي أخرتها.. الحق عليّ، أنا اللي خليت عبد الرزاق يلعب بينا، قال بتصير صنايعي، قلنا حداد، نجار، مش بليط، بليط ياللي ما تخافوا ربنا!! ما كان أحسن لك تظل مثل مصطفى تزرع وتقلع، قلنا بدنا زلمة محامي بالدار، بليط، شو هالصنعة!! فرحان ترسّم وتخربط على البلاط!!

– يابه هذا فن.

– فنه تفنك، هاذ قلة عقل، بدي أشوف وين بدها تودينا سوالف ابن عمتي..

تجنب عزمي إطالة الحوار مع والده، تناول ما حبته به أمه من الزبيب واللوز بامتنان، وسرح بفكره، لقد تم اختياره مع أستاذه يعقوب للقيام بأعمال إضافية في قصر رغدان، أي التصاميم تصلح لقصر؟؟ لعل عليه أن يستشير فناناً مؤابياً غابراً، سيذهب في الغد إلى مادبا، ويتفرج على كل بيت يستطيع دخوله، ثم سيفكر بعيداً عن كل ما رأى، سيصنع تصاميمه الخاصة، هكذا يكون العمل فناً رفيعاً.

غالب

يعشــق غالب شاشة السينما، ينتقل بمجرد جلوسه في كرسي الخيزران الصغير إلى القاهرة، يري نفسه على شرفة، تحته مباشرة نهر النيل العظيم، ويرى الماء يضيء بمصابيح كهربائية تسقط نورها على صفحته وعلى الجانب الأيمن من وجه الفاتنة سميرة خلوصي بطلة (الورة البيضاء) الواقفة مقابل محمد عبد الوهاب، يســمع صوته يغني، (يا ورد ليه الخجل؟؟ فيك يحلو الغزل) يختلط الأمر، كأنما هو عبد الوهاب، يوشك أن يمد يده ولكن كوعه يرتطم بكوع مروان، فيدرك أنه في ســينما البتراء، يختزن كل المشــاعر إلى لحظة الخروج، تدعى العصبة رجولة مبكرة، يتحركون وقد هزوا أكتافهم وتضاحكــوا، متعمديــن المرور مــن دكان الحاج تقي الديــن علهم يلمحون الشــاريات الرائحات الغاديات، غالباً مــا يحبطون، ولكنهم وعلى صغرهم لن يتورعوا عن التنهد عالياً إذا ما مرت لمعان الفاتنة، أو شقيقتها برفيين، وفي لحظة أخرى ســيتحولون إلى صبية يفكرون بألاعيب لايذاء مسعد الذي يطوف بمســبحته الطويلة وأضحى يتقدم عليهم بحفظ ما يسمعه من أشعار وأناشيد صباحية خلف سور مدرسة التجهيز، ولأن غالب قال لهم، اتركوه هذا شاعر، فانهم ضحكوا حتى أعلن مروان أن خاصرته تؤلمه.

- إذا مسعد شاعر، انت شو يا عبقري؟؟

أنا ســيد الشــعراء، وخاتمهم، أنا الذي لن يقال بعدي الشعر أبداً، أنا صاحب أخر كتاب يكون.

لا يبــوح غالب بزهوه، ينتظر حتى ينضج الكلام على لســانه، ويدرك بأنــه قادر على معالجــة نقاط ضعف الحروف التي لا تتلاءم مع الشــعر، يرتاد مكتبة الزعيم ويســتأجر ديوان احمد شــوقي بتعريفة، ويقرأ كتاب د- داهش واقفاً، يمر تحت شــرفة مقهى حمدان ويرصد دخول عرار وعبد المنعــم الرفاعــي، ثم ينظر إلى موقع قدميه خشــية أن تلتقــي عيناه بأعين

القوم، عندما يكبر سيذهب إلى القاهرة ليلتقي بشوقي أو إلى حلب ليتعرف إلى المتنبي، على الأغلب أن المتنبي توفي!!، سيحلم غالب كثيراً بالسفر، وبالحب معاً، منذ شاهد جانيت تهرع وراء شقيقها تحمل له صفرطاساً محمـلاً بطعامه الخاص، ثم ترتد متوردة الخدين وكأنها لم تره، منذ ذاك الحين وهو صريع هواها، أكان ذلك قبل أعوام!! كأنه يحدث الساعة، يراها، بخصلات شعر أحمر، تنادي بصوت ناعم، صوتها هديل الحمام، تلحق جرياً بالشقيق الذي نسي طعامه، فيرتد لحظتها خشية على عينيه من كل هذا البهاء، لا يسترعي ارتباكه انتباه الفتاة وهي تعاود سريعاً مجتازة حديقة بيتها الأنيقة إلى الداخل، تمتزج صورتها بشجرات الورد التي طرحت لوناً مذهلاً، مزيج من البرتقالي والأحمر، مثل شعرها، الذي لم يعد يراه رغم أنه رأى الصبية مرات بعد ذلك، في ساحة فرعون، مع شقيقته لميا، باتت تضع منديلاً كالنساء وبدت أكثر نحولاً من لميا العصوصة ذاتها، ولكن ذكرى الخصلة الحمراء ظلت في الذاكرة، ينساها أحياناً ليكتب قصيدة حول الفضيلة، وقد يتجاهل مرور الفرح خفيفاً خاطفاً في أعطافه ليكتب ملحمة حول الوحدة والألم.

لم يكن غالب يستطيع أن يعبر عن الألم إلا بالقصيدة، وكان لزاماً عليه أن يتجاهل هذا الشعور اللئيم الذي يعايشه ويحفر روحه ويتأصل، عندما جاء إلى عمان برفقة أمه وأبيه وشقيقته بدا له الأمر مثل حلم بعيد، تماماً مثل الانتقال إلى القاهرة على صهوة كرسي من الخيزران في قاعة سينما مكشوفة للفضاء، لم يتنبه بداية للتغيرات التي طالت حياتهم، كأن تبتاع أمه حجرة خشب مصدفة فارهة، كأن يكون عليه مغادرة البيت مساء كل أربعاء لأن هذا موعد استقبال أمه لنساء عمان، يثرثرن ويأكلن السحلب والمكسرات والتفاح والخيار البلدي، لم يسترع انتباهه أن أمه خلعت الثوب البدوي وارتدت فستاناً مدنياً، وأنها تحب الأحذية أكثر من نفسها، مرة

واحدة لا يذكر لها مناسبة، قالت لمياء لأمها بجرأة حسدها عليها:

- انتي بتحبي الكنادر أكثر من أولادك.

حظيت البنت الوقحة بصفعة قوية، ورغم أن نجمة لم تكن قاسية مع أبنائها، لكنها وباقتدار غريب قادرة على رسم حدود فاصلة بين ما يحق لهم قوله، وما يمتنع بتاتاً، كل ما مر في تلك الحقبة من حياة غالب كان خاطفاً حتى وفاة والده، هل تألم حينها؟؟ هل شعر باليتم؟؟ لا بد أن نجمة فاضت حناناً مثل بحر، يذكر أنها احتضنته وأنه نام ليلة بطولها في ثنيات لحمها الدافئ الأبيض، وأنها مسدت شعره وغنت له رغم أنه تجاوز سن الطفولة المبكرة، ما زال رجع صوتها يأتيه في الليالي الذي يستعصي عليه القصيد:

- يالا تنام.. يالا تنام.. وأذبح لك جوز الحمام.. روح يا حمام لا تصدق بضحك ع غالب تا ينام.

يتظاهر غالب بالنوم، يتقلب ويفتح عينيه ليستعيد صوتها كلما صمتت، وتظل تؤرجحه في حضنها حتى تغفى هي، عندها يلتحم بها بجنون، وينام.

قالت له ذات مساء:

- أنا ما رضيت أروح بيت جدك، مش لأني مرة كاسرة وبدي أعيش كيف ما بدا ليّ، مشانكم، بدي إياكم انت وأختك تظلوا معززين مكرمين بداركم، شو يعني لحالي، كيف لحالي! ! ما انت معي، انت رجال البيت، مش هيك يا حبيبي يا غالب؟؟

يهز رأسه كأنه يعاهدها:

- هيك.

يمشي غالب دائماً مثل رجل، في المدرسة تحديداً عليه أن يكون رجلاً، هناك جمع من الضباع على استعداد لافتراس من به وهن، لهذا سيطاوع

عزمــي في لعب الكرة، ومروان في ارتياد الســينما عندما يكون هناك عرض خاص للملاكمة، ولكنه وبعد اجتياز مرحلة الطفولة لم يعد يلعب الدواحل ولا تســتهويه المغيطة إلا لإزعاج مســعد، أما ولعه فقد صار صنع الطائرات الورقية، اشترى كثيراً من القصبات والغراء والأوراق الملونة من دكان الحاج تقي الدين، كان الرجل يقدمها له بســعر لا يصدقه الآخرون، ويأتي أنزور معه بموس حاد، تجتمع العصبة على قص القصب ولصقه بالعجائن، يجب أن تكــون طائرتهــم أكبر وأن ترى مــن أعلى جبل القلعة ومن أســفل درج فرعــون، ويجب أن يعرف كل من يمر بالســيل أنهــا طائرتهم ذات الذيل الطويل المكشــكش المقصقص الكثير الألوان، ويجــب أن يكتب يوماً قصيدة عن الطائرة الورقية التي شــغلت الناس في التطلع إلى السماء، ومثلما كرسي السينما، كان غالب يسافر على متنها إلى عوالم خاصة، كان يحلم بأن يهدي جانيت شالاً بلون ذيل الطائرة المفرح، لم يخطر بباله مرة أن جانيت تكبره بعامين، أو يزيد، هو لا يريد أن يحسب، فللقلوب حسابات مغايرة.

المــرأة التي قالــت له أنت رجل البيت، خانــت عهدها معه، وأدخلت رجــلاً أخر، لم يتوقع أن تكــون مجاملات صاحب الدكان له وبيعه الأوراق والحبال والغراء بسعر بخس ثمناً لمودة يتربص بها، أما كيف صار الرجل زوج أمــه فهو يكاد لا يتذكر، فقط كان صوت شــقيقته لمياء يأتيه مثل مواء قطة محبوســة، فقد حبست نفســها في حجرة التموين لساعات تبكي ليلة عقد قران أمها التي قالت لهم:

– من نشانكم أنا قلت ما في عرس ولا رقص وغنا، وبدي إياكم تحترموا الرجال وتطيعوه، هاذ صار مثل أبوكم، هاذ رجال البيت هلا.

كيف سحبت الأم البساط من تحت قدميه، وأعفته من لقب رجل البيت لصالح التاجر تقي الدين!!! لا يريد أن يتذكر، ولماذا بكت لميا ســاعات ثم خرجت من مكمنها وقالت لأمها مبروك، في حين لم يتمكن هو من البكاء أو

الضحك، ولم يفه بالكلمة أبداً، ليلتها كتب قصيدة عن فتى تقمصت روحه تفاحة، ثم سقطت عن الشجرة فدقت عظامه، لكنه في الصباح مزق قصيدته البلهاء، ومر سريعاً من باب حجرة أمه، تظاهر بأنه لم يسمع صوت الحج أبو عبد الرحمن يقول له:

- يصبحك بالخير.

لن يصنع الطائرات الورقية بعد اليوم أبداً، وسينشغل بالتفكير بقصيدة (عبقرية) لا علاقة لها بالأشجار والتفاح، وسيكتب بعد هذه القصيدة الكثير من القصائد، ربما عن العصابات الصهيونية في فلسطين، أو عن الثوار السوريين الذين تفتح لهم عمان صدرها سراً، أو عن الفقراء الذين يتكاثرون عند السيل في رمضان والعيد، قد يكتب عن الحب العذري، ويطلع عزمي على بعض ما كتب بعد أن أكد له بأنه فنان من طراز مختلف، هو وعزمي سيقتربان أكثر، ولكن جانيت ستقربه من الأصدقاء بصورة مغايرة، سيحب أنزور لأنه شقيقها، وسيحرص على إخفاء ولهه بها حرصه على إخفاء عتبه على أمه التي باتت امرأة مغايرة، تصبغ شفتيها وتتضمخ بالعطور، وتذهب إلى حمام النصر مرات عديدة في الأسبوع الواحد، سيحب مروان لأنه فجأة سيكتشف بأن قلبيهما عالقان بالفتاة ذاتها، ولو أنهما اكتشفا تلك الحقيقة في ظرف مخالف لربما احتربا، ولكن أنزور قال شاكياً ببراءة:

- ايمتى أبدي أدرس للامتحان، جدتي بدها اتدرب ع الرقص منشان عرس جانيت.

نطق كلاهما بذات السؤال:

- عرس!!!!!

لم يتجاسرا على نطق الاسم، وغاب عن الفتى هذا الارتباك الذي حدث، ارتبك عزمي أيضاً ولكنه تماسك، وواصل أنزور:

- الصيف الجاي، يعني بعد الامتحانات طوالي بشرف العريس من

حيفا، ايمتى بدي أدرس مش عارف.

من غير المعتاد أن يتكاشف عاشقان في أمر عاطفة لم يتسن لها أن تتبلور، ولكن مروان أبدى احتجاجاً قاسياً على زواج جانيت المفاجئ، وأطرق غالب حزينـاً، بدا كمـا لو أنهما يبوحان لبعضهما عن هـم عتيق جارح، كأنهما عشقا منذ عرفا الحياة، واعتذرا لبعضهما صادقين، قال مروان:

- يالا.. ما بتفرق، ما دامت مش من نصيبي ولا نصيبك...

- لو كنت بعرف انك بتحبها ما حبيتها.

كان غالـب صاحب اقـتراح العهد الأخلاقـي، أربكتهما مشـاعرهما المختلطة، تناسيا بأن الحسناء لن تكون لأي منهما واتهما قلبيهما بالخيانة، لم يظنا للحظة أن عليهما أن يحملا مثل هذه المشـاعر المارقة، رغبا بنسيان الأمر والتضحية، شاهدا معاً فيلم الوردة البيضاء لمحمد عبد الوهاب وبكى غالب مسـتتراً في ظلام الصالة، ثم ابتاعا كيساً من ابر الخياطة الرفيعة من سـوق البخارية، وهبطا إلى السـيل وأقدامهما تغوص بالماء، قاما بالتعاهد على أمر خطير، ثقبا إصبعي السـبابة في الكـف اليمنى لكل منهما، لاحظ غالب أن صديقه أغمض عينيه متحاشياً رؤية رأس الإبرة يغرس في سبابته، أما هو فقد نظر ملياً إلى الرأس الحاد يثقب اللحم، ونقطة الدم تنبثق، وضعا سبابتهما وجعلا نقطتي الدم اللتين تدفقتا من كليهما تتعانقان وتمتزجان، قالا إذا جاء الشتاء القادم وما زالا معاً على حب جانيت الشركسية، فانهما لن يحتملا الخيانة، سـيقدمان الصداقة على الحب، ويسـطران ملحمة في الوفاء، سيتخلصان من الحياة بإلقاء جسديهما في درب الترين، هكذا تكتب القصائد العظام، لا من حبر على ورق، ولكن ندفع ثمنها من دمائنا.

كان لا بـد لمروان أن يفكر بهذا العهد الذي ورطه غالب به، إلا أن هذا الأخير كان راضياً منتشياً، ينتظر الموعد الأكيد لطرح جسده العاشق في درب القطار. لكن ما حدث بعد ذلك غير مقادير الفتى.

مروان

يستل مروان شحفة من كرسي الخيزران، يحرص على أن تكون من أسفله، تأجيلاً لأمر اكتشاف التخريب الواقع على الكرسي، وهو على أية حال لم يقصد التخريب لذاته، ولا يهوى تدمير الكراسي التي جاء بها والده وصفها في الشرفة الضيقة التابعة لمكتبه ومصنع البوز، ليرقب من الأعلى حركة السير في شارع السعادة حيث النساء يتكاثرن قبل غياب الشمس، ولا ينقطعن صباحاً، كل ما يرمي إليه الولد المشاغب أن يتمكن من إشعال سيجارته الخاصة في بيت يختنق برائحة السجائر، والده كان يدخن الصمصوم واستبدله بالاتومان، عمته فائزة مدخنة متحركة مع أنها بنت، ورغم أنه لا يفهم سر تغاضي والده عن تجاوزات العمة العانس، إلا أنه معجب بقدرتها على اختراق حصار القسوة والهيمنة الموجعة التي يفرضها الأب على البيت، ولعله يعد كل انتصار للعمة انتصاراً شخصياً لذاته الضعيفة الراجفة أمام الأب القاسي، هي فقط من تنتصر له، ولطالما أنقذت عراقيب قدميه من شد الحبال الفظ، وحررت ساعديه المربوطتين إلى أكر السرير المعدنية، لم تكن أمه تجرؤ على مثل هذا الفعل الاحتجاجي، كانت تنظر بعينين مذعورتين تتوسلان التدخل السريع من العمة التي لا تتلكأ أبداً رأفة بالولد، وان كانت تتمنى أن تطيل عذاب أمه، المرأة الواهنة الهشة، لكنها لن تفعل عندما يتعلق الأمر بمروان

يصرخ مروان من قاع حنجرته وضربات الكرباج تنهال على باطن قدميه وتنحرف فوق الساقين حتى تطال الصدر أحياناً، ويرتجف كله وهو يقبل أصابعه ناقلاً إياها سريعاً إلى جبهته مرات متتالية، متلعثماً، راجياً الصفح عن ذنوب نسي تفاصيلها بمجرد أن كتّف للعقاب، حالفاً:

- التوبة.. التوبة.. ببوس التوبة، حرمت.. حرمت.

لعله يحلـف عن عدم تكرار سـرقة عيدان القش من باطن الكراسـي، أو عن تأخره حتى صلاة العشـاء في سـاحة درج فرعـون يلعب الكرة دون أن يخبر مسـبقاً عن إمكانيـة غيابه، لعل الأمر يتعلق بسـرقة العنب من المزارع التي تنحدر أسـفل المدرسة الهاشمية، أو لكون الأب غاضباً من أمر يعنيه شخصياً، الأسباب الموجبة للضرب متوفرة دائمة، ويكاد يكون أهمها إهمال الفتى لدوران عجلة البوز المتواصل وسـهوه عنها، الأمر الذي يؤدي إلى تفتـت البوظـة، كما أن من أكثـر الأمور توجباً للعقـاب تلك العلامات المتدنية التي يحصل عليها منذ التحق بالمدرسـة الثانوية، هناك حيث هو موضع للحسد!!

- معلوم يا سيدي، وحداني ومدلل، مين قدك؟؟

لمـاذا يقدر عزمي والآخرون بأن مروان مدلل؟؟ إذا كان ملحم يأتي لولده بـين الحين والأخر بكـرة من المطاط فأنه سـيقرعه إذا فقـدت أو عطبت، ولقـد خطر ببال الفتـى خاطر غريب، أيعقل أن والـده يحمله وزر توحده وغياب الأخوة، أم هي رحمة الله رحمت أبناء مقدرين في علم الغيب من أن يكونوا أبناء لهذا الوحش الآدمـي، وجعلته وحده الفداء عن بنين العالمين أجمعين!!

يشعر مروان بأنه يتيم، أو أنه في أعماقه يتمنى لو ولد يتيماً، منقطعاً، مثل مسـعد الأبله مثلاً، ويداري الفتى حسـده لعزمي على أخوة خمسـة وأنامل تنتج اجمل اللوحات على البلاط، وحسده لأنزور المتميز بين أترابه وفي عائلته راقصاً رشيقاً وطالباً متفوقاً، يحسد غالب على يتمه وتحرره من سـطوة الأب وقدرته على تصوير الألم شـعراً، ثم يداري كل مشاعر الحسد والغـيرة لصالح محبة صريحـة، يعتقد أن قدرته على كبح حسـده فضيلة لا يقـوى عليها إلا أصحاب الكرامات والفاضلين من البشـر، ويحب الفتى عصبتـه ويعدهم أهله، ألم يرفـض عزمي تقاضي أتعابـه على ترميم بلاط

الصالــة التي هيأها الأب لتكون مضافة البيــت! ! فعل ذلك إكراماً للصداقة رغم أن الأب لم يدرك فعل الفروســية النبيلة، بالكاد ســيرى الأب أفضال ابنه أو يشــعر أن له فائدة تذكر في المنزل، وإذا ما حلم الفتى بمصنع البوز ينهدم علــى رأس الأب ووجهه يتمرغ في هلام البوظة والدندرمة، فإنه لن يشعر ذلك الصباح بأي أثر لتأنيب الضمير.

قد يصــاب بتأنيب الضمير عندما يتعرض للجميلة جانيت وهي ماضية إلى الســينما، فكونها شــقيقة أنزور يجعل الأمر عسيراً، ولكنها حلوة إلى الحد الذي يجعله يصيح لدى مرورها:

– يسعد الله..يسعد ربك.. ريتني أموت وتبكيني عيونك.

لا تبتسم الشركســية صاحبة الوجه العاجي الجاد، ولا تنظر باتجاهه أبداً، وسيشــعر بالخجــل إذا ما تذكر أنزور، ويــزداد الأمر صعوبة إذا ما لاحــظ أن عيني غالب زاغت وشــفتيه انفلجتا في فرجــة غبية تعني الوله المستتر.

مروان، الضعيف في المنزل هو نفســه زعيــم العصبة عندما يتعلق الأمر بســرقة مزارع البطيخ، وهو من سيقودهم لاكتشاف مباريات كرة السلة في مدرســة العســبلية حيث يلعب حسين السراج وكينج شــكري في فريقين، وسيكره مروان والده أكثر عندما يسأل السراج إذا كان بإمكانه الانضمام إلى الفريق، فينظر هذا نحوه من عل، ويرد باستخفاف:

– يــا حبيبي أنت عقلــة الاصبع، طولك ما بســاعد، روح العب طابة، سباحة، أي شي غير كرة السلة.

طولــه المتواضع إرث والــده القمئ الذي لا فكاك منــه، كانت أمه أميل إلى الطول، حتى عمته فائزة تمتلك جســداً قوياً ممشــوقاً، أما والده فقصير مدور، تتقدمه كرشه، يشعر مروان بالحقد على هذا الإرث، ويعاهد نفسه بأن لن يســمح للكرش أن تتوسط جسده القصير، وإلا فانه لن يحظى بنظرة

ود من امرأة في يوم.

– دوختنـــا وراك.. شـــو بدك بالملاكمة؟ هاي صعبـــة، تعال أعلمك ترقص فنتازية، والله غير تطير بالهوا زي النسمة

– قصدك زي القل، هو هالهيئة خرج فنتازية!!

يومها أوشك عزمي ومروان على القتال، ضرب مروان كتف عزمي بقوة ليثبت أن الجسد الذي تربى في مزارع الزيتون ليس أقوى من جســده، ولم يتقبل عزمي تلك اللكمة التي أزاحت كتفه وأخلت بتوازنه

– روح.. ما بتطير ذبانه..

– يا ســلام عليك، ما ضل غيرك يا معلــول تحكي، بتفكر مش عارفين يوم بتفرك بأرضك مصروع زي الذبيحة.

تصادم الجســدان بقوة، تدافعا بغيظ وحقد، وأســقط كل منهما صاحبه مرتين قبل أن يفك الاشــتباك الدامي بتدخل جسدي أنزور وغالب، وانتهى الأمــر إلى صلح مبدئي تكبــد الأربعة تكاليفه بحضور مبــاراة ملاكمة بين أديب كمال وغريب البكري وراشد المفتى في سينما البتراء، قال مروان:

– لازم أروح تركيا مشان أجيب مثل كفوف أديب كمال.

عندما خرجوا من قاعة الســينما كانوا قد نســوا تماماً المشادة الدامية، وراحــوا يتحدثون بإعجاب عن قفازات الملاكمين الجلدية، ويتســاءلون إذا ما كانت محشوة أم فارغة.

أخيراً وجد مروان الرياضة التي تناسبه، تلك التي لا تشترط طولاً، ولا تتطلــب كتفين عريضين، ولا حتى كفين قويين فلطالما كان خاســراً في لعبة المكاســرة، عندما ألقى بجســده لأول مرة في حضن الســيل، أدرك أنه هنا حيــث الماء، قادر على إذابة كل تلك العواصف المجنونة التي تدفعه للحلم بجانيت، كما أنه وســط الحوامات التي تتكاثر أسفل قنطرة العسبلية قادر

على إذابة والده نفسه، ولا بأس لديه إذا ما كان ثمن غيابه المستمر في منطقة الحوامات جلدات معدودة من كرباج والده، لقد جعلت السباحة جلده أقوى وأكثر احتمالاً، بات يعض بأسنانه على شفتيه فلا يصيح، لأنه في اللحظة التي يهوي بها الكرباج أو العصي على باطن القدمين المرفوعتين والموثقتين إلى السرير، في تلك اللحظة تماماً يفكر بحضن الماء الذي يجرف معه كل الأحزان، ويبدو والده لحظتها بعيداً ضعيفاً عابراً.

سيذهب للسباحة في السيل، سيأخذ الفانلة البيضاء العتيقة، لو أخذ الفانلة الجديدة فان أمه ستزعق بغباء، ثم سيلقى به والده في أرض الحجرة، سيربط قدميه إلى حديد السرير ويضربه بسيخ الخيزران أو كرباج الجلد، فلقة معتبرة، عادة ما يضربه على قدر حجم الذنب، تدخين السيجارة بعشرين ضربة، سكب السكر أثناء نقله إلى مصنع البوز بثلاثين، الوشايات التي تصل من مدير المدرسة عن مستواه الدارسي المتدني بأربعين، اللعب تحت المطر حتى المساء بعشر، يقدر مروان أن استخدام الفانلة الجديدة يساوي عشر ضربات حارة على قفا قدميه، هينة ومحتملة إلى أن تأتي عمته فايزة وتفكه وهي تتمتم:

- اللهم اخزيك يا شيطان، خاف ربك.. هو انت كل ما دق الكوز بالجره ما بتلاقي غير هالمسكين!!

سيحرض مروان الأولاد على ارتياد السيل، سيسبحون معاً، ويخلعون قمصانهم، ثم الفانلات القطنية، ويربطون شيالاتها محولين الفانلة إلى كيس ذكي يمكنه التقاط الأسماك التي اندفعت بغفلة باتجاه ما بعثر الأولاد من طعوم، تحديداً باتجاه فتافيت رغيف الشراك التي وضعت في قلب الفانلة كشرك، مروان سيصيد الكمية الأكبر لأنه الأكثر صبراً، والأكثر احتمالاً لبرودة الماء، وسيعبر الفتى عن فرحته بتحرير صيده، يعيد الأسماك وهي تخابط إلى الماء صائحاً:

- وين بدها تروح؟؟ بصيدها مرة ثانية.

ثـم بفرحة غامرة يضرب سـاعديه على سـطح الماء، ويحرك سـاقيه، يتحول إلى سمكة، يخترق الحوامة وسط دهشة الرفاق ومخاوفهم، يختفي لحظـات تحت حراك الماء، ثم يظهر رأسـه فيتنفس الآخرون ارتياحاً، لن يحب مروان شيئاً مثلما السباحة، حتى جانيت اللاهية التي لم تعبأ بقلوب محبيهـا، ولكنه بصـورة غرائبية تورط في اعترافه لغالب، تكاشـفا حول وهـم الحب الذي ينهش قلبيهما، ولعله غالى قليلاً في وصف مشـاعر نبيلة وعالية، لم يجرؤ على الحديث عن رغباته الوضيعة وأحلامه الفاسقة لشاعر حساس كغالب، أراد أن يبدو عاشقاً رومانسياً مدلهاً، فطال صديقه من هذا الهوى جرح، وكاد مروان أن يصدق بأنه أيضاً موجوع، بل أن صوت تنهدات غالب وحشرجة أنفاسه التي وشت ببكائه في ظلمة السينما وهو يسمع صوت عبد الوهاب يغني (منيـتي قلبي بالأمل ...والقلب لو طال الأجل ...إيه رح ينوله معاك؟؟ يا تري إيه اللي انكتب للفؤاد وياك،... شوك الضنى وإلا عبير الوداد)

كادت تصيبه بالعدوى، تحركت الدموع في مآقيه، فأمسكها بقوة، قال لنفسه القاسية:

- طز، هو اللي خلقها ما خلق غيرها، بكرة رايح أحب ليا أخت غالب، من غير ما يدري، شو يعني؟؟ ما هو أنا ممكن احب أسمهان الممرضة كمان، كل واحد حر مين يحب، بس مش ممكن أطاوع غالب الهبيله، هاذ شاعر.. بده يموت حاله تحت الترين، بكيفه، أنا بحب الحياة، مش مستاهله، كل البنات مش مسـتاهله، اللي بتروح بيجي أحسن منها. لكنه حباً بصاحبة ورأفة بحاله، وضع سبابته الدامية ليلتقي الدم بالدم وتعاهدا.

أنزور

خاطت الجدة شحرخان أول عباءة (شاقوا) له، لم يتصور أن الجدين يتوقعان ارتداءه العباءة الثقيلة في حفل (الوج) الذي سيقام في زفاف شقيقته جانيت، لكنهما كانا جادين وراحا يتحدثان عن تدريب مستمر كي يتمكن الولد من السيطرة على حركاته فلا يفقده وزن العباءة الجديدة المرتفعة الأكتاف المحشوة باللباد رشاقته وخفته عندما يتسيد الساحة بين الراقصين قافزاً على أطراف أصابعه، أو طائراً في الهواء ممرراً السيف الحديدي الكبير تحت ركبتيه، سيكون الزفاف المرتقب تحد له، وتبدو مشكلته في قصر الوقت المتاح للتدريب، فالمدرسة تصادر نصف النهار، والعصبة يصادرون ظهر اليوم، ثم لا بد له أن ينطلق إلى هوسه الكبير عندما يلتحق بجده تامبي يرقب منجله يجز السنابل الصفراء في جبل عمان، عندما يذرو القمح ويتطاير التبن في غمامة مشبعة برحيق جوف الأرض، سينظر أنزور إلى جسد جده طيفاً وراء الغمامة،كأنه قادم للتو من القفقاس، وسيخطر في باله أن يندفع في موجة الغمام التي تواصل تشكيلاتها بمواصلة الذراية، لو أنه يقفز فيها قد يجد نفسه على جبال (البروس) في قبردينيا حيث الوطن الذي جاء منه الأجداد، قد تحل فيه روح الفارس سوسروقه وهو يحاول سرقة النار ليصير نارتياً حكيماً، لكنه وبمجرد اختراقه الغمامة يبدأ في السعال ويصيح الجد تامبي:

– ولد.. مجنونه، اطلعي من الغبره، روحي تنفسي هوا.

يكتشف أنه ما زال هنا، في عمان، على رقعة من الأرض الزراعية بعيدة عن أعين الذين يترقبون الفسح والأمكنة الممكنة والمحتملة لبناء البيوت الجديدة، حمد الله أن أمه أقنعت أباه ببناء بيتهم الجديد في اللويبيدة، لقد كانت شبانور تعرف بأن الحزن سيقتل والدها لو أنها وتيمور انضما إلى فئة المعتدين على الأراضي الزراعية، لم يتخيل أنزور أبداً أن يوماً يأتي يحرمه

مــن مرافقة جده إلى الأرض، كان أول المنضمــين إلى فزعة الحصاد في أيار، يردد قولاً سمعه من عزمي، أول أيار اسحب منجلك وغار.

لا يمكن لتيمور أن يبدي انزعاجاً مباشــراً من تلك العلاقة الغريبة التي تربــط الفتى بجده، خاصة وأنه دائم الانشــغال عنه في مهام قصر الأمير، ما زال تيمور يراكــم النجم والدبابير فوق كتفيه وصدره حتى باتت رؤيته في الدرب أمراً يتطلب الوقوف والتحية، لم يعد ذلك الدركي البســيط الذي عارض عربة المزارع تامبي واختطف ابنته، لكنه الضابط الجدير بالاحترام والتوقــير، والــذي ظن أنه لم يعد مــن اللائق لعائلته الصغــيرة البقاء بين عائــلات الضباط في المحطة فارتحــل إلى اللويبيده، قريباً مــن منزل القائد فريدرك بيك، ليس لتيمــور أن يعترض على انصراف ولده أنزور إلى رفقه جده الطيب العظيم حافظ تاريخ الســلالة، ولكنه قد يمانع أحياناً، مرجعاً الأمــر إلى أهمية أن يحدد الفتى وقتاً أطول لدراســته، أما إذا كان لا بد من إبداء المشــاعر فانــه لن يتجاوز حدود الأدب مع حميه المزارع، ســيحاوره محتجاً على ســكناه مســتأجراً في بيت أم غالب، وقد يناقشه في أمر زراعة الخضار أو اســتبدال أحد الثيران الــتي تقود عربته القديمة القوية، ولكنه لــن يجرؤ على الاعتراض على دروس الرقــص التي يتكفل بها الجد كإرث لازم تجاه حفيده أنزور.

يمكن رؤيــة العجوز والفتى في ســهل القمح يتبــادلان الأدوار، تنضم جانيت وشــحر خــان إلى التدريب، يفرد العجــوز ذراعيه مثل جناحين، وينحــني بمقــدار داعياً الفتى للتقــدم، ويتحرك أنــزور تحت عيني جده محاذياً خطواته الراقصة المتســارعة، يدهشــه أن الرجــل الضخم العريض الكتفين، ســيطير في الهواء بمجرد أن تدفع شــحرخان صــدر الأكوردیون لإطلاق تنهدات ســريعة في إيقاع بهيج، ويصاب أنزور بالدهشة أكثر حين يكتشــف أن جسده فعل ذات فعل جسد جده، طارا معاً،ولخفته ارتفع فوق

الجد درجات، لوحا بالخنجر الفضي، ثم هبطا كنبيلين، وسارا بخفة فاردين صدريهما يوقعان ضرباً رتيباً على الأرض بمقدمة حذائيهما، وتتقدم جانيت بثوب (أديه فاشا) المقصب وخصرها النحيل مثل فراشة الحقل، وينتقل الإيقاع من رقصة (الششن) إلى رقصة (الزافكؤ) الحالمة، يمسك أنزور بكف شقيقته ويكاد يلاصقها، وإذا تحركت كحلم على أطراف أصابعها راح يتابعها كأنه يرعاها أو يرافقها رحلة عمر ما، يحلم بفتاة أخرى، الفتيات كثر ولكنه لا يعرف بآيهن عليه أن يحلم، ربما بحورية لا تجيء، عندما يرقص الشقيقان يسترخي تامبي، وينظر بفرح حريصاً على عدم إظهاره كاملاً حفظاً لوقار الدرس وللمسافة الموزونة بينه وبين الحفيد.

في ليالي الشتاء وإذا ما انصرفت شحرخان وابنتها شبانور إلى الحديث عما يجب أن تقدماه في حفل الزفاف من طعام (الشيبس والباسطة) وفطائر (الحلفا) المحشوة بالبطاطا، ومن شراب (الباخسمه)، وتهامستا فيما يجب شرحه (ل بشاش) الفتاة العذراء وهي في دربها لتصير (جواشه) امرأة مسؤولة، كانتا في ذات الوقت تخيطان ثوب جانيت المطرز بالأزهار وسط نقوش وتخاريم من الفضة، ثم تنتقلان إلى إنجاز خف جديد للفتى، تشدا كاوتشوك (المست) بمخرز كبير، في تلك الأمسيات يتمنى أنزور لو يعود طفلاً، يتذكر أنه في زمان مضى سُمح له أن يجلس على ركبتي جده، ولكن صوتاً جاداً أبعده مشيراً بأن الأمر لم يعد لائقاً، يخطر في باله أن يسأل الجد إذا ما كان يستطيع أن يجلس ذات الجلسة في غياب الأعين المراقبة، ولكنه يخاف السور الذي يبنيه الجد دون تردد بوقاره، والذي يغذيه والده بنفور مستتر لا يعرف له مبرراً، أحياناً يخطر بباله أن الرتب على كتف الأب والأوسمة على صدره تستخف بالفلاح، ولكنه بالمقابل، يعرف أن الفلاح وهو ينقل حصيلة البيدر إلى المطاحن يشعر بفخر كبير، ويتردد

كثيراً عندما يساق للافصاح عن مهنة صهره العسكري في قصر الأمير، انه نوع غريب من ازدراء خفي متبادل، واحترام معلن وتبجيل مزعوم.

لم يجلس أنزور على ركبتي جده القويتين، ولكنه قعد مقابله تماماً على كرسي من الصوف الخشن، ونوست جانيت المصباح بناءً على طلب الجدة، فماج صوت تامبي في أسماع الجالسين وقد حبسوا كما في كل مرة أنفاسهم، وظل خرير الماء والشاي في السماور النحاسي الكبير فوق موقد الفحم وحده يحدث وشّاً متقطعاً، وربما رجع انسكاب الشاي في الأكواب، يمزج تامبي بين الشركسية وعربية ركيكة:

- كان الدنيا هيش... شجر كثير ومي، وضباع، كان في اسود ونموره، في جرش فكرنا وصلنا عمان، شلحنا صرامينا.. دسنا أرض الطاهرة.. يا سبحان الله وصلنا دار الإسلام.. يا سبحان الله جينا مسلمين شهداء عند الله، الدين غالي، مثل العرض غالي، زي ما بقولوا العرب، شهور بالبر والبحر حاملين قرآن كبير بلغة شركس مش عرب، جوعانين، عطشانين، فرحانين، بس غربا، الدار غريبة ولو دار إسلام، نزلنا بعدها ع هيشة عمان، البدو قالوا مجانين، كيف نيجي جنب بعوض ورمد وملاريا وتيفويد، قلنا إحنا سمك ما نبعد عن المي، انتوا أهل صحرا واحنا اجينا من جبال الثلج، هون

يضع تامبي يده على صدره موقع القلب ويدقه مرتين:

- هون ساكن سوسروقه، سرق نار من الجبال وجابه للحكماء النارتيين، يعني، ما في حكمة بدون قوة وشباب، كيف الشجرة بتوقف؟؟ بجذر وفروع، فاهمه ولد انزور؟؟، لما اجينا هالبلاد، هذيك أيام حاربنا بدو وحاربونا، والسلطان الترك بساوي مثل ما قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، الأرض أرض الله، من زرع أرض صارت أرضه، واحنا عباد الله، زرعناها، حليت بعين البدو، الله لا يعيد هيك أيام، راحت، تحاربنا ميت

مرة، وتصالحنا ع مناسف وشيبس وباسطه، لقمة الرجال عهد شرف، وصارت البلاد بلادنا كمان، أول ما وصل الشابسوغ، سكنوا درج فرعون، هاي ساحة سليمان، ما دخل فرعون ولا سليمان فيها، بس هي من ملك كبير كبير.. تركها لشركس، لقيناها، سكنا فيها قبل ما نبني بيوتنا في نص الجزيرة، البدو في خيم، واحنا ببيوت الطين، بعدين أجوا قبرطاي وعمروا جامع طين، واجو أديغه، المفتى بنى بيت حجر بقرميد، الأمير ما عنده بيت، كان عنده خيمة مرسوم عليها هلال وزهرة، سكن في بيت المفتى وبعدين اجوا البرجاوية من لبنان، وبنوا قصر رغدان، قبله أمير كان ضيف الشركس، بعده صاروا حراسه، في القصر وع الحدود، عرب بقول في نواطير وقطاريز، إحنا نواطير المكان، حرسناه بالدين، وزرعناه قمح وشعير، أمير بحبنا، بس كمان بحب قطاريز، مين عارف شو في هون.

يدق صدره مجدداً :

– يمكن ما بحب حدا، كل واحد بقول أيوه، حاضر، بصير حلو، في عرب وشركس وناس من عراق وسوريا بصيروا قطاريز، بكل بشر وأمة في قطاريز، وفي قلب حر، أنا بظل نواطير، حر، حارس على ملك الله، مش ع قصر الأمير.

يظن أنزور أن هذا تعريض مستتر بوالده:

– في عرب وبدو ومدن عفش، شوف، أمير جاب معه ناس عفش، محملين على ظهر الخيل والبغال مثل صندوق الأواعي، شو هاذول؟؟ مش نواطير، مش قطاريز، مش ببنوا، ولا بزرعوا، ولا بحرسوا، هذول أواعي الأمير.. عفش، عفش، في ناس كثير بعمان اليوم مش مثل أول

يثبت تامبي القلبق فوق رأسه وينخفض صوته وهو ينهي الحكاية:

– ناس هذول خلق، خلق كثير، خلق مشان تعمر دنيا، خلق.

حكايات الجد تقنع أنزور بأنه فارس مختلف، يمكنه أن يتخيل بأنه

بطل الملحمة الكبيرة، أنه نارت الذي خرج من النار وتعمد بالماء إلا بقعة من جسده، كأنه أخيل الحضارات الأخرى، قصص الجد تمده بالزهو والتواضع في آن واحد، وواقع والده يمده بالشعور بالسطوة، تلك التي يخجل من إبرازها بمحضر جده، لم يحضر إلى بيت الجد ولو مرة واحدة راكباً الدراجة التي استوردت من ألمانيا خصيصاً له، قلة من أولاد عمان تمكنوا من اقتناء الدراجة، وكان عليه أن يذهب راجلاً إلى حقل الجد حتى لا ينظر إليه بعينين متهكمتين، كما يتفادى أنزور أخذ الدراجة في جولاته مع العصبة أيضاً، يخجل من امتلاكها في الوقت الذي يعرف أن عزمي يحار في كيفيه زيارة الجبيهة في إجازة أخر الأسبوع لتعذر المواصلات، يخجل من دراجته عندما يعلم بأن مروان حبس ليلة كاملة مربوطاً إلى السرير لأنه أضاع الكرة، يظن أن دراجته حائط بينه وبين أصحابه فيفقد الكثير من متعته بامتطائها، يسأله غالب:

- ليش ما بتجي بالبسكليت؟؟

يرد خجلاً متلعثماً:

- البسكليت زفت، عجاله بتتكسر عالطريق.

غالباً ما يحظى بجولة الدراجة في محيط ضيق حول المنزل، يركب عند الفجر هو وأبناء الجيران ممن اقتنوا البسكليت، يتحركون جماعة باتجاه بيت فرديدك بيك، وعند المنحدر، سيربطون وسيلة مواصلاتهم الراقية إلى جذع صفصافة قوي، ويواصلون السير، يتكئون على حائط المنزل ويسمعون رجع أنغام الموسيقى التي يوقعها نفر من موسيقات الجيش على القرب، ينفخون بقوة ألحاناً مرحة تليق بالفجر الندي، وعندما تنفتح بوابة الشرفة العلوية وتطل الاسكتلندية مبتسمة وقد فردت شعرها على كتفيها المتدثرين بشال صوفي، تتعلق عيون الأولاد إلى فوق، ويختلط النغم بالجمال البشري فوق الشرفة الهلالية، ويفوح رحيق قوي لشجرة الكولونيا

المزروعة في الحديقة، لا ينصرف الصغار حتى يوقع العازفون أخر نغمة من مزامـير القرب، عندها يمكن لأنزور وجيرانـه أن يعودوا إلى حيث ربطوا دراجاتهـم، يقودنها إلى المنازل، وينحدرون سـريعاً راجلين إلى مدرسـة الهاشمية، يقفون في الطابور المدرسي وينشدون بحماس وأوتار مشدودة..

سوريا يا ذات المجد.... والعزة في ماضي العهد

يقول أنزور:

– أنا شركسي، مسلم، سوري، عربي.

توافقه العصبة على ما يذهب إليه دون شك..

- سمعتي؟؟ اعتدال وهيام رايحات ع بيروت! !

- سمعت.. ارفعي راسك شوي، لا تسيح المي ع شعرك، انت يا شاطر ناولني بشكير.

تحرك مروان بصمت، لم يتوقع بأن أسمهان ستلحظه واقفاً في حجرة عمته المريضة، ظن أنه فقط من يراها، ولكنها فجأة وهي تضع الكمادة الباردة على رأس فايزة، خاطبته، هرع إلى حجرة أمه، أخرج منشفة نظيفة من صندوقها، وهمست الأم:

- بعدها ما راحت! ! والله ان اجه ابوك ولقانا بنأهل ونسهل بالست أسمهان بدارنا، غير يشحر عيشتنا، هي عمتك بس اللي بتدّلل، والله ما بيها اشي تا تودي تجيب هالعايبه هون.

لم يعرف ما الذي قد يغضب والده لو رأى الست أسمهان في بيتهم، ولماذا تصفها أمه بهذا النعت الشائن، ويعرف أن زيارتها تلك ليست السابقة الأولى، يقولون أنها جاءت يوم أصيب بالملاريا، وضعت كمادة شبيهة على رأسه ومسحت رأسه بأناملها، لكنه لا يتذكر (أخس ع هيك مخ) لعلها انحنت فوقه وابتسمت بكل هذا الود! ! لكنه لايتذكر..

حدس أسمهان يخبرها بأن فايزة مكتئبة وليست مريضة حقاً، تبدو منكسرة كما لم يحدث من قبل ومع ذلك تسأل:

_ رايحه عرس جانيت؟؟

_ ما حد عزمني.

- معقول! انتي جارتهم، مش بيتك فوق بيت جدها! يا عيب الشوم، الجار أكثر من أخ.

تبتسم أسمهان كأن الأمر لا يعنيها، لم تتوقع أن تتم دعوتها، كما أنها لا تجد في نفسها رغبة بحضور الأعراس، تفكر بأن تكون ذات نفع لفائزة تلك اللحظة بالذات، ما دامت تلك قد لجأت إليها، ولكنها أخفقت في ما

قصدته:

– ليش ما تروحي تفحصي بالمستشفى؟؟ كم عمرك يا فايزة؟

أخطأت، وأدركت سريعاً بأنها أثارت حنق المريضة بدلاً من مساعدتها، احتقن وجه فايزة، وانكسرت نظراتها، وتحشرج صوتها كأنها غضبت:

– شو بعرفني!! هو حدا بكتب ورق!!! يمكن قدك، هيك يعني، قدك، أصغر شوي.

تبتسم أسمهان مجدداً دون أن تناقش، من قدها؟؟

لأنها امرأة عاشقة يستحيل عليها حساب السنين والأيام، ولأنها معشوقة تظن أن ليس هناك من امرأة في جمالها في بر عمان، تعرف بأن الفاتنات معدودات، وأن خيالات الرجال تصنع من لابسات خمار الجورجيت حور عين، ولكنها لا تخفى حسنها المتواضع، تكشف عن وجهها ببساطة، حتى الأمير لا يمكنه الاعتراض، لا شك بأنها تخسر بسبب مهنتها بعض الاعتبارات، إلا أنها تجني أيضاً فوائد كثيرة، تبدأ بضرورة رفع النقاب عن الوجه المليح، وإن كانت تضع المنديل على رأسها أسوة بباقي النسوة وامتثالاً لأوامر الأمير، وتنتهي المزايا بقبول الآخرين رؤيتها تذرع الطرقات في ساعة متأخرة من الليل، وقد يصل الأمر بأن يدق أحدهم بابها، كما يحدث غالباً مع عبد الرزاق، وكما حدث هذا اليوم، عندما جاءها الفتى مروان ساعة المغيب طالباً مجيئها لمعاينة عمته، ولأنها تعرف أن نصائحها بزيارة الطبيب ستذهب أدراج الرياح فإنها تكتفي بالابتسام، وصنع الكمادات، وتقول مازحة:

– صحيح باب النجار مخلع.. ما عندكم ثلج!! خلي مروان يجيب شوية ثلج من محلكم، بلكي ببرد بدنك، بس الصحيح لازم تبطلي تفكير وهموم مشان يبرد راسك.

الغريب أن ملحم وصل ولما تغادر المرضة البيت بعد، فلم يحتج أو

يعــترض، بل بدا مهتماً بالحمى المفاجئة التي أصابت شــقيقته، وتـهامس مع أسمهان عند الباب:

- ما لها؟؟

- ولا اشي.. زهقانه.. سخنانه شوي، خذها، وديها، طلعّها، تشوف وجه ربها مثل الناس، إذا ظلت تعبانه لازم تشوف الحكيم، عن اذنكو.

- استني يوصلك مروان.. الدنيا ليلت..

- مشكور.. بس قدامي مشوار ثاني.. وأنا بحب أمشي بالليل.

خطر في بال ملحم تعبير بنت الليل، ولكنه استغفر ربه، تذكر المحامي فعــاوده الغضب من الممرضة الجريئة، لم تكن قــد ابتعدت إلا خطوات عن البيت، ارتد إلى زوجته صائحاً:

- مين أمر تدخل هالُنمر ع داري..؟؟

كانــت أسمهان قــد عانت من نـهار مرهــق في المختبر الحكومي، قضت نـهارها تراقب العجل الصغير الذي شــطب جســده وجرح في شــقوق عديدة ثم مســح بفيروس الجدري فراح جلــده يتقيح ويبقبق قبل أن يعمد الطبيب إلى ســحب اللقاح واعطاءها إياه لتحمله للدكتور تيزو، كما كانت قد تلقت طلباً مبكراً لزيارة زوجة العشــي ولكنـها نســيت الأمر مســاءً وذهبت مع الصبي لتواسي فايزة، وفي عتمة المغيب الموشاة بالحمرة الرائقة هبطت نزلة جبل القلعة، ذرعت الشارع مروراً بمحال تجارية عدل أصحابـها كوفياتـهم وطرابيشهم، طلبوا بأصوات مرتفعة بصة فحم مشتعلة من صبيانـهم ليذكوا نار النارجيلة، تمتموا بالأدعية، بعضهم مثل تقي الدين قال لها:

- مسا الخير عمي.

ما زال هناك طيبون، تذكرت زوجة العشي.

عندما وصلت بيت العشي في المحطة مساءً، شعرت بأن الأمر ليس على ما يرام، هتفت حماة المريضة:

- وين كنتي؟؟ من المغرب واحنا ما خلينا خزق ابره بندور عليكي، وين بتروحي يا قابرة اهلك؟؟ المره رايحه تموت..

رغم اللهجة العدائية والفضول المقيت إلا أنها لم تنتبه إلا إلى الخبر الذي يفيد خطورة الحالة.

- هاي رايحه تلد، ليش ما وديتوا تجيبوا الداية؟؟

- ودينا.. قالوا الثانية طالعه عالسلط، يا بنيتي ساعديها، المره تعبانه.

انقلبت اللهجة توسلاً ورجاءً، وأسمهان تخاف من هذه الحالات، ما زالت نصائح الطبيب تيزو في أذنيها، لكل مهنة اختصاص، لا يجوز خلط الأوراق، والمطلوب الآن أن تتحول إلى داية لامرأة تكثر من الصياح وتمزق كل ما تطاله كفيها.

- وين أمها؟؟

- بالشام.. ما اجتش.. هسه إحنا بأمها وإلا بالولّادة؟؟

- يا خاله تجيبي لنا ميه سخنه، اغليها مليح..

شعرت أسمهان أن عليها إخراج الحماة المزعجة من الحجرة، وإمساك كفي المرأة المتألمة وربما هدهدتها قليلاً، ولكن النجدة كانت قد وصلت باب الدار، أعلنت الحماة بفخر:

- الحمد لله، الحمد لله، وصلت الداية، وصلت.

بسرعة وكياسة تنحت أسمهان عن موقعها، وتقدمت المرأة الخبيرة التي التقطت كل أطفال عمان على كفيها لحظة دخولهم الدنيا، بما فيهم الأمير الصغير، الحسين بن طلال قبل عامين، قالت وهي تعاين وجه المريضة:

- مسا الخير أسمهان.

ابتسمت أسمهان بامتنان للمرأة التي ذكرت اسمها بكل هذا الود.

- لازمك أشي..؟ بقدر أساعد بأشي.

أجابت الداية أنيســة المعشــر بدماثة وهي تنحي أسمهان عن المهمة في ذات الوقت:

- تسلمي، يا أهل الدار، هاتوا المي السخنة.

انســحبت أسمهان إلى عتمة المســاء العماني، الغيم ينذر بالمطر، وهي تتخيل كيف ســتقوم الداية الخبيرة بلف قماط المولود بعد تمليحه ومسحه بالزيت، لا شك بأن جدته ستحرص على تكحيله بالأثمد الأصلي، ابتسمت مجدداً، وكأنها أكثرت من الابتسام هذا المساء.

لكـن تلـك الابتسـامـة الأخيـرة أثـارت غيظ الضابـط الـذي امتطـى حصانـه قادمـاً مـن قصـر الأمير متوجهـاً إلى بيتـه فـي اللوبيـدة، لمح رغـم العتمـة شفتيهـا تفتـران عـن فرحتهـا في نـفس اللحظـة التـي لمع بها برق في الســماء، كأن تيمور تذكرها، وغاضه بأن المرأة العزباء الوحيدة متجهة الآن إلى العلية حيث تقطـن، بالتحديد فوق بيت حماه تامبي، لكز الرجل حصانه، وعفر الطريق وهو يتخطاها.

أول الغيث قطر، ثم ينهمر، يدخل الشتاء لافحاً المدينة برودة محببة، ولكنه سيتوحش خلال أيام، تستمع أسمهان إلى إشاعات ترجح أن المحامي ســيذهب إلى الســلط ليتزوج ابنة عمه، قلبها حزين، ولكن المطر ســيواصل الانهمــار، تمر بشــارع الرضا مثل طفلــة أضاعت قرطهــا، الرجال الذين تراجعوا داخل الدكاكين تحسباً لرش المطر، فتحوا لعبة الطاولة بين أكداس الأقمشة وتهامسوا:

- طيب ما يتجوزها!! وين المشكلة؟؟

علق ملحم وهو يرتب أحجار الطاولة:

- هي مشــكلته أسمهان بس!! هاذ مشنشــل مشاكل من راسه لساسه، بــوكل البيضة وقشــرتها وبقول جوعــان، ما كل النــاس عارفه انه بخبي الثوار

لم يربــط الحاضرون بين بائع الزيتــون والمحامي، لكنهم تذكروا صلة القرابة بعد أن انبرى مكرم للدفاع عن ابن عمته:

- ســبعك من زلمة ناكت، ولك هو تخباية الثوار عز وإلا نقيصة؟؟ له يا حيف عالزلم!! بس عيب على اللي بسمعوا لك.

تعارك الرجلان بالأيدي، وضحك مسعد مبتهجاً:

- اجاك مين يعرفك يا بلوط.

لم تتعــد أصداء المشــادة باب الــدكان وتدخل الرجــال جادين وراحت القبلات تفرقع على رأســي المتشادين، فلوى مسعد شفتيه وهز رأسه أسفاً، ويمم صوب درب الحوريات.

رشــرش المطر متقطعاً، ولأن أصحاب الدكاكــين ركبوا مزاريب معدنيةً تنحدر مخلفاتها إلى الســاحة خلف الدكاكين فــان صوتاً من نقرات خفيفة وسيلان أوحى ببكاء متواصل.

حركة المقهى في كركبة، مقاعد تســحب، طاولات اللعب تغلق، الأقدام تتســابق عند الباب، ويســمع لإغلاق الأبواب الخشــبية أزيــز في حين أن الأبواب المعدنية الحديثة تصدر ضجيجاً وهي تسقط مغلقة الدكاكين، تعود أسمهان على الدرب ذاتها، وكأنها لا ترى أحداً من المتدافعين من الدكاكين والمقاهي، تبدو بعيدة تماماً، المطر وحده يعرف بماذا تفكر أسمهان، بالشتاء الذي يغمرها في عز الصيف، عندما يتحول ســريرها إلى فرن، ويحترقان، عندما تتبلل الشراشف ويختلط عرقهما، وعندما يشتي وجهه فوق وجهها فتسبل أجفانها وقطرات العرق تنقط في عينيها، وترشرش وجهها، تتذوق ماءه مالحاً وحلواً.

واصلت الابتســام وكأنها نســيت أن تعاود التجهم المطلوب في الشارع، عندما يكون المساء ندياً مبللاً كهذا، تنخلع من الزمان وتعود إلى قبل أعوام، في تلك الليلة الشتائية التي غلبها فيها النوم ولم تصحُ إلا على حديث متقطع

بين تامبي جارها في الطابق الأول ورجل، سمعت تامبي يقول

– دكتوره برنل في اللندن، فوق في أسمهان، ممرضة.

بعد لحظات كانت أخشــاب السلم الذي يقود إلى بابها تصدر حشرجة خفيفــة بفعل ارتخاء المفاصل الحديدية، وسمعت دقة واحدة بالباب، عدل المحامــي عبد الرزاق من وضع عقاله فــور ظهورها، بدا مرتبكاً حائراً، لم يرفع عينيه لرؤيتها وشرح الحالة متلجلجاً:

– أمي تعبانــه، يعني إذا بتتكرمي علينا، بتشــوفيها، أنا كنت بدي أجيب الدكتورة الانكليزيه بس..

قاطعته وهــي ترتد إلى الداخل، ربما تناولت البالطو الأبيض، وشــالاً صوفياً، والحقيبة:

– برنل راحت تقضي الكريســماس ببلدها، شــو مالها الوالدة؟ يعني، مشان أعرف شو أجيب معي؟؟

– ما بعرف، بتصيح من بطنها، والعفو، عندها إمساك من أيام، والعفو منك، مش راضية تنكشف ع دكتور، وإلا كنت وديتها المستشفى.

وضعت ســطل وبربيش الحقنة الشــرجية في كيس، حملته وحقيبتها الكبيرة، ثم وقفت جاهزة للمضــي معه، تراجع خطوتين، عبرت وأغلقت بابها وراءها، ســبقها علــى الدرجات التي تحشــرجت بعنف تحت ثقل خطواتــه المتعجلة، انتبهت شــحرخان فشــقت باب شــقتها بفضول لدى مرورهما به ثم أغلقته، وتابعت أسمهان سيرها خلف المحامي.

جهــدت للحاق به، بــدا لو أنه هارب منهــا، وأزعجها هذا الخاطر، لكنها قدرت لهفته على أمه، لم تتسن لها الفرصة لتلفت انتباهه إلى القمر الذي يمر سريعاً مداعباً الغيمات المتحركة في قبة السماء، وكأن وعداً بالمطر يكمــن وراء تلك الــبرودة، أرادت أن تقول له أن هواء الليــل البارد عليل منعش،كيف يخطر ببالها أن تتحدث مع رجل عن القمر يلعب في الفضاء،

أو عن نســائم الليل! ! لم تكن هناك فرصة أساساً للحديث، سبقها على سلم بيتــه، وتعثرت وراءه مرتين دون أن يلتفت، حتى في البيت الصغير حيث المريضة ممددة على بساط صوفي تتأوه وتشتكي انفجاراً يقطع مصارينها، لم يتحدثا فعلياً، انتشت لشدة ارتباكه، كان يتحرك بين يديها كطفل جاهل، وكانت وهي تهيئ لصنع الحقنة، تبتسم وترسل بالأوامر المتوالية مستمتعة بمقدار العجلة والاضطراب اللذين يحركانه كأخرق:

- بدي بكرج مي سخنة.. صابونة وسكين.. صابونة نابلسية.

- ليش؟؟

لا تفســر له، وتكتفي بالابتســام فيكتفي، تلتقط الصابونة من يده دون ملامســتها، وتبدأ في برش لوح الصابون المربع على حد الســكين في طاســة الحقنة:

- شوية زيت.. زيت زيتون.

تضيف الزيت بحدود، تحرك المزيج، وتبتسم مجدداً، وتقول بثقة كما يفعل الأطباء:

- تفضل ارتاح بره.

عندمــا خرج عبد الــرزاق إلى حجرة الاســتقبال، ظلت الابتســامة في مخيلته، وسمع تأوهات أمه وصوت أسمهان الرائق يطمئنها:

- ما تخافي يا حجه، ثواني وبترتاحي، توكلي ع الله.

خيــل إليه أن لصوتها خرير ماء، تنبه تلك اللحظة إلى ارتباكه وســوء هيئتــه أمام الصبية التي بدت مســيطرة رزينة في حين بــدا خائفاً قلقاً، لم تخرج أسمهان من حجرة الأم إلا وقد أنجزت مهمتها.

- بكــره جيب للوالده ملح انجليزي من الصيدليه، بســاعدها في الهضم يعني.

راحت دعوات أمه تلاحقها وكأنها نجت من موت محقق:

- روحـــي الله يفتحها بوجهــك، يريحك مثل ما ريحتيني، تدعســي عاليابس يصير أخضر.

هل داســت ليلتها على اليابس فأزهرت الدنيا خضراء؟؟ أمســك بكفها اليمنى وهما يهبطان درج بيته الضيق، قال هامساً:

- الدرجات مكسرة، بتقعي بالعتمة.

لم يتركها تعود إلى عليتها وحيدة، قال إنّ الليل تقدم، وسارا في شوارع عمان الخالية الهادئة، لم يكونا على عجل، رغم استمتاعه بالصمت إلا أنه قدر أن عليه قطعه، قال انه يعمل في المحكمة فضحكت، في ضحكتها أيضاً خرير ماء.

- بعرف.

- وأنا بعرف، انتي بالمستشفى الطلياني.

ليل عمــان كان يعرف، النســيم المعطــر وهويداعــب وجهيهما، كان يعرف، لم يســبقها في طريق العودة، سارا ســوية كمتنــزهين، نبهـها إلى أن هناك عسكرياً في ثياب مدنية يلحق بهما محافظاً على مسافة ثابتة بينه وبينهما، قالت:

- عادي.

- مش خايفه؟؟

- ليش؟؟ في أشي بخوف؟؟

راح يشــرح لها التوتر الحادث بين العســكر والإنجليز وحزب اللجنة الوطنيـــة الذي ينـتمي إليه، حدثها عن أناس يبيعون الأرض لليهود، وعن تجار يتعاملون مع الصهاينة، وعن ترتيبات تجري لإقامة معرض اقتصادي عربي يرد على مؤتمر الفئة الأخرى، أفاض بالشــرح عن تهديدات يتلقاها هــو وأصحابه، وتهديدات أكثر خطورة يتلقاها الطبيب صبحي ابو غنيمة، ابتسمت قائلة:

– طيب، انت اللي لازم تخاف مش أنا، يعني أنا حيالله ممرضة بتغز إبر.

– بس ماشيه معي بهالليل..

– بـدك تخوفني؟؟ مش خايفه، وإذا بقدر أسـاعدكم باشـي ما عندي مانع.

– الله يحيك، بس هالشغل بده قناعه.

– ومين قال ما عندي قناعة؟؟

– انت بتخوفي ما بتخافي..

رق النسـيم وتعطر فجأة، وكأن صوته أيضاً صار همسـاً، سـار الصمت رفيقهما بقية الطريق، عندما صعدت درج العلية لم تتدافع القطط مسـتبقة الأقدام، ولم تشـق شـحرخان بابها، وتبع المحامي أسمهان حتى الدرجة الثانيـة فقط، كانت تتقدمـه على الدرجة الثالثة، هناك سمعت أنفاسـها وأنفاسـه، ورأت نبتة المجنونة التي زرعتها الدكتورة برنل فتماوج لونها الليلكي في عينيها رغم العتمة قبل أن تغمض جفنيها وتتلقى قبلته، لم تكن متأكدة إذا ما كانت كفه ضغطت نهدها بلطف حذر أيضاً، ولكن فزعاً مفاجئاً دفع المحامي ليهبط الدرج مسرعاً بخطوات سحرية تحرص أن لا يأز خشب الدرج، ليلتها أيقنت أسمهان بأن المجنونة جنت على الدرابزين.

زارهـا بعد يومين حاملاً كيسـاً من البرتقال، وزجاجـة عطر، أخرج الزجاجة متردداً:

– كل عام وانتي بخير.

انه الكريسماس، عالجا مشاعرهما بالصمت قبل أن يجرؤ على التلطف معها:

– أمي ودت البرتقال، بتدعي لك.

– كيفها هلا؟؟

- منيحـــة.. بس أنا لأ! ! قلبي تعبـــان.. يعني.. انتي بتداوي من جال وبتجرحي من جال.

سمعت أسمهان هذا الغزل مراراً، قبل أيام فقط كان عرار الشاعر يقوله لها قصيداً وهو يتمارض ويتمطى على فراش المستشفى، ولم تصدقه، عادة لا تصدق اللغو الجميل الذي يتأجج على ألسنة المرضى وأقاربهم الأصحاء وهم يعودونهم، الآن أيضاً لم تصدق، ولكنها وبرغبة غامضة أدركت أنها تحب أن تصدق، وأن عليها أن توصل المحامي الذي يغازلها على خجل إلى الحالة التي يصدق هو نفسه بأن قلبه أصيب، وأنه يحب، هذا الرجل سيهيم بها، تعلم ذلك علم اليقين، لأنها ومنذ تلك اللحظة تعرف أنها عاشقة.

لم تكن أسمهان مجرد طيف عابر في طرقات المدينة، لصباها حضور لافت وبهاء خـــاص، وهي واحدة من قلائل يكتفين بالتنـــورة والبلوزة والصندل رداءً، ليس في خزانتها إلا الفســـاتين والتنانـــير الحديثة ولديها مريولان أبيضان من لزوميات المهنة، ملابســـها في المجمل محتشمة، عدا ثوب نوم أحمر، لكن احتشامها لا يصل إلى حد ارتداء الترواك وغطاء الوجه، تجرؤ أسمهان على رفع المنديل عن رأسها والسير حاسرة عن شعرها القصير الذي بالـــكاد يصل كتفيها، يبدو لونها الحنطي سمـــاراً محبباً في الصيف وبياضاً معقولاً في الشـــتاء، تقول النساء إنها لا يمكن أن تعد من الجميلات، ويقول الرجال أنها مليحة بما فيه الكفاية، كفاية لماذا؟؟

أسمهان لا تعرف عن أحلام الرجال الكثير، هم أنفســـهم يفاجئون بما تختـــزن ضمائرهم البريئـــة، لا يعرفون من أين تأتي الوســـاوس، بعضهم بات يخجـل لدى مرورها لأن حادثة القطط كشـــفت لهفات حارة خبيئـــة، والعلية التي تقطنها المرضـــة مروراً بالـدرج الخشـــبـي كانت موقعاً مفضلاً للهـــررة، صـوت المواء المتقطع وفوضـى شـــباط تصـــل إلى حجرتها برتابة تدهشـــها، لكن الأوقات الحرجة التي تعود فيهـــا من عملها أوقعت بينها

وبــين القطط عــداءً أبدياً، بالتحديد القط المرقط الشــرس الذي ترك أثاره في معظــم القطط الوليدة مؤخراً، لعل الدكتورة الإنجليزية كانت تدللــه فتترك لــه بقايا أفخاذ الدجاج المســلوق على الدرجة الأولى الــتي تقود إلى العلية، ورغم أن الأمر أزعج أسمهان إلا أنها لم تحدث الدكتورة بالأمر، تركت أمر نظافة البناء للســيدة الأقوى شحرخان التي غضبت لترك هذه القاذورات في أعلى بيتها، فانتقلت الدكتورة لتدليل القط تحت شــجرة المجنونة مدركة أن وارف الشــجرة كفيل بإخفاء القط الفحل وهــو يتناول طعامه أو يختلي بالقطة الشــامية الناعمة البيضاء، لكن أسمهان اصطدمت بالقط وهي تدخل منزلها، لعله كان نائماً في مكانه المفضل، الدرجة الأولى للعلية، ومع انعدام الرؤية داســت بصندلها الصيفي ذيله أو خاصرته، أطلق القط شخير الوجع ثم انقلب تحت قدمها وأنشب أظافره في لحمها، ولأنها شدت قدمها مطلقة صيحة المفاجئة والرعب معاً، فان أظافره شــحطت جلدها من منتصف بطة القدم حتى أســفل الكاحل قبل أن ينفلت القــط مبتعداً محتمياً بالمجنونة، سمــت ذلك اليوم يوم عقدتها الأزلية، وصــار لزاماً عليها كلما اقتربت من العلية أن تهتف محذرة:

– بس.. بس... بسبس

فتخلى القطط الطريق، لكن القطط كشــفت عن ذئاب في ثياب حملان، في يوم ربيعي اندفعت أسمهان إلى العلية حاملة شــيئاً من المشــتريات فتركت بابهــا مفتوحاً وفي ثوان أدركت أن الهر المرقــط تبعها ودخل بيتها ووقف في منتصــف الحجرة يبادلها النظرات، كأنما أصابها الشــلل لحظة وما أن شــعرت بقدرتها على الحركة حتى انفلتت إلى حجرتها الداخلية وأوصدت بابها ترتعش، الآن القط يســيطر على صالة منزلها وهي حبيسة الحجرة، حاولت أن تســتهين برعبها، أن تصدر بعــض الأصوات عل القط ينصرف، لكنهــا كانت تســمع صوت عبثــه بالأكياس التي جلبتهــا معها، إذن قفز

المرعب فوق طاولتها الصغيرة المستديرة، لم تفكر أسمهان كثيراً وهي تفتح نافذتها وتنظر إلى الأسفل، صادف مرور ملحم، ترددت لثوان ثم لوحت له بهمهة متوجسة، رفع الرجل رأسه حائراً وأرتبك، لوحت للمرة الثانية مشيرة إلى ترحيبها بصعوده، أشار بكفه إلى صدره متسائلاً - أنا!!!

هزت رأسها إيجاباً، المهم في هذه اللحظة أن يصعد أحدهم ويخرج القط من العلية، ولأن ملحم رفع كوفيته وراح يمرر كفه بحبور أبله فوق خصلات شعره الدبقة، فان أسمهان غاضها هذا التردد، وقد مر في تلك اللحظة الحاج تقي الدين،لم تتمكن من ادراك ما إذا كان قد لمحها تستدعي ملحم!! أغلقت النافذة وانتقلت إلى النافذة الأخرى، من هناك كان بإمكانها أن ترى الحاج تامبي يتأهب للصعود وقد أغلق المخزن السفلي، لعلها تذكرت شحرخان فهمست:

- حاج.. حاج.

ثم أشارت بيدها وتلفت الحاج مندهشاً متردداً.. ثم راح يسابق خطواته باتجاه الأعلى.

عند أول العلية كان بإمكان ثلاثة من الرجال المرتبكين الملتاعين أن يلمسوا ما في عميق ضمائرهم، وقد تقلبت ألوان وجوههم وهم يلتقون ثم يتساءلون ببراءة، قال ملحم:

- شو مالها، يمكن صاير عندها حريق!!

كانوا قد وصلوا بابها المفتوح والحريق في صدورهم، فشاهدوا القط يقف منتصراً أعلى الطاولة، وإذ سمعت أصواتهم من مخبأها جاء صوتها راجياً من وراء الباب:

- الله يخليك تتطلع البس، أنا بخاف من البسس.

تضاحك الرجال ساخرين منها، وتحرك الشجعان حول القط في التفاف أثار خوفه، قفز الهر وفر مسرعاً نحو الباب، عندها قال تامبي:

- هيه راح، اطلع.. لا تخاف.. يا بنتي.

شكرت أسمهان الرجال الثلاثة على مهمة الإنقاذ السريعة وأغلقت بابها خلفهم مودعة، وقد سمعت ليلتها صياحاً متقطعاً لشحرخان الغاضبة قادم من منزل تامبي، ولكنها لم تعرف أبداً البرزخ بين الجنة والنار الذي عبره الرجال الثلاثة منذ لحظة الاستدعاء الغامضة حتى لحظة رؤية عيني القط المتحدية.

بعد الليلة التي مرضت فيها فايزة، لم يسترع انتباه أسمهان وقوف حصان الضابط تيمور في باب مسكنها، ظنت أنه من الطبيعي أن يزور الرجل أهل زوجته، لم تتصور بأن الحديث يدور حولها

قال تيمور للشيخ تامبي:

- جانيت قربت تتزوج، بكره هاي فضيحة أسمهان بتصير في وجهك ووجهي، وبعدين انتي شو بتعرفي؟؟ بتعرفي إذا كان هذا محامي بيجي هون تعريص، وإلا بجيب ثوار والا منشورات؟؟ بكرة بساوي مصيبة هون، بتخرب ع البنت، عريس جاني بهرب

- ما إلنا علاقه بأسمهان، هي مش من أهلنا!! أنا ما بقدر قول لمره وحداني مسكين، روحي شوفي بيت تاني.

- انت شوف بيت تاني، ارحل من هالسكنة التعبانة..

لم يعتد الشيخ تامبي التدخل المباشر من تيمور في شأن يخصه، عدا عن إصدار الأوامر، لم يكن تامبي قادراً على مغادرة المنزل، ويعلم بأن نسيبه غاضب كونه ما زال يسكن بالأجرة في بيت نجمة في الوقت الذي بنى فيه معظم الشركس بيوتهم الخاصة، من المؤكد أن وضع النسيب وبيته المتواضع وعربته القديمة تشعر الضابط صاحب البيت الحجري الفاره في اللويبدة بالحرج، هناك أفكار لن يتصارحا بها، ولكن التفافة تيمور لم ترق للشيخ، لم يناقش تامبي قصر إمكانياته المادية مع أحد ولن يسمح

بالاستهانة به لفقره، كما أنه ظن أنّ على زوج ابنته أن يعامله باحترام أكبر، وأن لا يفتعل الحجج للتدخل في مسار حياته، أراد أن يذكره بنفسه عندما عشق لمعان وأخذها إلى بيته ليسميها شبانور، لكنه أمسك، كانت مسألة إقحام اسم جانيت الحفيدة المدللة أمراً فوق طاقة العجوز، خاصة أن شحرخان أيدت الأمر مشيرة إلى أن أنسبائهم الجدد لن يروق لهم سكنى جد العروس إلى جوار الممرضة العاشقة، يظن تامبي أنّ هناك أموراً جوهرية تغيب عن شحرخان، إنها امرأة طيبة ولكنها منشغلة بجيرانها من النسوة العازبات الوحيدات أكثر من اللازم، أتغار عليه وقد ابيضت لحيته!! ليلة طويلة وتامبي يقلب الأمر على كل جنب، وفجأة وجد نفسه منحازاً للعشق، لن يترك البيت الذي يحظى فيه بمخزن لعربته وثوريه، ولن يجرح الممرضة الودودة الدائمة الابتسام بكلمة، لكن حديثه سيكون مع المحامي.

أعدت الحجة فضية القهوة السادة للرجال الذين تزاحموا في صالة الاستقبال الصغيرة، نادت ولدها وحملته الفناجين الصغيرة والدلة، أوشك الفضول أن يوقفها وراء الباب متلصصة على الحديث الذي جاء بالرجال في هذه الزيارة المريبة، ولكنها غالبت نفسها واعتكفت في حجرتها، استمع عبد الرزاق بهدوء ظاهري، تقلب بين الغضب والاستحسان، أزعجه أن يحضر العجوز تامبي إلى بيته مصطحباً مكرم السلطي والحج تقي الدين، والمحامي الصليبي، وملحم التاجر، والشيخ الشنقيطي، بدا الأمر مؤامرة على إرادته الحرة، فأمر اقترانه أمر يخصه وحده، وعندما فكر بالزواج بصورة عابرة حين كانت أمه تزين له سجايا ابنة خاله التي يذكرها طفلة، لم تخطر أسمهان على باله، كان أمرها مختلفاً، أسمهان للحب، يحبها من أعماقه وبكل جوارحه، أما الزواج فأمر مختلف، لماذا يعتقد هؤلاء عكس ذلك؟؟

- هاي نصرانية يا سيدنا الشيخ..

- وشو عليه؟؟ كلنا عبيد الله..

ساد صمت ثقيل، فجأة أحس المحامي بالخجل من قلبه الذي قرصه بحده وهو يتذكر اللمسات الحانية في لحظات العشق المقدس، استصغر نفسه فجأة، حاول أن يتذكر مزاياه وأنه كان أحد الداعين للمؤتمر الاقتصادي وأحد الذين يحاربون محاولات الإنجليز لفرض التسلل الصهيوني إلى البلاد، حاول أن يرى وجه المناضل في المرآة كي يسامح ويغفر لنفسه لحظة النذالة تلك، ولكن وجه أسمهان كان أكثر حضوراً، تخيلها حزينة منبوذة، فالتاع فؤاده، يحبها..يعرف ذلك دون شك، أما كان الأجدى به لو طلبها للزواج دون أن يدفعه أحد لهذا، أنها حبيبته على كل حال، ولم يرحمه ابن خاله مكرم، تحدث بعدائية غير مفهومة، بدت فضيلة في نظر الرجال.

- لويش المغمغة يا عبد الرزاق، انت زلمه طول عمرنا بنحلف باسمك، مش عشقانها؟؟ كل الناس بتعرف، يعني يوم عشقتها وقمت تخمخم حواليها، ما قلت نصرانية، والزلمه الطيب بقولك، الناس بدهم يتركوا البنت عمنه ساكن جنب الست أسمهان، هذول شركس عقلهم هيك،كيف بترضى تخرب ع بنت بريئة!! وبعدين تعال.. والله عليّ النعمة أسمهان ما بيها عيبه، مره حره وبترفع الراس، أي هو مشان حبتك، بتبيع وتشتري بيها!! عيب.

تدخل الصليبي مخففاً من حدة اللهجة المتصعدة في كلمات مكرم:

- يا اخوي يا عبد، البنت صحيح ما إلها أهل هون، بس هاي دخلت كل بيت، كلنا أهلها، وما بصير تظل رايح جاي عليها، عمان ما بتتحمل هيك قصص، وبعدين اللي بحب بده يوصل حبيبه وإلا كيف؟؟

- ما قلت اشي، بس تقنعوها، بخاف الكنيسة يزعلوا.

- إحنا بنروح نخطبها من تيزو، من الأب جريس الساحوري، مش

مشكلة، بس انت قول أيوه.

غضبت الأخت ماري روز، وغضب الأب الساحوري، ولكن عقد القران تم بهدوء تام، الفوضى الوحيدة كانت في قلب العاشقين، بين الفرح والحيرة، والسعادة والحزن، قبلا القرار العام القاضي باقترانهما، وعندما وقفت أسمهان بين يدي القاضي هامسة (أشهد أن لا اله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله) كانت تعرف أن المسيح الغفور الرحيم في قلبها أيضاً، ولكنها أقدمت على تغيير دينها إرضاءً لحماتها.

أما الحجة فضية التي تعهدت بأمر نشر خبر إسلام كنتها الجديدة بهمة، فقد سافرت إلى الشام وعادت بحجرة نوم مطعمة بالصدف، وطقم صحون صيني، ودزينتين من الكاسات الزجاجية الفاخرة، وشرشف عرايس ستان محلى بالاورجندا، وكردان ذهبي، وقمصان نوم برلون جديدة وبيجاما اغباني للمحامي، لم تفرح أسمهان بالجهاز الذي ما جرؤت أن تحلم به سابقاً، داهمها شعور مفاجئ باليتم لأن أحدا لم يتذكر الفستان الأبيض، فابتاعت بنقودها الخاصة قطعة روزا بيضاء من متجر الحاج تقي الدين، وخاطتها لها المدام في يوم واحد تاركة كل ما كانت تعمل به، لترتدي أسمهان فستانها في احتفال متواضع لا يمكن أن يسمى عرساً ولكن وليمة كثر فيها الأرز واللحم، وغابت النساء، وشد الصحاب على أيدي العروسين، وأعلن فيها تامبي عن مبلغ سعادته لأنه سيعود إلى البيت دون أن تعتليه المشاكل، أما العروسان فقد أوصدا بابهما.

لماذا كل هذا الحرج؟؟

من أين تأتي تلك الغربة؟ أهو خجل العذارى، أهو الثوب الأبيض؟؟ هل هناك شيء من العتاب يختفي وراء نظرات العاشقين اللذين كانا يعرفان بعضهما حق المعرفة، عندما كان يتسلل خلسة إليها، وبمجرد سماعه خشب الدرج يأز تحت أقدامه كان الشوق لا يمهله، يضمها بقسوة

تــارة وحنان تارة، ويذهبان في الوجد حتى يتوقفا قبل نـهاية الرحلة، الآن والبــاب الموصد ميثاق شــرعي على لقائهما، يتحركان شــبحين ضائعين في الحجرة، تـهمس:

– تعبانة..

– بتحبي ترتاحي الليلة.. نامي..

فوق فراش الزوجية الصوفي وعلى سرير مطعم بالصدف تجاورا، تلامسا بحــذر دون عناق، ثم ناما، ماذا حدث؟ أين طارت الأشــواق؟ لماذا تـهالكت الأحلام عندما صارت مشروعة متاحة؟؟

في الصبــاح الباكــر ظنت أسمهان أنها تســمع همســاً بين عبــد الرزاق وأمه،وتأملت حسنها الحزين في المرآة، هناك ابتسامة لا بد من استعادتـها، هناك ألق لا بد من إشــعال ناره مجدداً، هناك خسارة لا بد من تعويضها، وهي تعرف أن هذه مهمتها، على الأقل الليلة القادمة، وكما قالت لنفسها أول ليلــة حب، هذا الرجل ســيقع في غرامي، قالت هذه المــرة أيضاً، هذا الرجل ســيقع في غرامي ثانياً وثالثاً ورابعــاً، إلى ما لا نـهاية، وحتى آخر العمــر، يجب أن يحدث هــذا، وإلا فان الفرح لن يعــرف طريقه إلى قلبي مجدداً.

فقدت أسمهان عذريتها في الليلة التالية.

حديث القطار

تشك.. تشك.. شك..شك.

بصيحات جريئة أعلن عن وجودي في المكان، عن حركتي، عني، وأنفث دخان الفحم المحترق في أحشائي، تخرج غيمات رمادية وسوداء كثيفة، تتبدد كلما رفعها الهواء، يتصاعد الدخان أعلى التل الذي أتمدد في منتصفه، يشحبر واجهة المعسكر والمطار الإنجليزي، ينحدر صوتي حيث براكسات الجيش الأردني الزنك في قعر الوادي، يرتطم بالزنك ويرتد مرتفعاً مصلصلاً في الأفق، الحرارة المبثوثة بفعل احتراق الفحم الحجري والحركة تصل إلى نزل المهندسين والمساحين الألمان على يمين مدخل المحطة، وأنا في موقعي رابض كالتنين.

الإنجليز فوقي، دائماً يختارون النقاط المعتلية كأنهم في حرب لا تتوقف، يراقبون مثل شياطين الليل حركة المدينة، هؤلاء، نقلوا اسمي (الترين) إلى اللسان العربي.

المهندسون والخبراء الألمان في مبنى إلى يساري، بحكم تعاملهم المسبق مع الإدارة العثمانية ومعرفتهم لأسرار الخط الحجازي، فإن هؤلاء اختاروا سمك وعرض الحديد في القضبان وفق المواصفات الفرنسية تقيداً وتمشياً مع واقع الخط في أعالي الجبال التركية.

المواطنون تحتي مباشرة،هؤلاء، يسمونني البابور، كل ما ينفث طاقة هو بابور، تيمناً ببابور الكاز الذي يطهون فوقه أطعمتهم، وبابور المطحنة الذي يصير قمحهم دقيقاً، ويصر المتعلمون على اسم يحمل دلالة عربية، القطار.

في مواجهتي قصر رغدان، مسيج بمعسكر الجيش، وفي تاريخي أحلام الأتراك في الوصول إلى مكة، قبل انهيار الكيان العملاق المريض، في الواقع ليس سهلاً أن أنسى أن وجودي في هذه البقعة من الأرض كان بنقود المسلمين

من كل حـــدب وصوب، دفع الأندونسـيون وأبناء حيدر أبــاد إبان الإدارة العثمانيــة تكلفــتي، ، كذلك، أرادوا أن يمنحوا بركة مســاعدة المسـلمين علــى اختصار الطريق من دمشـــق إلى مكة، من شـــهرين راكبـــين القوافل، إلى خمس وخمســين ســاعة جالســين على المقاعد، إنها عبادة أقبل عليها المسلمون بحبور، طلباً للحسنات ومرضاة الله، لكنهم لم يركبوني قط، لأني لم أصل مكة مطلقاً، عارض أمير مكة الشريف حسين دربي خوفاً على رزق الجماليين ورعاة القوافل الذين اعتادوا تأجير ابلهم للحجاج وتقاضي تعرفة على العابرين يســمونها حرة، كنت منافســاً خطيراً لعتــاة البادية وحداة العيس.

هـذه اللحظــة أنا في عمـــان، خبير إنجليزي يفحص بعناية جاهزيتي للمغــادرة وصلاحية كافة أجزائي، هناك حشــد من المسافرين على رصيف المحطة، المقعد الخشــبي الأول على الرصيف شغلته فتاتان ورجــل، الحج تقي الدين كان في وداع ربيــبتيه هيام واعتدال، على المقعد القريب بخطوات، جلــس محامي شــاعر ببدلة وربطة عنق وكوفية حمــراء يقرأ صحيفة، إلى جواره فلاح يســافر أيضاً ببدلة رسمية وربطة عنق وكوفية حمراء، الشاعر رفعت الصليبي مســتغرق بقراءة الصحيفة، والفلاح القادم من اربد يشــعر بالغيظ والملل، يســترق النظرات باتجاه الفتاتين بين الحين والأخر، شاب شركسي يذرع المحطة حاملاً كيساً جلدياً كبيراً، ينظر إلى الولد الواقف إلى اليسار حيث يقع مكتب ناظر المحطة وشباك بيع التذاكر والجمرك، مؤتمن حأبوشه متعود على تفحص الظواهر المريبة، ماذا يفعل فتى بهذا العمر في المحطة وحيداً ! ! ينتظر الفتى غالب المعاني القطار أيضاً، ويتلفت بحيرة، على طول الرصيف يتحرك حشد من عمال الشركة العراقية، يثيرون ضوضاءً تجعــل من المحطة محطة حقاً، يمرون باصــرار ناحية الفتاتين ويبحلقون دون حــرج، يمكنني أن ألمح كافة ركابي المنتظرين، ســأراهم قبل أن أجتاز

إليهم التل هابطاً باتجاه الجسر المعلق فوق حفرة بنيت خصيصاً لتقوم فوقها صينية الدوران الوحيدة التي أحظى بها على طول مسيرتي التي أقطع فيها بلاد الشام حتى يثرب النور، في عمان فقط يمكن لجسدي الطويل بعرباته السوداء المعلقة ببعضها البعض، أن يستدير، كل شيء مدور في عمان، الهضاب والطرقات مدورة، كل شيء يعود إلى أصله، وفيها فقط سيظل وجه سائقي ناظراً إلى الأمام وان تغير الاتجاه من الانطلاق جنوباً إلى العودة شمالاً.

أهبط ماراً بالمبنى الترابي المسند بالحجارة والذي يختال عما سواه من البناء الفقير المتواضع بسقفه القرميدي، عندما يشد حارس المحطة حبل الجرس النحاسي الكبير المعلق قرب مكتب الناظر، ويصلصل صوته منبهاً، تقف الفتاتان ويدفع عمهما بالحقيبة الجلدية المربعة إلى باطني، لا يتردد في التربيت على كتف الصبيتين اللتين تتشابهان للوهلة الأولى، ثم تتمايزان بصورة مفارقة للوهلة التالية، تبتسمان للعم دون أن تسترعي انتباههما نظرات الولد الزائغة وهو يرقب من مأمنه الوداع الوقور للحاج تقي الدين وهو يقود الشاباتين المسافرتين لتلقى العلم في بيروت، يحرص الصغير أن لا تقع عليه عينا زوج أمه، يلوذ بالحائط وينتظر ركوب الشاعر والفلاح والشركسي والعمال الذين يتوزعون على العربات، هناك جمع سيحمل العربات الأخيرة بأشولة القمح والعدس، يقفز غالب إلى جوفي بمجرد أن يستدير العم عائداً، يحني رأسه وكتفيه دون مستوى النافذة، متظاهراً بإزالة جسم علق في الحذاء ريثما تنتهي الفتاتان من التلويح، لن يطيل تقي الدين الوداع كي لا يبدو بمظهر الجزع، ترقب الفتاتان عباءته تخفق وتنتفخ بالهواء، تتمنى هيام أن لا ترى تلك العباءة مرة أخرى وعلى امتداد حياتها، أتحرك أنا بعزم واضح.. تشيك.. تشيك.. تشيك

يقرأ الشاعر العبارة المكتوبة بخط ردئ فوق المقعد، ممنوع إخراج الرأس

أو اليد، ورمي القمامة، تخرج اعتدال رأسها على أمل أن تلمح عمها، ولكني أمر سريعاً بملاصقة جدار البركس الذي صار سجناً فترد رأسها فزعة إلى الداخل، تعاود إخراجه لدى مروري ببركة الماء، تشدها هيام من طرف الفستان وتجلسها، هيام تبدو منزعجة على الدوام، اعتدال تبدو مندهشة مبتهجة على الدوام، والركاب الذين استداروا مسندين ظهورهم لظهري ووجوههم تتقابل عدلوا جلساتهم محرجين، وعاد الشاعر إلى صحيفته، أخرج قلماً ظل يقلبه ويداعبه بين أنامله قبل أن يستخدمه في منتصف الرحلة، وراح الفلاح ينفخ فتحتي منخاره وكأنه هو نفسه قطار صغير، فيما بحث الشركسي عن مقابض للنافذة دون جدوى، ليكتشف بسرعة أن نافذتي تنسحب إلى الأطراف فتنفح وتغلق، يحدق مؤتمن حأبوشه في كل زاوية، يقول لنفسه، للقطار أسرار لا أرغب أن تظل مجهولة بالنسبة لي، لا تعرف هيام أين تذهب بعينيها، فالمساحة الضيقة بين الجالسين تجعل من الممكن التقاط أنفاس المجتمعين،تقول متى نصل إلى بيروت، وما الذي دفعني للتطوع لمرافقة اعتدال، ماذا سيحدث هناك؟؟ هل تعود اعتدال بشهادتها، ولا أعود أبداً! ! تتذكر الأبله عبد الرحمن وقد شدها من مرفقها دون حذر كمن أصابه مس عارض:

- كل الناس بتتجوز.. وإحنا كمان لازم نتجوز.. انتي بنت عمي.. إليّ.. وين بدك تروحي مني؟؟

فإذا ما صاحت ازداد الفتى قسوة وغباءً، واندفعت أمه مستقصية صراخ منتصف الليل المفاجئ وما أن أدركت ما يجري حتى راحت تدفع بجسده الفحل مبعدة ولدها الأهوج عن جسد الصبية الرقيق..

- هيام إليّ.. أنا ابن عمها بطيحها عن ظهر الخيل.. إليّ.. بدي أتجوز.. بدي أتجوز.

- جاز يحرقك، وداءات تنحلك، ما لقيت غير هالجربه؟؟ أنا

فاهمه، أنا فاهمه هاي حربايه لفت عليك مشـان تخلينا نوخدها غصب ولشـدة فزع الصبية مما يجرى ابتلعت كلماتها وشـعرت بأن شـوكتها انكسرت.

بعد ذلك المسـاء المرعب ورغم تعاطف عمهـا الخفي معها وعدم انقياده لتفسـيرات حسيبة، أدركت هيام أن فرصة اعتدال كانت فرصة لها للهرب إلى عالم مجهول جديد، هرباً من الأنفاس المحيطة بها في مقصورة القطار، تلفتـت إلى الخلف لدى مـروري بمرتفع أم الحيران، كأنهـا خائفة، كأن شـكيمتها تتعرض لامتحان عسـير، أما اعتدال فاختلست نظرات متفرقة نحو الشـاعر، وانتهت إلى تركيز عينيها علـى الفتى غالب الذي يرتجف كأن حمى داهمت رأسـه، يالله، مـا أجملها، يا رب ارحمني، فجأة قفزت ذكـرى مروان إلى ذهنه، المارق الذي تخلف عن العهد، وهرب من تسـديد اسـتحقاقات الصداقة حتى النهاية، لعل الله عاقبه اليوم بحرمانه من رؤية تلـك الغزالة النفور، في حين وصل المخلص غالب وفاءً للعهد، لتفتديه عينا اعتدال الجسـورتان، ولتنقذاه من جنونه والهلاك، دار رأسه عندما شاهد عيـون الصبية الجريئة، وبدلاً من إلقاء جسـده الغض تحت قضباني، دفع بكل محتويات جيبه ليبتاع تذكرة، وسـافر بي، على مقعد السـفر الذي لا يشبه مقعداً في قاعة السينما، قال لنفسه ما أحمقني، كنت سأموت من أجل المعصعصة الصفراء جانيت، ماذا عن هذه المدورة الريانة السمراء، وعيونها الذباحـة؟؟ يـا رب أين كان كل هذا النور؟؟ حمـداً لله أنّ مروان ليس هنا، تمنى بصورة غامضة موت صديقه الأثير، لم يرغب أن يشـاركه هذا الغرام قلب أخر، ولم يشعر الفتى بتأنيب الضمير لدي مروق الفكرة في ذهنه، من حقه أن يحلم حلماً لا يشاركه إياه بشر.

الصبية التي نظرت ملياً إلى الفتى سألت ببساطة:

- انت أخو ليا؟؟

لكزت هيام شقيقتها وكأنها تستنكر أن تبدآ قبل مغادرة عمان بالحديث مـع الصبيان، وارتعش غالب، أخو لميا، ما أروع لميا، هز رأسـه بالإيجاب مروعـاً، واصلت اعتدال النظر نحوه فترنح جالسـاً في مقعده، وضم قدميه بقوة شاداً على قبضتي يده يسيطر على ارتعاشة تضربه، تماماً مثل الملاريا التي ما زال يذكرها، ولكنها هنا تعذبه بحلاوة غريبة، أمالت هيام رأسها نحو رأس شقيقتها هامسة:

- بكفي.. عيونك حزّقت الولد.

همست اعتدال:

- بقطـع ايـدي إذا ما كان هالأهبـل هربان، كيف ولد صغير مسـافر لحاله، ليش!!

- شو دخلنا؟؟

- كيف؟؟ هاذا ابن خالتي نجمة، أول ما نوصل بيروت بنودي تلغراف اناّ شفناه، بتكون أمه ماتت من الرعبه ع غيابه.

- شو دخلنا؟؟

رفع الفلاح رأسه فكفت الصبيتان عن الوشوشة.

فجأة شـعرت هيام بأن موقعها من الحياة أصابه الوهن، أن هناك أمراً اختل وارتبك، عندما كانت تفتعل القسـوة إزاء لؤم زوجة العم بدت قوية جبـارة، وعندما اعتكفت في المنزل لم يكن هـذا يعني إلا انتظار عريس لم يأت، بدلاً من ذلك صارت طريدة لفتى معتوه، حتى وهي تعلم بعض الفتيات أصـول القراءة والكتابـة، لم تكن تجني خلاصاً، بل تتقدم في الهزيمة، إلى أن تجاوزت اعتدال مرحلة الدراسة التي تؤهلها للالتحاق بكلية البنات في القدس أو الجامعة في بيروت، ولا تعرف لأي الأسباب أراد عمها أن تذهب الصبيتـان معاً إلى بـيروت، أرادها مجرد مرافقـة، كأنها حارس أو خادم لشـقيقتها، كأنها مطرودة خارج المدار، كأنهـا مقطوعة عن الدنيا بانتظار

دنيا جديدة، لعله كان يعلم بمحاولات ولده، همست ليلاً في أذن شقيقتها أن هذا إبعاد مستتر، يتخلصون منهما، ولكن اعتدال بدت فرحة ومندفعة حد الجنون أرادت أن تذهب إلى بيروت، هيام متأكدة بأن العائلة تخلصت منهما، واعتدال تبدي حماساً غير مفهوم.

تشك.... تشك... تشك.. شك. شك. شيك شكشكشكشك..

الصوت يعيق وصول ضجيج العمال من المقطورات والعربات الأخرى، والأطفال المبعثرين في سهل الرصيّفة يلوحون بأيديهم بمجرد رؤية الغمامة الرمادية الصاعدة من فوهة المحرقة، يصرخون عندما أحاذ يهم، ولأن رأس اعتدال خرج من النافذة فقد جاء الصغار بحركات منكرة بأيديهم، وزعقوا بوله مارق، لا يمكن لي وأنا المار بسرعة أن أتوقف لأعلمهم درساً، أتجاوز أسواق الزرقاء المتلاصقة القريبة من شبابيكي صعوداً، الصعود نحو الشمال في واقعه مرور سهل ومنبسط في سهل حوران، أطوي المناطق المتصحرة سريعاً وأدخل في الأخضر، سيكون نهر الشريعة مرة على يساري ومرة على يميني، أتأرجح بين ضفتيه وأعبر جسراً معلقاً فوق الوادي حيث تتكاثف شجيرات الدفلى، تزعق اعتدال:

– يا ربي.. تخيلي لو وقعنا بالوادي!!!

يلتفت الشاعر باهتمام نحو الأخضر المترامي، وسرعان ما يعود إلى دفتره، بين الهمس والإجهار، لا تتورع اعتدال عن التعليق:

– ما اثقل دمه.

تضع هيام كفها مرعوبة على فمها، وكأنها من تفوهت بالكلمات، غالب فقط سمعها، لا بد أنها تقصد ذلك الرجل الأشقر الذي يطيل النظر إليه متشككاً، يغفو الفلاح حانقاً فالشاعر لم يلتفت لوجوده، ومنظر الصبيتين الذاهبتين إلى بيروت يصيبه بالفزع، منذ سنوات وهو ينتظر أن يدفع بأولاده إلى السلط ثم دمشق، بعد عامين سيلحق أحدهم بالجامعة

الأمريكية، ولكن من هو هذا الشـجاع المقدام الذي ودع الصبيتين الذاهبتين إلى بـيروت، إحداهن تثرثـر كثيراً، والفلاح يفهم فحـوى هذه الحركات والهمسات، كأنها تحاول إفهام الشاعر الذي أخرج دفتراً وراح يخط فوقه، تحاول أن تدله أين سـيجدهما في بيروت، بالأحرى أين يجدها، فالشقيقة تبدو خائفة ولا تتوقف عن الوشوشة:

- هش ..هش.. بسمعونا.

- وشـو يعني، شـو قلنا؟؟ يعني بدنا نروح الجامعة، عادي، ونازلين عند عمو حسن الحلاب صاحب عمي، عادي.

تمارس هيام صلاحيات الشقيقة الكبرى بغضب:

- سدي بوزك، واسكتي أحسن لك.

لكـن ضحكة اعتـدال اللامباليـة، تدفعهـا لتغير أسـلوبها، تبدأ في التوسل:

- الله يخليكي.. خلص.. كل الخلق سامعينا.. بس.. الله يخليكي.

يرتفع غطيط الفلاح متقطعاً، ويقرر غالب أن يكمل الرحلة حتى بيروت، هناك سيسـأل أين يجد حسن الحلاب الذي تتحدث عنه اعتدال، من المؤكد أنها تريده أن يعرف أين تكون وشقيقتها، المشكلة أنه لا يعرف أين يكون هنـاك، وإذا ما فكر بأن جيبه خاو تماماً من النقود كاد قلبه أن يتوقف عن الخفقان، ولكن اعتدال تبتسم بين حين وأخر فينسى.

يخط الشـاعر كلماته متمهلاً، (لا يمكن حمل الناس جميعاً على تقليد طبقة الأبطال، ولكن من الممكن أن تكون علاقة الفرد بالمجتمع علاقة تبادل في المنافع، الفرد يخدم المجموع، والمجموع يعطي الفرد كل ما يمكن منحه من هبـات وحقوق، دون أن يكون في ذلك إجحـاف بحق المجتمع، وبغير هذه الوسـيلة يصعب على الإنسـان الاجتماعي أن يعيش في راحة وهدوء) يثني الشـاعر طرف دفتره منزعجاً، فعيـون الصبية التي تجلس قباله إلى

اليمين تتسـمان بالفضول والحشـرية، وعلى الرغم من كونه لم يسـمع ما تثرثر بـه طوال الطريق، إلا أنه منزعج لإيقاع وصدى صوتها الذي يخترق جلال الصمت وقداسـة الأفكار المجنحة، أكثـر من انزعاجه لصوتي الذي أضحى رتيباً ثابتاً، يهدأ نفسـه قائلاً بأن دمشق صارت قريبة وأنه منفصل عما قريب عن المسافرين الذين يزيدون غربته حدة.

قريباً من درعا أطلقت صافرتي، ووقف مؤتمن الشركسي ناظراً باهتمام إلى البيـوت الصغيرة المبنية بحجارة سـوداء حتى لاحـت مباني المحطة القادمة التي وصلتها متمهلاً على نحو تدريجي متأهباً للوقوف، فقد صوتي رتابته واهتزت العربات وقرقعت في طريقها إلى السكون التام، أغلق الشاعر دفـتره ولف الصحيفة بعنايـة ثم دس أوراقه في حقيبة صغيرة، تتسـاءل اعتدال عن سر الانزعاج الذي أصابها، لعله سيهبط في تلك المحطة، فالفلاح الحوراني وقف قبل الوقوف النهائي للقطار قائلاً:

– الحمد لله ع السلامة ... بدنا نغير الخط.

جامله الشركسي بالسؤال:

– عا وين؟؟؟

– حيفا.. نبيع هالعدسات.

– هانت.. بعد ما تغير على عرباية حيفا، بصير قدامك اثنا عشر ساعة بس.

– الله يهونها.

راقبـت اعتدال بدقة ردود فعل الشـاعر، بدا لها أنه سـيكمل الرحلة إلى بـيروت، لم يذهـب مـع من اتجهـوا إلى حيفا، غاب عنهـا أن محطة دمشـق ما زالت في الطريق، أشـرق وجهها، وراحت تدنـدن بأغنية عبد الوهاب، (اجري، اجري، اجري..وديني قوام وديني، وصلني قوام وصلني، ده حبيب الروح مسـتني) من أين تستمد اعتدال الجسارة على رفع صوتها

بالغناء في حضور الغرباء! ! قرصتها هيام بقوة في زندها، فضحكت، وشد غالب يده بعنف على ركبتيه يوقف ارتجافهما المفاجئ، يمكن للركاب أن يتبعثروا قليلاً في محطة درعا ريثما أتزود بمزيد من الماء والفحم، العمال في معظمهم يحولون إلى خط المفرق، ولأني دخلت الأراضي السورية تحت ملاك الإدارة الفرنسية فإن الخبير الفرنسي فحص مفاصلي وسلامة غرفة الاحتراق في دقائق محسوبة بعناية، ، ومنح الإذن بالانطلاق من جديد، من الإنجليزي للفرنسي يا قلبي لا تحزن، في الواقع عندما يصير الحديد قطاراً يسير على تراب أرض بعينها، ينسى كل انتماءاته ويتحول إلى مواطن سيار منتم، لست بغافل أن حديدي جاء من ألمانيا، ولكني اليوم روح قطارية، عربية، هل يمكن للبشر أن يفهموا شعوري بالمواطنة والتابعية العربية؟؟

عندما تحركت حاملاً ركاباً جدداً كادت اعتدال أن تصرخ، لقد راقبت حركات الشاعر طوال الوقت، كان هناك على المحطة، لم يلحق بالعربات التي انفصلت عني وتم وصلها بقطار حيفا، شاهدته يدلف داخلي، ولكنه تصرف بخسة واختار عربة أخرى، راحت تتفحص مخارج العربات وسألت الشركسي دون تردد:

– إذا الواحد بده يغير العربايه بعد ما القطار يمشي.. بقدر؟؟

قال مؤتمن:

– مستحيل، البواب مسكر، وما بقدر نط من عربايه لعربايه.

قالت اعتدال لشقيقتها:

– قلت لك هذاك دمه تقيل، منيح انه انقلع.

كانت هيام قد تقبلت طريقة أختها الاستعراضية، لعل ابتعادهما عن عمان جعلها تظن أنّ للمرء الأفصاح عن ذاته كما يشاء،ولكنها هزت رأسها كأنها تعتذر عن كلمات شقيقتها، ولم يفهم غالب مرمى تلك الهزة، ولكنه

هز رأسه أيضاً، فاحتجت اعتدال:

- خير!! غلطنا بالأمير..!! والله دمه تقيل.

توقفت لدقائق في محطة قدم شريف، كانت حالتي تؤكد أنّي في عافية، لم أتزود من كراج القطارات في قدم شـريف إلا بالماء والفحم مجدداً، عندما تريث عند ساحة الميدان في دمشق، وقفت اعتدال تتطلع من الشباكين يميناً ويسـاراً، مالت بجسدها ملاصقة لجسـد غالب، فتصبب الولد عرقاً، قالت ضاحكة:

- الدنيا شوب.

يشـعر الولد بأن الدنيا نار، واعتدال تـثني جسـدها على نافذتي علها تــرى الهابطين، التقطت أنفاسـي في محطة القنــوات، وعلمت اعتدال علم اليقين أن الشـاعر الذي هبط حاملاً حقيبتــه، دون أن ينظر باتجاه عربات القطار المحملة بالمسافرين، قاصد دمشق، قالت بغيظ:

- هيه رايح.. ما شفتو عيونه حوله؟؟ والله..

حمد غالب ربه لأن الرجل الذي يزعج وجوده الحلوة اعتدال قد انفصل عــن الرحلة، ظل أمر الشركسـي الوسـيم يزعجه، ولكــن اعتدال لا تمنح اهتمامها لسـواه منذ محطــة القنوات، وبمجرد مغادرتي المحطة سـتبدأ في الدردشــة مع ابــن الخالة نجمة، ستسـحب الكلمات من فمــه بالقوة، وسـيخبرها أنه ذاهب إلى بيروت، يا للمصادفة السـعيدة، ستخبره بأنها سـتلتحق بالجامعــة الأمريكية،ولن تتورع أن تفسـر وجــود أختها معها كمرافقة، سيهمس مرتعشاً:

- أنا كمان رايح أروح الجامعة الأمريكية.

تداعبه قائلة:

- بعد عمر طويل.

تضحك وحدها وتكاد الدمعة تطفر من عينيه، في حين تواصل هيام لكز

شقيقتها التي تصيح:

- شو ما بتتحملوا مزح.!!. قلنا خلصنا من مرت عمي طلعتي لنا انتي!!

كان جلياً لاعتدال أن سلطة شقيقتها لن تتمكن من كبح جماح روحها، لن تسمح لها أن تحولها إلى لعبة، بمجرد وصولها إلى بيروت سترمي بكل تلك الفساتين التي عبأت حقيبتها بياقات منشاة وألوان لا حياة فيها، الرمادية والكحلية والزرقاء والوردية التي تليق بالأطفال، ستقدمها كلها لهيام المؤدبة، وستبتاع فساتين حمراء وبرتقالية وخضراء، بياقات مفتوحة وأكمام قصيرة، تعرف اعتدال كيف تتخلص من سطوة شقيقتها الكبرى التي تتصرف كما لو أنها الأم أحياناً، والتي تحرمها من الفساتين الملونة وتحبسها في مزاجها المتعكر، على الرغم من انصرافها إلى التفكير بمخططها البيروتي إلا أنها واصلت محاصرة الولد المرتجف:

- عن جد.. أهلك بعرفوا انك رايح بيروت؟؟ أمك.. وعمي بعرفوا؟؟

ابتلع غالب ريقه ولم يجب، ولكنها لم تنتظر الجواب، ومضت تتحدث في أمر أخر:

- وين بدك تنزل في بيروت؟؟

- مش عارف..

قالت اعتدال التي لم تلتق بالحلاب يوماً:

- بسيطة عمو الحلاب بدبرك، مين ما بعرف الحلاب؟؟ بنقول انك معنا.

شهقت هيام مستنكرة، ولكنها أدركت تلك اللحظة بأنها فقدت سلطتها تماماً، ووقعت تحت سطوة اعتدال المخيفة الخفية، كذلك هذا الفتى الهارب الباكي، إلا أن اعتدال كانت تمتلك القدرة والسحر على جعل الحياة جميلة.

بدأت أعتلي مرتفع ظهر البيدر وأسـقطت مسنني الثالث كي أتمكن من هذا الصعود الصعب وما أن بدأ صوتي يتحول من إيقاع ثابت إلى حشرجة.. تش.. ك..تش.. ك.. ت.. ش.. شش.. ك

صارت مسيرتي بطيئة، قفزت اعتدال بحماس قائلة:

– تعالوا ننـزل.

تردد غالب كذلك هيام التي لم تتصور إمكانية الهبوط من قطار سـائر، ولكن اعتدال تقدمت نحو الباب، سحبته بقوة، ساعدها الشركسي مبتسماً، قال متواطئاً:

– ممكن.. ممكن.. لا تخافوا.

وعندما شـعرت اعتدال بتردد الولد وشـقيقتها التقطت بمرح كف كل منهما، وأسـرعت نحو الباب، قفزت بخفة، جارة معهـا الولد والبنت، اللذيـن فزعا لثانية ثم ضحكا بحبور حين لامسـت أقدامهما عشـب المرج الندي الشـديد الاخضرار، راحا يتبعان خطـوات البنت الرعناء، قهقهت هيام وقـد طار خوفها، فكرت، ربما بإمكانها أن تسـتمتع بروح جديدة، أن تنسـى أمر عيشـها ربيبـة، أن تبحث عن جمال الحيـاة في هذا المكان أو مـا وراءه، وراحت تجمع ضمة من الدحنـون والأزهار البرية الصفراء، فكـر غالب ملياً ما إذا كانت اعتدال ستمسـك بكفه مجدداً عند الصعود إلى القطار الذي كان يتمشـى الهوينى قربهم، نزل الكثيرون مني قبل أن يلوح لهم سـائقي بضرورة العودة في الوقت المناسـب وقبل أن يمتد الطريق سهلاً ويسـتعيد القطار سـرعته، مثل أرانب برية قفزوا تباعاً إلى قلبي، ووقف غالب متردداً منـتظراً أمر ما، ولكن اعتدال لم تنـتبه، وقد شغلت بحديث مرح مع الشاب الشركسي، ومدت هيام يدها تسند خطوات غالب المترددة، فقفزا معاً، وكأنه رآها لأول مرة.

حديث الأمسيات

أشياء كثيرة قد تقررت حين وصلت إلى بيروت، كانت الحياة بمجملها قد قطعت رحلة غير متوقعة، جديدة وماتعـــة، لم يكن البشــر الذين هبطوا مني مســاءً هم أنفسهم الذين ركبوا فجر اليوم، وان بدوا كذلك.

تـــدور الأحاديث في المقاهــي والبيوت والمدارس عــن التغيير الجديد، كل وزارة وعمـــان بخير، رئيـــس الوزراء الجديد توفيـــق أبو الهدى يغير طاقــم الملتفين حوله ومســاعديه ووزرائه، يأتي بأحمد الســقاف في منصب قاضي القضاة، والحكايات تحلو على شيء من المرار، من هم القادمين وماذا ســيضيفون؟ هل ســيضيق الخناق على الخلق أم ترخى القبضة قليلاً؟؟ هل سيســتحي الانجليز على دمهم فيكفون عن مســاندة العصابات في فلســطين وملاحقة الثوار في شــرق الاردن؟ هل ســتحارب الحكومة احتكار السلع؟ هــل ســتدفع رواتب المعلمين وتقر نظــام المعارف، ليصــير التعليم الزامياً ومجانيــاً؟ هل خرج عرار من الحبس؟ هل انهــى المزارعون قطف الزيتون وعصره؟ هل يســتخدم الأمير ســعوط اسمه رنده؟ هل زاد سعر برتقال يافا هذا العام فصارت العشــرون برتقالة بتعريفة؟ أســئلة كثيرة بعضها يمكن اجابته، وبعضها تســحيل معرفة حقيقة أمره، ولكنها تســالي أمســيات عمان، يضعونها مع حبات الكســتناء فوق مواقد الفحم، يقشــرون ويأكلون ويسألون.

دخل تقي الدين مبنى دار البريد هانئاً، قال لموزع البريد المتطي حماره عند الباب أن عليه أن يرتدي ثياباً صوفية فالدنيا مقبلة على برد قارص.

يعرف تقي الديــن فحوى البرقية التي سيســتلمها، لا بد أن الفتاتين تخبرانه بالوصول، وقد تكون هناك تحيات وســلامات من حسن الحلاب، ولكنــه عندما قرأ الســطرين الموجزين لم يتمالك يده مــن الارتجاف، أية مصيبة تلك!!

أخبرته نجمة في اليوم السابق أن غالب نام لأول مرة خارج البيت فرجح بأنه عند أحد عصبة الأولاد الذين لا يشاهدون إلا معاً كتفاً بكتف ويداً بيد، ودائماً لتصرفات الفتيان مرة أولى، مما لا يستدعي القلق، وأمنت نجمة على تقديره، لــو أن غالب نام في بيت أنزور أو رافق عزمي إلى مزرعة الجبيهة لــكان قد عاد، على الأرجح أنه في بيت مــروان، ذلك الفتى الذي يفتقر إلى التهذيب، لم يفكر تقي الدين في أمر غالب كثيراً فنجمة لا تتيح له الفرصة للعب دور الأب مع أولادها، وهو مكتف بكونه أباً لشــاب هامشي مثل عبد الرحمن، أما مشــكلته لحظة قراءة البرقية القادمة من بيروت موقعة باسم اعتدال فقد انحصرت في كيفية نقل الخبر إلى نجمة؟؟

ولولت نجمة ولطمت خدها، ثم جرت لمياء من جديلة شعرها، وأركعتها تحت قدميها:

- احكــي ولــه، كنت بتعرفي اخوكــي بده يهج من البيــت؟؟.. احكي لاحسب الله ما خلقك.

تنــوح لميــاء محاولة تخليص جديلتهــا من قبضة أمها، مــادة ذراعها الأخرى نحو الحاج تقي الدين:

- والله ما بعرف، ما حكى لي إشــي، ما بعرف، دخيل الله، دخيلك يا عمي.

اســتمتع تقي الدين بالاستغاثة التي خولته أن يلعب دور رب الأسرة، فوضــع كفه الكبيرة فوق كف نجمة وســحب البنت منقــذاً إياها من غضب أمها:

- روحــي اوضتك عمو، روحي، وحدي الله يــا نجمة مليح انه في بيت الحــلاب والبنات معاه، هيام واعتدال واعيات، والحلاب زلمة ثقة، وحدي الله تا نشوف كيف بدنا نتصرف.

كان مســاءً موجعاً، وظلت حســيبة تعد الدقائق حتــى مضى الليل كله

وبزغ الفجر، كان المساء الأول الذي يقضيه أبو عبد الرحمن كاملاً في بيت ضرتها، ولشدة ما نهشتها الغيرة صاحت في وجه ابنها وهو يتوضأ لصلاة الفجر:

- فز قوم.. روح شوف أبوك وين انعتر، بكون فطس بحضنها.

تناقل السوق نبأ هروب غالب المعاني إلى بيروت، وجن جنون نجمة فوالدها عاودته الجرأة لمحاسبتها، وتقي الدين يحملها المسؤولية لمجرد كسر شوكتها، ولميا تبدو سعيدة بصورة غامضة كأنها كانت تتمنى غياب شقيقها، ينهار العالم الذي بنته فجأة، ولكنها تتماسك وترتدي الكاب الجوخ، وتسدل غطاء الجورجيت فوق وجهها استعداداً لمقابلة الرجل الذي حضر إلى صالون بيتها في غياب الزوج.

- ماما، في واحد بالباب، بقول انه عمي، بده يشوفك، ماما، لا يكون بده يسأل عن غالب؟؟

خرجت نجمة بكامل هيبتها، لم تنس أن تمسح كفيها بالعطر قبل الدخول على شقيق زوجها الأول الراحل، وعلى الرغم من كونه جاء غاضباً، إلا أن دخولها الواثق دفعه للوقوف وامتص همته في المجادلة.

- تفضل.. زارتنا البركة، والله زمان.

- الله يبارك بيكي.. صحيح الخبر؟؟

- خبر ايش؟؟

- اى!! سمعت غالب ابن اخوى ضايع!!

- شو؟؟ أما سمعه!! كيف ضايع؟؟ أنا وديته لبنان يشم شوية هوا، وبعت لي برقية كمان طمني ع وصوله، شو؟ من وين بتجيب هالاخبار؟؟

- الله يجازي أولاد الحرام.. يعني طرشوا ليّ الخبر لمعان.

- أه.. ما هي معان بعيدة، شو ما حدا طرش لك أخبار قبل اليوم؟ يعني الولد نجح، البنت مرضت، أمهن تزوجت، هيك أخبار؟؟

يعرف الرجل أنّ نجمة تبتغي إحراجه، يشرب القهوة التي أعدتها لميا متعجلاً، ويدس في يد الصبية ليرة عصملية من الذهب.

- هاي من عمك، ترى إحنا مقصرين.

وترد نجمة بلؤم:

- حاشاك، هي بس معان بعيدة.

بخروج الرجل تستعيد نجمة قوتها، إذا كان غالب في آمان فليس عليها أن تجـزع هكذا، وقد تفكر بالاتصال بـه هاتفياً من بيت زرواك الخياطة، كما أنه من العيب أن يخلو بيتها من الهاتف، ستمد لها خطاً أسوة بكبارات البلد، كيف لم يخطر ببالها هذا الأمر قبل اليوم؟ أما إذا لم يعد الولد الضال فإنها ستذهب إلى بيروت وتعيده جراً.

مع ذلك عاشت عمان أمسيات ثلاث ولا سيرة لها إلا غيبة غالب، وعين أمه التي لا يسحل عنها المخرز، فها هي تتنقل في الأسواق كعادتها، وتبتاع المزيد مـن الأحذية، لم ير أحدهم نجمة تذرف الدمـوع، حتى تقي الدين أدهشته تلك الصلابة المفتعلة، وصدقها، وحدها لميا كانت تسمع بكاء أمها في الأمسيات الباردة وتقول في سرها، (تستاهل، قد أفعل مثلما فعل غالب)، ثـم تخجل من أفكارها الشـريرة، وتفزع من تلك الشـماتة المخبوءة في أعماقها، فتأنب نفسها، وتندفع في نوبة طاعة عمياء لأمها وكأنها تعتذر.

أصدقاء العصبة تعرضوا لتحقيقات دقيقة من ذويهم، عن مبلغ اطلاعهم علـى نوايا صديقهم، ومدى مشـاركتهم له في تسـهيل جرمه، لكن الحزن الـذي أبدوه والجزع الذي أصابهم برأهم وخلـق حولهم حالة من التعاطف والود، فإذا ما مر أحدهم بالسوق وجد من يسأله:

- رفيقك بيّن يا عمي؟؟

فيهز رأسه آسفاً:

- لسه..

- الله بفرجها.

تحدثت البنات عن غياب غالب، كذلك النساء، ولكن عمان وفي غضون أيام قلائل عثرت على حكاية أكثر إثارة ومتعة.

ما الذي جاء بمسعد في مثل هذا الصباح إلى الكنيسة؟؟

لعله كان جائعاً، أو كما أدعى فيما بعد بأنه كان مكلفاً بهداية أهل الكنيسة، دلف إلى ردهة السيدة العذراء مندهشاً من الكيفية التي يتلاعب فيها الضوء المنهمر من النوافذ الزجاجية المزدانة بالألوان على طريقة العاشق والمعشوق، وكيف يقع النور على مساند المقاعد الخشبية، وينير بريقاً على أطراف تمثالي المسيح المصلوب ومريم البتول، ورأى مسعد شبحي امرأتين تركعان باتجاه الصليب المعلق، تنحنح وهتف معلناً عن وجوده.

- حي.. حي.. الله حي.

إحداهما لم تلتفت، ولكن الأخرى قامت من صلاتها، أقبلت الأم ماري روز بهدوء تشير نحوه بكفها كي يخفض صوته، همست وهي تمسك ذراعه برفق:

- لازمك إشي؟؟ تعال اتدفا جوا وكولك لقمة، عندنا شوربة عدس وفطاير سبانخ، وعندي كبود شتوي منيح بنفعك، تعال.

تأبطت ذراعه بود، فغمره حنانها بالامتنان، إلا أن ارتياباً غامضاً أصابه فالتفت إلى الخلف بينما هو خارج بيد الراهبة الأم، التقت عيناه بعيني المرأة الأخرى التي تفادته مسرعة، موجهة وجهها نحو الصليب.

صار يمكن لمسعد أن يقدم للمارين قصة طازجة تختلف عن عبارات التهليل والحمد والبسملة.

- بعيوني هذول، وإلا يوكلها الدود اليوم قبل بكره، شفتها، راكعة للصليب والعذرا، عرفتها، أسمهان اللي ما تخفاني، ها كيف بقولوا أسلمت عند القاضي؟؟

العاشـقان اللذان بدءا يكتشـفان لـذة الحياة الزوجية علـى مهل، أن يجتمعا على المائدة، أن تعد له أطعمته المفضلة، أن تغسل بيديها قمصانه، أن يكون أمامهما ليل طويل من العناق والمناغاة والمزاح والضحك في السرير أو على الأريكة يسـتمعان إلى رجع شخير الحجة فضية ويجعلانها نكتـتهما المفضلة، لم ترهبهما الأقاويل التي تتردد في المدينة، قالت أسمهان:

– مش رايحة أخبي عليك، صحيح رحت للاخت ماري روز، وعاتبتني، وحلفت لها أني بحب المسيح، وصّلينا، شو صار؟؟

– ما صار إشـي يـا عمري، أنا مش سـائل، الدين لله، وانتي عارفة لولا أمي سـاوت فنـتيكية يـوم كتب كتابنا، ما كنـت قلت لك تصيري مسـلمة

– بس أنا مسـلمة.. والله حاسـه حالي هيك.. وكمان حاسـه بالمسـيح والعذرا، وما بقدر أقول كلمة غير باسـم الصليب إذا فتحت عيوني، وصلاة النبي على سيدنا محمد قبل ما أنام..صدقني.

– مصدقك.. لا تسـاويها مشكلة هسه، أنا مش فارقه معي، أنا بعرف أسمهان حبيبتي وبس.

– وأمك!! بكره إذا سمعت!!

عندمـا سمعت الحجة فضيـة بالحكاية، غضبت وأجلسـت كنـتها في حضرتها لتحلف الأيمان الغليظة بأنها مسلمة، ثم اهتدت إلى ابتكار جديد وهي تهتف بفضول:

– شو هاذا اللي تحت أذانك يا أسمهان؟؟

– حساسية يا عمتي، طول الليل أحكها، جرحت حالي.

– لأ.. هاي كتابه، أه.. أنا صحيح لا بقرا ولا بكتب، بس مش غشيمه عن الكتابة.. هـاي مثل حروف القرآن.. الله أكبر ما أكرمه وأعجب آياته، مشان اللي بلقلق وبفتح ثمه، الله يخرسه، سبحانك يا رب.

لا أحد يعرف كيف تمكنت الحجـــة فضية من ترويج حكاية الكتابة، وعندمــا جاءت فايزة لتقرأ لها الكتابة، راحت تنير بصيرتها وتســاعدها على فك رموز اللحم المتكتل أسفل إذن أسمهان اليسرى.

– اقري مليح يمه يا فايزة، حلفتك بالله مش هاي هيك بتشبه مدة العصا اللي في كلمة الله؟؟

وإذا ما بقرا، بفهمها، ما أنا شــفتها كثير، طول نهاري فاتحة كتاب الله.

– والله صحيح يا خالتي، والله أعلم، هاي الحروف تحت، شوفي هون.. في ميم وحاء، كأنها كلمة محمد.

– أشهد أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله.. معجزة من عنده تا يبري هالمســكينة، ويسد ثم الهبيلة مسعد، اخس عليه ما ثمرت بيه المليحة، يا ما أكرمته.. واحد بلا أصل شو بده يطلع منه؟؟ سبحان الله نصرنا من عنده، سبحان الله.

رغم البرد القارص كان الشــارع يشــهد حركة النساء المتزايدة إلى بيت المحامي عبد الرزاق، أول من حضر كانت شحرخان، لم تكن تقرأ العربية ولكنها هزت رأسها بخشوع كبير وفضية تشرح لها كيف تكتل اللحم في ما يشــبه الخيطان ليكتب آية إسلام كنـتها، تلمست شحرخان اللحم ودمعت عيناها، ثم جاءت نسوة كثر، وراحت الحكاية تنسي النسوة حكاية هروب الصغير غالب، بدت تلك أكثر إثارة، وأبدت فضية ترحيباً فائقاً بالزائرات، لم تتوقف عن إكرامهن بأكواب الشاي وحلوى الزلابية، واستكانت أسمهان لدورها الذي ينحصر في الكشف عن أذنها، قالت حسيبة:

– سبحان الله، كمان في الجهة اليسار!! جهة القلب، سبحان الله.

وطلبت شــبانور من أسمهان أن تبارك الشابة جانيت، ففزعت الممرضة السابقة من المهمة الجديدة، وتمالكت دهشتها لتقول:

- احسن تقرا شوي بالقرآن، هي أكبر بركة.

- بارك الله فيك.

قالتهــا أكثــر من امرأة، وفي حــين صمتت رفقة على غيــظ، فإن نجمة تحسست اللحم وأطالت، ولما لمحت التساؤل في عيون الحاضرات قالت:

- سبحان الله كنه مطبوع طبع، شي ولا في الخيال.

تناولت الزلابية متلمضة، ثم أحكمت تزرير معطفها مستأذنة، وما أن أغلق الباب حتى انبرت فايزة تعلق في موضوع أثار شهية النسوة للنميمة:

- شوفوا، ولا كأنها مضيعة ابنها!! شو قلبها هالمره؟؟

عندما وصلت نجمة إلى منعطف الشارع وأوشكت على وداع رفقة لتذهب كل منهما في طريق، سألت رفقة ببراءة لا تخلو من لؤم.

- انتي شاطره وبتقري.. صحيح يعني إنه مكتوب هيك، الله ...ومحمد، هيك أشكر خبر؟؟

تمتمت نجمة مستديرة لتغير اتجاه سيرها نحو بيتها:

- بــلا كتابة بلا حكي فاضي، هاي حزازة، بدل ما يعالجوها ســووها قصة، وأنا اللي كنت مفكرة أسمهان فهيمة، بدل ما تروح للدكتور، ولك، هي نــص دكتورة، كيف بترضى بهالعلاك المصدي؟؟ بس شــو الواحد بده يقول، نسوان مخها طاقق.

في الواقع لم تكن النساء فقط من يتحدثن بقصة أسمهان، تداولها الرجال بيقــين أكبر رغم أن المحامي أبــدا انزعاجاً، فلا هو بقادر على تكذيب أمه علناً، ولا الإقرار باكتشــافها الخطير، ورغم أنه وأسمهان سخرا من الأمر ذات ليلة غزل، إلا أنه وبمجرد أن اســتغرقت في نومها، غادر فراشه وعاد حاملاً الفانوس، قربه من وجهها وراح يحدق ويتفحص بانتباه كبير.

كل مســاء وعمان بألف خير، تحكي حكايتها السعيدة، وتلك الملتاثة بالشــجن، كل مســاء وعمان تدثر أســرارها في هدأة العتمة، مثلما يســير

المحامي متلفعاً بكوفيته برفقة شبحين ذلك المساء، يقطع الثلاثة شارع الرضا متقاطرين وأجسادهم تحتمي بجدران الدكاكين المغلقة، وإذ يلمح (باثر) الشركسي المسؤول عن إنارة الشارع زوالاتهم،فانه يؤخر إشعال الفوانيس ويكتفي بالتلهي بتنظيف زجاج المصباح وفتيلته، فإذا ما اجتازوه تبادل الهمس معهم:

– دربكم آمان، الله يقويكم.

– تسلم، تصبح على خير.

يتلفتون بحذر قبل أن يدلفوا عبر البوابة الخشبية التي رفع تامبي رتاجها، فإذا ما وجدوا أنفسهم بين الثوريين والعربة المحملة ببضائع الغد، فكوا كوفياتهم وعانقوا العجوز شاكرين، فهمس:

– مرحب بثوار، شوي وزوجنا شحرخان بتودي الباخمسه، شراب بدفي عظمك، الهوا بارد، بس ما بقدر أشعل نار هون، صاحب ملك بزعل، إذا بدكم حرامات زيادة فيّ.

يقدر المحامي عبد الرزاق أن هذا الملجأ الأمين لن يخطر أبداً ببال أحدهم، خاصة وأن العجوز صهر الضابط تيمور، يرجح أنّ العجوز يمد لهم يد العون نكاية بصهره، أما القادمون من فلسطين فيزودن المحامي بأسماء المزيد من الشهداء من الأطفال والفتيان والرجال الثوار، ويطوي ليل عمان أسراره قبل أن تصل أسماء شهيدين من السلط رافقا الثوار وقضيا في فلسطين.

يستعد الرجال للذهاب إلى السلط والمشاركة في جنازة كل من علي العبويني وعبد الرحمن النجداوي اللذين جيء بجثمانيهما من أرض المعركة، ولا يتحرجون من إعلان هذا الموقف، بينما يراقب الإنجليز الجموع الغاضبة بتوجس، عندما سارت الناقلات بالرجال إلى السلط مثل حجيج، كفت النسوة عن استعادة حكاية غالب، وتبخرت حكاية أسمهان،

ولم يعد لعمان إلا حكاية واحدة يقال لها فلسطين.

وازداد الجو عبوساً، برودة وجفافاً لا يطاق.

لم تتلطف الأمسـيات العمانية إلا بهطول المطر، بدأ ذلك خفيفاً لايكاد يشـي بخطـر في أواخر أيلـول، الذي تزامن مع شـهر العجـب، رجب، وتقطـع الماء منعـاً وعطـاءً في اكتوبر تشـرين الأول، الموافق شـعبان، ثم راح يمنـح عطاء غزيراً لا حـدود له بقدوم رمضـان، كان ذلك في نوفمبر، تشـرين الثاني، حيث نهـارات يوم الصيام قصيرة، والزيـارات العائليـة كثيفـة رغـم وحـل الطرقات وبـرد الهـواء ولسـعاته، وبـدت مئذنة المسـجد الحسـيني بهية وسـط غيم وضباب دائـم وآذان رخيـم على المقام الحجـازي، توقفت النسـوة عن النميمـة، وأخذن اهبتهـن لاقتراب ليلة القدر، انقطع المطر، وجاءت الليلة في السابع والعشرين من الشهر الفضيل، خير من ألف شهر.

غمـر عمـان نور كثيف غامـض بعد آذان العشـاء بدقائـق، وكأن كوة فتحت في السـماء، أمـا الأفق الذي تلبد بالغيوم حتى أن الشـمس لم تطلع ذلـك النهار، اشـتعل بغتة كأن برقاً مر على امتـداد البصر، ثم تحول إلى حلة سـربلت المدينة، ويحكي مسعد العتال، على ذمته بأن الليلة الفضيلة أسـلمته أسـرارها، فرأى الملائكة يتتابعون، هابطين السـموات السـبع، متلاحقـين حتى جللوا الفضاء، ولو ان عينـاً جرأت يومها على النظر نحو السـماء لما تبينت لها صفحة ولا لوناً لفرط بهاءها، حتى ان مسـعد أغمض عينـه فزعاً وارتد منقلباً على ظهره كمـن ضربته صاعقة لما جرب التلصص على الركب المنير. لفت اجسـاد الملائكة الكون وعزلت عمان عنه، اصطفتها وجللتها بالرحمة والنور، وكان جبريل حادي الركب يمد سـتمائة جناحاً مرصعاً باللؤلؤ والياقوت والمرجان، مطلقاً جناحين أسـيرين لا ينفردان إلا لليلـة القدر، سـلام هي حتى مطلع الفجر، ويا نفوس اهجعي من خشـية

الله، ويــا قلــوب طيبي على عطش وخــوف، فها هم خير خلــق الله يدقون أبواب عمان باباً باباً ســبعين مرة في الليلة، افتحــوا يا عباد الله الخطائين التوابين، تدخل الرحمة أبوابكم، تصافح أرواحكم، وتمســح دمع الخوف والعوز، افتحوا فقد صفدت الشــياطين، وكتبت الآجال، ومحيت الذنوب، وقدر الرزق، افتحوا فوالله ليس بينكم وبين جنة الخلد رفة رمش ولا نبضة قلب واجف. مســحت القلوب بالرضا، ورفع الغضب بالرحمة، وسعت كل شــيء، فإذا مــا نادى المنادي الصلاة خير من النــوم، دعا جبريل رهطه أن هلموا، وراحوا يصعدون الفجر كاشفين عمان ملعباً للقادم المكتوب، استيقظ مسعد، وانهمر المطر.

حديث الرحالة

قال المقدسي في (أحسن التقاسيم) (رأيت لمكة نظائر ثلاث، عمان بالشام، واصطخر بفارس، وقرية الحمراء بخراسان).

ووصف أبو عبيد البكري عمان في (المسالك والممالك) (إحدى كور الثغور الشامية التي تشتمل على قواعد جليلة وقرى شريفة لا يحيط بها إلا خالقها).

قال الهروري في (الإشارات لمعرفة الزيادات) (بلد فيه الكهف والرقيم، وعنده مدينة يقال لها عمان، فيها آثار قديمة ذكروا أنها مدينة دقيانوس، وقيل أنها مدينة الجبارين أيضاً والله أعلم).

وقال أبو الفداء في (تقويم البلدان) (أن لوطاً عليه السلام هو الذي تولى عمارة عمان)

وعن ابن تميم المقدسي، عن الوليد بن مسلم، حدثنا سعيد بن عبد العزيز عن مكحول، قال (محشر الروم يومئذ، الشام أربعين صباحاً لا يمتنع منها إلا دمشق وعمان).

لما هممت بخط الحكاية في قرطاس متوسلًا حرف الثلث الكبير خطاً مقروءا لا يحتمل تلجلج واهم، ولا تحريف مارق، تراءى لي أن يوماً سيأتي فيكشف عما كتبت، وظننت بأن قارئ أوراقي جدير بالاعتذار عن كل هذا الهذر والتفصيل، والسعي بين الخاص والعام، المهمل والهام، لكنني معذور، وعذري مقبول، ضربتني فتنة المدينة وأطاحت بقدرتي على الإيجاز والشطب والحذف، ونقلتني بين ماضي الزمان وحاضره، وما يهمس به الطين، ويصيح به الحجر، وما يعايشه البشر، فكأنما الحكاية رجع روحي.

أنا عبد الله، سيف الدين الغساني، المرتجي رضاء ربه، ورحمته وجنته، في الدنيا والآخرة، أفقر الورى وأغناهم، ما تركت منيفاً إلا

صعدته، ولا سـهلاً إلا قطعته، ولا وعراً إلا سهلته، ولا نديماً إلا فارقته، جبت الآفاق والأمصار، وعرفت من الكون بحاراً وشـواطئ، ركبت سـفائن البحر وقاطعات البر وطائرات السماء، رأيت ما لم تره عين وما خطر ببال، وعرفت من الحياة خيرها وشـرها، وأصابني سعدها وبؤسها، فما أنا بالغر الذي يفتنني حسن زائف، وضلال مستتر بالحق، ولا تذهب عقلي أبهة أو مجد وثراء زائل، ولا يتراءى في ناظري كل ما يلمع ذهباً.

ما زال العمر يضربني ضربة إثر ضربة بالضر، ويذيقني بمعرفة الناس حلو ومر، حتى تركت ورائي جل دهري، وجعلت من عمان موقع رحلي، دخلتها ظاناً أني عابرها، ولست بمطيقها ولا ساكنها، فإذا بي عالق فيها، بعضاً من أشجار روابيها، وكم قد قالوا لي، تشرب من النيل فلا تطيق فراقه، وتذوق الفرات فلا تقوي على بعاده، وما صدقت، ولا عاودني عشـق لنوبتين، وما فتأت أصل السـفر بالسفر، وليس أبغض إلى فؤادي من المسـتقر، حتى وطأت عمان، فاصطادتني بدهاء، وألحقتني بحجارتها بلا عناء، كأنما دقتني بوتد إلى جبالها، وشـدتني برسـن إلى أشـجارها، فلا أقوى على الفرار، ولسـت أعـرف لي أرضاً غير هذه الديـار، حتى إذا ما جئـت أكتب عن عجائب البلدان التي عرفـت، وغرائب الجهات التي بها مررت، لم يسـعفني الحرف ولا انساب البيان، إلا وسالت عمان من قلمي، زاحمت، وتقدمت، وتجلت ساحرة فاتنة في حروفي، كأني ما عرفت قبلها، ولن يتسنى لي عشق بعدها.

لعلـي حللت فيها وقد أدركتني شـيخوخة العمر، فما عدت أقدر على تغيير الصحاب، وما لجسـدي أن يطيع أهواء النفس المغامرة، لعلي سأمت طوافـا يعجن الحلاوة بالمرار، والنفع بالضرار، لعلي أتوق إلى جنة الله على الأرض، أريح وأسـتريح، ولسـت في هذا المذهب وحيـداً، ولا خاتلتني به عمان فريداً، لكني شـهدته شـهد العين وإدراك اليقـين في كل من حولي،

كأنما الخلق جميعاً ضربوا بداء لا شفاء منه، وتبدت أعراضه برغبة تراودنا لمفارقة المدينة الوادعة المسالمة حيناً، وقرار نهائي بالاستقرار إلى ما شاء الله وقدر في تلك الربوع أحياناً. تلك الجبال الراسخة القائمة المحروسة بالقلعة، هي الجنة، حلم الأسير بالحرية، والغريق بالبرية، والجائع بالسنبلة، والمؤمن بالوسيلة والفضيلة، كيف لا يكون فيّ كل هذا الهوى بعد ما عرفت من طعان زماني ما عرفت، وشرقت وغربت، ثم أنخت الروح عند سفح الجبل، وقلت اقبليني يا عمان، يا عمون، يا فيلادلفيا العتيقة، أنا سيف الدين الغساني، عبد الله الفقير إلى رحمته، الطامع في جنته، الراضي بقضاء ربه، الحالم كما حلم المؤمنين بفيئك، وكف رحمتك، عمديني كما المسيح في طاهر أردنك.

عمان.. ولها في نواصيها من كل زمان خاتم، وشاهد، ونصيب، مسكونة بالتاريخ في عمقها، محروسة به من كل صوب واتجاه، العام الألف الأول قبل الميلاد ترك رجم الملفوف، برج المراقبة الذي أقامه العمونيون في زمان ربة عمون الزاهر، عيون ترقب المدينة، وتحمي الديار من الطامعين، وصراع ما زال صليل سيوفه يصلنا في الأمسيات الكاشفة، كأن سيف العموني يطلق الشرر إذا ما التقي بسيف العبراني، عندما يرى أهالي عمان برقاً يضيء في الفضاء من ناحية الرجم، يعلمون أن أرواح المتعاركين عادت واختلست لحظات من مساء صامت خاشع لتذكرنا.

من حديث مكحول أن جزيرة العرب لما افتتحت، قال رجل عند ذلك: أبهوا الخيل والسلاح، فقد وضعت الحرب أوزارها، فبلغ ذلك رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فبشرهم أنهم لا يزالون تقاتلون الكفار حتى يقاتل بقاياهم الدجال ببطن الأردن، هم من غربيه والدجال من شرقيه.

في منخفض السفح، قعر المكان وقلبه، بقايا فيلادلفيا، مدينة الحب

الأخوي، إحدى مدن الديكابولس، ينفتح الاوديوم قمراً شـاهداً على القرن الثانـي الميلادي منذ بناه الروماني انتونيـوس، من فناء المدرج الذي أسماه المقدسـي في (أحسن التقاسيم) ملعب سـليمان، وعنه أخذ ياقوت الحموي، ويسـميه العوام اليوم «درج فرعون «، كانت أصوات احتفالات الرومان تملأ فضاء المدينة شعراً وغناءً عذباً، وكانت أكف المستمعين الجالسين على أحجار المسرح تصفق كأن رجعها اليوم، لم تفلت الأصوات والروائح من فضاء عمان، ولم تغب الإشارات والدلالات، حتى أولئك الذين يمرون أمام بقايا العظمة، لا يجمعون من تاريخها خبراً، ولا يسـتدلون على بقائها وثباتها بمعنى، حتى أولئك البسطاء يخشـعون، يعرفون أن العظمة عرفت طريقها ومضت مـن هنا يوماً، وهم اليـوم يعيدون أصوات الأمـس، في الاحتفالات العامة عندمـا يمر ركب الخيل والخيالة، والسـيارات وقارعـي الطبول، ضاربي الدفـوف أو نافخي القرب والمزامير، عندما يرتفع صوت الآذان، فإن المكان يمسك بتلابيب الرجل، ويدكه، ليصير حجراً من حجارة الطريق.

مرت طريـق الملوك على ذات الدرب، وتركت القوافل المسـافرة حاملة أسـرار بقاء الشعوب والأفكار منذ الألف الثانية قبل الميلاد إشاراتها، علنا نلتقطهـا، في الليالي الحالكة عندما تنطفئ الأنوار الإلهية، وتبتلع الظلمة القمر، وتسـافر الشمس، يلجأ مسـعد الدرويش السّلال إلى كهف منزو من كهوف درب الحوريات (النمفيوم)، يرى كما النائم، نوافير تغدق وترش ماءهـا، والحوريات آلهات الجمال والعطاء والفـرح يلعبن ويرقصن تحت الأقواس الحجرية والأعمدة، ويسـتحممن في بركة تتوسـط المكان، تتعالى ضحكات حوريات الماء مثل ألحان هائمة منذ فجر التاريخ، وحده، مسعد، يعـرف بوجودهن، وكم أخبرنه عن زمن مضـى كن فيه الأثيرات المدللات لشـعب يحب المرح ويقدر الجمال، حتى بعد أن تحول مسعد من سلاّل إلى درويـش فإنهن، الوفيـات،لم ينقطعن عنه، كان يلوف بهن مسـاءً، وكن

يؤجلنه إلى غياب كل ضياء، فإذا بضيائهن الباهر يعشي عينيه قبل أن يبدأ الفاصل البهيج من رقصهن والغناء السماوي، ، فيدور متنقلاً في الغناء بين ما حفظه من سيده أبو نوير، وما سمعه من أغاني الحوارنه القادمين من اربد والرمثا، صادحاً مغازلاً ذاته والحور

(مسعد يا تنور ويلي..مسعد يا تنور، وحبابك الحور ويلي.. وحبابك الحور).

يضحك كل من سمعه لذكائه في تحوير الأغنية إلى ما يناسب حاله، في الليلة التي يحظى مسعد برؤيتهن، يتعفف الدرويش السّلال عن قضاء حاجته في الدرب ملاحقاً كل من تسول له نفسه بفعل مشين كهذا، مهدداً بحبل يلوح به مدافعاً عن حمى المكان، قبل أن ينسى هو، فيعاود استخدام المكان لحاجته.

تايكي المجيدة السعيدة، ربة الحظ والفرح، تحرس عمان، ، تايكي حافظة الفصول الأربعة، على يديها حملت الخريف فاكهة، والصيف سنابلاً، والربيع أزهاراً، والشتاء ماء يسيل فيروى العطاشى، تايكي صنو عشتار وإيزيس وأفردويت، رفيقة منيرفا الحكمة، تايكي وعلى رأسها البرج ذي الأسوار العالية، بانية المدن وحارستها، وجهها مرقوم على دائرة الحظ للمقامرين والمغامرين، هي الحظ وعكسه، ما من ملك يقوى ساعده، أو تمتد أرضه، ويتصالح معه شعبه لو لم تنظر إليه عينا تايكي بالرعاية والرضا.

محاطة عمان بالتاريخ من مختلف الجهات، مكثف فيها كقطرة مسك في المكان، في الأعلى يطل على الكون عمود هرقل، وبقايا معبد مسور، سارداً حكاية العصر البرونزي الوسيط قبل ميلاد سيد الدنيا عيسى المسيح، معبد مرصوف بالفسيفساء وقاعات مبلطة تنفتح على شارع ممتد يزدان بأعمدة منقوش، تنتهي إلى عناق المسجد الأموي العريق الذي بناه الوليد الثاني

الأموي عام ٧٢٤، لا تكتمل القبة المستديرة الكبيرة كأنها حرف إلا بعمود هرقــل إلى الجانب المقابل من قمة الجبــل، هناك حيث بإمكان الملوك الذين عــبروا، ثم غبروا، أن يطلوا علــى المدينة الباقية تعتــاش أيامها بعدهم، وكأنها خارج الزمان.

عمان التاريخ تستريح في الساحة المفتوحة قرب سيل الماء، حيث المسجد العمــري الــذي احتل مكانه منذ زمــان ابن الخطاب، ثــم هدمته النوائب والزلازل والسنون، فأعيد بناؤه مرات، كانت الأخيرة في عهد إمارة الأمير الهاشمــي عبد الله بن الحســين، هدم زلــزال ١٩٢٨ مئذنة المســجد فأعيد ترميمها، وقد ركعت وسجدت فيه، وفناؤه رمل، وليس في المكان إلا شجرة واحدة، كما مئذنة واحدة، ويحكى أنهم يفكرون بتوســيع ساحة المسجد، ورفع مئذنة ثانية، توازي أختها وتهب البناء جمالاً على جمال.

تكتظ عمان بالحكايات والأســرار القادمة من عمــق التاريخ، على باب الرقيم وتحت مسجد قديم، كانوا ثلاثة عشر، أو هم سبعة وثامنهم كلبهم، جمــع من الفتيان المؤمنين وحارس أمين، أخفاهم الموت ســنين عدداً، ثم ما لبثوا أن عادوا يمشون في الأسواق آية للمتقين، يقال إن أهل الكهف المقدس ما زالوا يقبعون تحت أنقاض مســجد شيده خمارويه بن أحمد بن طولون في عهد الموفق العباسي.

قال ياقوت الحموي في معجم البلدان (دخلوا ودخلنا في ذلك الســرب، وكان عليــه باب حديد، ففتحوه فانتهينــا إلى بيت عظيم محفور في الجبل فيه ثلاثة عشر رجلاً مضجعين على ظهورهم كأنهم رقود، وعلى كل واحد منهم جبة غبراء، وكســاء أغبر، قد غطوا بها رؤوســهم إلى أرجلهم، فلم نــدر ما ثيابهم أمن صوف، أو وبــر، أم غير ذلك؟ إلا أنها كانت أصلب من الديبــاج، وإذا هي تقعقع من الصفاقة والجــودة، ورأينا على أكثرهم خفافاً إلى أنصاف سوقهم، وبعضهم منتعلون بنعال مخصوفة، ولخفافهم ونعالهم

من جودة الخز ولين الجلود ما لم ير مثله، فكشفنا عن وجوههم رجلاً بعد رجـل، فإذا بهم من ظهور الدم، وصفاء الألوان، كأفضل ما يكون للأحياء، وإذا الشيب قد خط بعضهم، وبعضهم شبان سود الشعور، وبعضهم موفورة شعورهم، وبعضهم مطمومة، وهم على زي المسلمين)

أنفس المكان، بانتظار من يكشف عن وجوههم المنيرة، لتعود الحكاية المثيرة من جديد تغذي دماء المؤمنين الحافظين ذكر ربهم في أزمنة الطواغيت، في الليل يغفو فتيان عمان على الحكاية، فيقتربون من الله أكثر.

فـو الله إني لأعـرف أن عمان روح الزمان وكنه الجمان، وإن ظن شـاك أنها ليست بدرة زمانها، وسابقة عصرها وأوانها، إلا أنها المشتهاة الأليفة الوليفـة، ولقد عرفت في المدائـن عمقاً أغور، وتاريخاً أبعـد، ولكن أصالة المدينـة تلامس الروح بلا حجـاب، فنبدو وكأننا نسـينا مجدها، وما أنا بسـاه عنها ولا منكرهـا، إذ كنت أول وصولي غريب الـدار، بعيد الأهل والأحباب، فصارت لي داراً ومآبا، واتخذت لي فيها أهلاً وأحباباً.

تحيط المدينة بسيل ماء يقال له «زرقاء»، ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان قائلاً (هو نهر عظيم في شـعاري ودحال كثيرة، وفيه سـباع كثيرة مذكورة بالضراوة، وهو نهر يصب في الغور).

و قال الرحالة الخياري في كتابه تحفة الأدباء (أما ماؤها فهو أعذب ماء وأحلاه، أرقه وأصفاه لا عيب فيه إلا أنه حلو وبارد يشـبه الماء النجل، لم أر له جرياً أو زيادة، ينبع من محل فيسـيل فلا يعلم إلى أين يذهب، وعلى حافتيه أشـجار أشبه شيء بأشـجار الورد العظام هيئة ولوناً وزهراً، فلقد رأيتها مكللة بالورد الجوري، والنصيببي تكليلاً يعجب الرائين، ويذهب بحزن الحزين).

ماؤه عذب زلال ينهمر من موقعين، فيُرى قادماً من وادي عبدون، ومن وادي السـير، ليلتقي الفرعان في السـيل الكبير في قلب عمان، يلفيه البدو

القادمون من نجد، يدخلون من ناعور محاذين السـيل مسـرحين دوابهم، وأبلهـم، لترتـوي في قلب عمان، فـإذا ما ملأوا قِرب السـعن المصنوعة من جلود الماعز بالماء وأخذوا كفايتهم، سـدروا من المسـدار، ولما جاءت أنفس كثيرة إلى المكان، انقلبت المسـدار في ألسنتهم إلى المصدار، البدو شهود على تحويل ناعور إلى مكب نفايات للمدينة الحديثة، حيث لا تمضي أيام قلائل دون أن يتصاعـد اللهب إثر سـكب البنزين فوق النفايات وإشـعالها، وهم مـن يتذكر كيف يعجلون إذا ما مروا بالمنطقة التي يشـغلها اليوم المشـفى الطلياني، هروباً من الملاريا التي توشـك أن تمسـك بالواحد فيهم، فتكون نهايته، على كثرة ما يلاقون من أشـجار الكينا في الطريق، فإذا ما رفع الله غضبـه، وخففـت الأوبئة قبضتها على العباد ممن مـروا كالبدو، أو أقاموا كالشـركس، اسـتمتع الخلق بارتياد نبعة عبدون، أو ذلك النزاز اللطيف في طريق السـلط، صاحبوا الماء فترة، ثم ابتعد البدو خائفين سـطوة الأوبئة مختاريـن ضرب أوتاد خيامهم على بعد لا يقل عن عشـرة كيلومترات عن عمران الشـركس، ويبعد قليلاً عن مضارب الغجر، قلة راقبت كيف بُنيت عمان بالطوب والطين، وسـقفت بيوتها القديمة بالأخشـاب والقصب، أما البيـوت الجديدة فقد شـيدت من الحجر المجلوب من معان، أو رويشـد، أو تلك المقالع المنتشـرة خارج منطقة البيارات، والمـزارع حول عمان، وما رأيـت مهنة الحجّـار تروج وتنتعش في أرض مثلما هـي على هذه البقاع، يجلـس الحجارون القرفصاء في ظل خيمة أو شـادر صوفي، يدقون الحجارة بالأزاميل، محدثين صوتاً له رجع موسـيقي، يعملون خيالاتهم في تشكيل الكتلـة الصلبة بين أقدامهم وأيديهم، فذاك حجر مسمسـم خفيف، وذاك طبزة تبدو شـحفه بارزة، يرفعون البيـوت بالحجارة، ثم يكحلون ما بين حجر وأخر بالإسمنت والصباغ الأسـود، ويبدل العمانيون دعامات أسقفهم الخشـبية بخراسـانات الإسمنت المسـلح والحديد، كما يرصفـون قاعات

البيــوت بالرخام المجلوب من الحلابات، وبالبــلاط المبزر، حيث تتجاور الألوان وتتداخل، ويقلد البناؤن وعمال البلاط فناني الفسيفســاء في العصور الغابرة، وكأنما ما تبقى من البيوت الطينية آيل إلى فناء، وما زالت رســل الحكومة تتابع لآل الآســكر الشــركس، لشراء ما تبقى من بيوتـهم الطينية في قعــر الوادي، فموقع دائرة البريد في إحــدى الحجر الأثرية عند المدرج الروماني صار عبئاً على المكان الذي يعج بطلبة المدرســة العسبلية، ويقول المتقولــون في الســوق إن الحكومة عرضت مبلغ ثمانمائة دينار لشــراء ذلك الطين المعمر منازل لأول من ســكن عمان، وللحق فإن جل أخبار الحكومة، وما تنوي عمله، وما تخطط من تشريعات كان حديث التسالي والسمر لتجار عمــان، وما عمان إلا ســوق يقوم في قلب مزرعة كبــيرة، محاطة بالبيادر، وبساتين العنب، والتين والزيتون، قرية تسعى للتحول إلى مدينة، فتبني لها أســواقاً ومــدارس ومحاكم ومصالح إدارية، ليتجــاور الحجر والطين، وينقل الناس جماليات من ســبقوهم في عمران بيوتهم الحديثة، ويبتكرون طرائــق في رفع العمران شــامخاً منتصباً في طرقات متصاعــدة، أن تبني في جبل، على ســفحه وقمته ذاك أمر يجيده العمانيون، هؤلاء الذين يقدرون أن مدينتهــم قدت من جبال شــم عاليــة، وما هي إلا بعــض هضاب، لكن الزهو بالذات يجعل الســفح المنبســط عالياً فما بالــك وعمان مدورة، تلتف حول الســيل حزامــاً من جبال وأشــجار، كل ما فيها دائــري، كل خطوة وإن ذهبــت إلى أقصاها تردك إلى البدايــة، لا يضيع فيها غريب، ولا ينأى قريــب، إذا ما صعدت فإن مقابــل الصعود الكبير هبوط حاد، الصاعدون إلى قمــم الجبال، القاصدون بيوتهم في العالي، أو مزارعهم في الســفوح، لا بد أن يحنــوا ظهورهم ولو للحظات كي تتوازن خطوات أقدامهم، ولكنهم وهم يهبطون الطريق لا بد أن يشدوا الظهور إلى الوراء، حفاظاً على أقدامهم من الانزلاق، جل شــوارعهم ترابية، ما عدا شارع المحطة المار بموازاة محطة

القطار التي تعتلي سفح ربوة ماركا، وقد كان القطار الذي غير مصير المكان فحوله إلى مدينة بسرعة مذهلة، يجلب البشر من الشام وفلسطين، ويذهب بهــم إلى معان وبيروت، كان يجعل العــالم صغيراً، ويتيح الفرصة للأحلام بأن تكتري لها أجنحة، فتحلق، وترى، تبتعد، تشــرق وتغرب، ثم تعود بوله إلى رحم الوطن.

أســواق المدينــة عامرة بكل ما لذ وطــاب، يحبون الســكاكر واللحوم، ويقبلون بلهفة على كل ســلعة جديــدة، ولكنهم يعتزون بمنتجات أيديهم وصنع نســائهم مما يســمونه حواضر البيت أو التمويــن، يتفننون في حفظ اللــبن، وتحويله إلى جميد متحجر يذيبونه في الماء قبل طبخه ليصير إداماً شــهياً، وقيل إنه طعام قوم كنعان الذين حاربوا اليهود، فحرم هؤلاء اللبن واللحم مجتمعين وقالوا، إنما يأكلون الجدي وأمه.

يعتمــد العمانيون على زيت الزيتون في كل طعامهم، ويعقدون الفاكهة زاداً لبرد الشــتاء، مع أنهم ينأون رويدا رويداً عن أن يكونوا أسراً ممتدة، مكتفية، فيرحبون بالأســواق الجديدة، عندما قام سوق البخارية في صحن الجامع الحسيني تلهّوا بالبيع والشراء عن الصلاة والدعاء، فضج المعممون، أصحاب اللفات، والواضعون أمر الصلاة فوق كل أمر، فاستجيب لشكواهم، ونقل السوق إلى الشارع المقابل ثم سقف بالزينكو، فإذا مر الرجل بمحاذاته أو دخلــه شــتاءً سمع ضرب المطر عنيفــاً متتالياً فوق ســقفه، ومثل ذلك في ســقف سوق السكر، أما المحال التجارية في شــارع الرضا، أو السعادة فقد جمّل التجار مداخلها بما يشــبه الخيمة الصغيرة المصنوعة من قماش مقوى يمنع تسرب الماء، ويحفظ مداخل وقلب الدكاكين من البلل، كذلك كان حال المقاهــي، ولعمري وكأن أهل عمان مغرمــون باللقاء في تلك المقاهي الملاهي، يلعبون الشــطرنج والطاولة والمنقلة والشــدة، ويشــربون الشــاي والقهوة والميرميــة والبابونــج، ويتداولون الحديث حول ما يجــري في البلاد، وما

يجد على العباد، يحلمون ويتنافسـون ويتواصلون، فمن المنشية الكبرى إلى الصغرى، إلى حمدان، إلى المحروم، أما أسواق الحلال فهي تقام كل يومى خميـس واثنين، يأتي الباعـة والمشـترون من كل صوب، يتداولون السـلع الحية بالنقـد، وعملتهم ما بين قرش مصري، وليرة فلسـطينية، وجنيه عثماني من الذهب، وليرة فرنسـية، وريال مجيدي، في سوق الحلال ذاك كما تختلط الألوان، واللكنات، ومختلف المنـابت والأصول، تختلط نداءات البشـر بثغاء الأغنام وخوار الأبقار وحشرجة الإبل، وقد يستعينون بسلع أخرى غير الأنعام لجعل السوق ملبياً للحاجات، فيتداولون الملح، والفحم، والحبال، والبعر مادة للوقود، حتى إذا ما انقضى النـهار ذهب كل بنصيبه، وما ملكت يداه، وأقفرت السـاحة بانتظار انعقاد سوق جديد، كذلك الحال في سـوق الخضار الذي يعقـد كل خميس، يطلق الباعـة عقيرتهم بأطرف النداءات، والأشـعار المنظومـة في رزق الله الوفير من الفاكهة والخضار، لم يعرف القـوم الزهرة والملفوف، إلى أن جاءت من أرض الشـام، وغمر أهل فلسطين السوق بالملوخية، وسد الشـركس حاجة الناس من البطيخ، وتولى السلطيون أمر التين والعنب، فإذا ما انفض سوق الخميس هذا ترك وراءه في العراء آثاراً ملونة، سبخ من السبانخ والخس الأخضر المعوس، ولطع حمراء للطماطم التي يسميها القوم بالبندورة، مفعصة، ومعجونة بالتراب.

لله درُّ عمان ما ألين العيش فيها وأرخص التكاليف، يبيعون عشرين كيلو من دبس العنب أو البلح بدينار، ورطل السـكر الأبيض الفرط، أو المكعبات بأربعـة قروش، وخمس بيضات بقرش، فإذا ما بانت نذر حرب وتبينت، تحسـس التجار الحال وتحوطوا له، فذهبوا إلى احتكار السلع وإخفائها، مما رفع سعر القمح، لم تكتف البنوك بالتعامل بالنقد والذهب وخزن البنك العثماني أشولة القمح، ونافسه تجار جمعوا قمح الأسواق وباعوه إلى شركة يقال لها «سـتيل»، وهي من مصالح الإنجليز في فلسـطين، أعين القوم على

ما يدور بفلسطين، يشعرون أن الأمر يطالهم، ويعني أهلهم، وأن الخطر في عقر دارهم، وأكثر ما يخشون يد الصهيونية التي تمتد لتسيطر على التجارة، ومصالح السوق، فترسل بالعسس والمستفيدين يبيعون ويشترون لصالح اليهود، يدخلون بضائعهم ويشترون الأراضي تحت أسماء مزورة، أو صريحة بصفقات سرية، ولقد رأيت من الناس من تنبه للأمر واحتاط له فطبع الوطنيون المنشورات، ووزعوها على البيوت والتجمعات محذرين من تسلل الخطر تحت ستار الغفلة ودثار الآمان.

صار للمدينة محكمة بعدما تبعت لزمن غير يسير لمحكمة السلط، بنى يوسف السكر المحكمة فوق إثنتي عشرة دكاناً يبيع فيها مستلزمات البيوت من سكر وشاي وقهوة عدنية، واختار المحامون السلطيون شكل وتقسيم الحجرات، رداً على محاولات محامين من طرابلس اتخاذ مقر آخر، كان هدفهم فندق غازي، إلا أن المحكمة قامت فوق السوق على جانبين متوازيين، تم وصلهما بجسر من حديد، يربط بين الحجرات المبنية فوق الدكاكين الست على يمين السوق، والتي يقيم فيها المحامون والقضاة، والحجر التي أقيمت فوق الدكاكين على يسار السوق وخصصت للمراجعات والقضايا وللعامة من المتظلمين والمراجعين.

وللمدينة حمام يقال له «حمام النصر»، أسوة بالحمامات التركية التي عرفها القوم في بلاد الشام، وارتحلت مع العرب إلى أقصى المغرب، وبلاد الأندلس قبل أن يحرمها الأسبان ويمنعوا استحمام المسيحي رابطين الاغتسال بالإسلام، في حمام عمان الوحيد وفي حجرة تحت سطح البناء تسخن المراجل الكبيرة المملوءة ماءً على الفحم حتى الغليان، وترتاد النساء الحمام عصراً، أما الرجال فموعدهم صباحاً، يستحمون ويغنون العتابا والميجنا، ويتبادلون أسرار المدينة، وإذ يكشفون أجسادهم لأعين بعضهم بعضاً، يتحولون إلى أطفال قادرين على التبسط والبوح البريء،

يتقاربــون أكثر، ومن لم يذهــب إلى الحمام قالوا فيــه إنه متكبر جلف لا يتواضــع لله في وصل عباده، ولا يقيم للأخوة والجيرة والمحبة مقاماً ووزناً، وكأن ذاك العري المباح مقياس قدرة البشــر على التواصل، يقوم الحمام عند طلوع المصدار الحاد، قريباً منه في منطقة وسط بين المستشفى والمسجد، قريباً منه، وفي ممر ضيق يقبع أكثر أســرار عمان غرابة، ففي الشارع الذي سماه الناس شارع السرور تقوم دور معدودة لنسوة يمتهن بيع الجسد، أشهرهن مومس يقال لها «فاطمة»، يحظى المكان بالحماية الرسمية والرعاية الطبية، فجل من ينزل المدينة من العزاب الذكور، وصيانة عرض الفاضلات وحماية الحرائر من النســاء تســتوجب الرقيق منهن، وهكذا كان شــارع السرور، وللحق فإن الدخول إليه مشــروط بالســرية الكبيرة، ولما كانت كل جســور عمان في الأحياء من الحديد، فإن جســر الحمام كان يصدر صوتاً لدى مرور الماشــين فوقه، حتى صدر الأمر بتحويل الحديد إلى خشب خفيف، يتحمل وقــع خطوات العابرين، ولا يفضح مرورهم، وكان مبنى المشــفى المرتفع في طوابق أربعة يعني بالتأكيد أن النســوة الغريبــات محصنات من الأمراض بإشــراف طبي متتابع، وهكذا اســتطاع الرجال أن يردوا شــارع الســرور خلســة، ثم يهبطوا إلى حمام النصر صباحاً فيغتسلون وتمحى عن أجسادهم الصغائر والكبائر، ثم إذا نادى المنادي قادتهم خطواتهم إلى المسجد، فركعوا وسجدوا واستغفروا ربهم.

إنهــا مدينــة العجــب والعجاب، الرايــات الحمر والقبــاب، أما من عــف، ولم يرتض على مقامه درب الشــهوات ذاك، فإنــه لابد واجد درباً للمتع اللطيفة، والأوقات الظريفة، وقد رأيت بناظريّ أفنديتها من لابســي الطرابيش والكوفيات، وبدوها من المتشقين خناجرهم على أحزمة الجلد، والمتلفعــين بالعباءات والدوامــر، وكبارها من تجــار ومتعلمين وأصحاب عقــارات وأراض، وصعاليكهــا مــن متبطلين عــن العمــل، وهائمين على

وجوههم، وشعراءها من حافظين لحلو المعنى وجزيل الكلام، وجهالها ممن لا يقرأون ولا يكتبون، وكهولها من بيض اللحى، وفتيانها مرد الوجوه، رأيتهم يخرجون إلى سفوح المدينة، يرتادون مضارب الغجر المسماة بالخرابيش تميزاً لها عن خيام البدو، كما يسمون الغجري بالنوري، أو الزطي، تراهم كلما هل الربيع قادمين من أعالي تركيا قاطعين أرض الشام، ضاربين خيامهم المزركشة الملونة، وكأنها احتفال بهيج في وادي اليابس، أو مزارع عين الباشا، يبيعون ملاقط المجامر والفحم والمقصات، وملاقط الحواجب والمكاحل، والخناجر التي يصنعونها بأيديهم، كما يصنعون أسنان الذهب، ويثبتونها في أفواه الرجال والنساء كأبرع نطاسي، رأيتهم في ليالي الأنس والطرب يتحولون إلى أرواح شفافة، عيون ذكية، وأجساد لينة ترقص، وأصوات عذبة تصدح، وشيخهم الهبر يتجول بينهم مراقباً، وازناً الرجال، موجهاً الفعال، هؤلاء يجمعون أهالي المدينة الساعين إلى تحويلها إلى حاضرة المكان، رأيت بأم عيني المتمدنين من سكان عمان يتنهدون بالآه تلو الآه بعيون دامعة، ويميلون برؤوسهم طرباً، وأكفهم تصحح في انسجام، وأفئدتهم تذوب وجداً، والهبر يسحب وتراً على عود فيحدث احتكاكه بوتر ربابته صفيراً موسيقياً يحض على فرح ممتزج بحزن، والغجرية تغني:

- لأهجر قصرك وارجع بيت الشعر.. وانسى مدينة لو أرضها من تبر..

فإذا ما انفض سامر الغناء والرقص والطرب في الخرابيش وصمت رجع أنات الرباب، عاد هؤلاء لبناء المدينة كما يحلمون بها، يبنونها مدارس، ومستشفيات، وفنادق، وأسواقاً، ومحاكم، وإدارات، وصيدليات، وهواتف، وسيارات، وداراً للبريد، ومقاهي، ودور للسينما، ونوادي رياضية، وجمعيات، وأحزاباً سرية، وأخرى علنية، تتجاور الأشياء،

وتختلــط بصورة مذهلة، وقد لا يبعد معلــف الدواب عن دكان بيع الأزهار بمقرط عصا.

أهــل عمان القادمــون مــن كل مرافئ الدنيــا، يتباينون في مشــاربهم ومطاعمهــم، يتوافقون في أحلامهــم ومطامحهم، ولعمري لم أر في بقعة من الكون أمــة تحلم حلماً واحداً لا يريم إلا على هــذه البقعة العجاب، كأنما الهــارب مــن بطش الفرنجة في ســوريا يحلم بحضن دافــئ رؤوم، وليل لا خوف فيه ولا كدر، ، وكأنما القادم من اضطراب الحال، وعجائب الأحوال في بغداد، يحلم بمستقر آمن على ضفاف سيل منسي، لا هو بالغني كدجلة، ولا بالســخي كالفرات، لكن فيه الكفاية، إني رأيت في عمان بشــراً من كل صوب وحدب، حتى القادمين من أعالي جبال القفقاس، ومن أقاصي قبرديـنيا، كانوا يلقون جذورهم فينــزرعون مثل شــجر اللزاب، هنا لمســني السحر، مثلما لمســهم، فبت أحلم بالأمان وأفكر بالمســتقر، إنها أرض تعيد تشكيل القدر، ينزلها العراقي مشــتعلاً كرمضاء حارقة، والســوري متحوطاً كعين ســاهرة، والحجازي حاملاً أوتاد خيمته، ورسن رحله مستنفراً للرحيل، والمصري متلمســاً متلفتاً خلفه، والأرمني موجوعاً، والشركســي مطعوناً، والفلســطيني حائراً قلقاً على ما ستذهب به مآل أيامه وآتيات لياليه، فإذا بالخلق جميعاً يتماهون دون أن يحتاجوا إلى تقشير جلودهم، ولا أن يدفعوا إلى نبذ ما فيهم من طبائع، تراهم يتواســطون ويعتدلون ويتوازنون، ويأخذ الواحد منهم من خلق الآخر، فإذا بـه شبيهـه، ليتشكلوا أخيراً كما رأيتـهم وخبرتهــم، ومزجت فيهم، لا هم شــديدي الغضب فيبطشــون، ولا ليني القناة فيخنعون، ولا مائعي الموقــف فينبطحون، ولا متطرفي الفكر والفعل فينعزلون، أمة وسطاً.

أذكر إذا ذكرت أيامي الأول في المدينة، عندما أرســلني بعض من عرفوا الديــار إلى نــزل يقال له فندق الســعادة، وهــو بناء طيني يقابل المســجد

الحسيني، خبرت أن رجلاً يقال له فهمي الزعيم، وهو من أقارب حسني الزعيم الذي حكم سوريا، ثم أطيح به جاء إلى عمان بحثاً عن أمان، وجرب فهمي حظه في تلك المصلحة، أراد أن يدير فندقاً، فلم تصلح له ولم يصلح لها، فهجرها إلى أمر يحبه، واكترى دكاناً جعل منه مكتبة يبيع فيها ويعير الكتب والقزيتيات، قدرت أن فندق السعادة ضيق على من فيه من فقراء القوم وصعاليك الدروب، وهكذا قادني رجل يسمونه مسعداً، وما هو بمسعد، رجل بين الدرويش والأبله، فقير الحال رث الثياب، وعر الكلام، حافظ للشّعر، غريب الألفاظ والأطوار، ساذج الحركات، دلني إلى مكان يدعونه فندق غازي، ولم أكن أربط بين الاسم والمغازي حتى عرفت أنه اسم ملك العراق من الدوحة الهاشمية، أما مالك النزل محمد الكردي، فهو فتى طويل القامة، عريض الكتفين، واسع الضحكة، فطن العين واللب، تخوفت من سؤاله عن أصل اسمه، فالناس في تلك البقاع هاربون من منابتهم، راغبون بالانتماء إلى مستقراتهم، لكنهم يحملون في أسمائهم الدلالات الوافية، والمعلومات الكافية، وقد أكرم الرجل وفادتي، واعتبرني ضيفاً في أول إقامتي، وزودني بعناوين أصحاب البيوت، ومواقع السكن لأختار وأنتقي، فأذهلتني تلك القائمة، وكم النساء المالكات للبيوت، واختلاط الأسماء الشركسية بالعربية، وتجاور النصراني والمسلم، فلا تعجبن للمسلم ينادي ولده لأداء واجب الترحيب بالضيف، قائلاً:

- يا ولد تع سلم ع عمك النصراني.

في البدء قسمت المدينة سكانها تبعاً لأصولهم، فهناك حي المهاجرين للشركس، وحي الطفايلة للريفيين الذين جاءوا من الجنوب، وهناك حي للمصاروة، وآخر للسلطية، وللبخارية، ولليمنية، والمغاربة، والمعانية، ولكن مصالح العباد، وحركة السوق تخلط الفلاح بالحضري، وشقران الروس بسمران البدو، والإنكليز بلابسي الطرابيش من الأفندية، والكوفيات

البيضاء من الجزيرة، بتلك المرقطة بالمربعات الحمراء أو السوداء، وتفرز المدينة طبقات تنتمي لثرائها، أو فقرها، فيخرج من أفقر الأحياء ثري يعتلي السيل مقيماً مسكنه بين مزارع الفاكهة في جبل عمان الجديد، أو اللويبدة، ينقسم الأخوة، وأبناء العمومة، وأولاد القرية الواحدة إلى طبقات ومراتب، هكذا تعيد المدينة تصفيف أوراق الحياة، الريفيون في القرية يقولون (ما في قمح ولا شعير)، وكأنما الناس سواسية، ولكن للمدينة شأن أخر، شأن تقوله عمان على استحياء، ولكنها كسواها من المدن تقوله، وتمعن في القول،كلما دخلتها مظاهر المدنية، تقول مثل سواها من المدن، للأثرياء حارتهم، وللمعوزين دنياهم.

يسمي العباد تلك البلاد بالإمارة أو كما يطلق عليها أهلوها، شرق الأردن، والأردن نهر قال فيه ابن الفقيه في مختصر البلدان (قال ابن شوذب، تغور المياه قبل يوم القيامة إلا بئر زمزم ونهر الأردن، وهو الذي قال الله عز وجل فيه (إن الله مبتليكم بنهر).

وقال أبو عبيد البكري في (معجم ما استعجم) (الأردن نهر بأعلى بلاد الشام، وهو نهر طبريه، وأصل هذه التسمية في اللسان النعاس) فما الأردن إلا قطعة من الكبد السوري، تسترخي على خاصرة النهر الشرقية، وترتبط الإمارة بهيلمان الإنجليز، ووصايتهم بما يسمى بالانتداب، يراه الساسة وكالة مؤقتة منحتها عصبة الأمم إلى الإنجليز، الأصل فيها استقلال البلاد وارتباطهم بأمة تساعدهم، وتنير درب مصلحتهم بمقتضى المواثيق الدولية، ويراه الخلق طعناً في استقلالهم المعلن منذ ١٩٢٣، منقوصاً تحت وطأة السيطرة البريطانية، التي وطدت أركانها واستمرأت.

في تلك الإمارة السعيدة، والله أعلم، شعرت بمطامح الحكام في أن يصيروا ملوكاً، فالأمير الذي يسوس البلاد عبد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن عون بن محسن بن عبد الله، ينتهي نسبه في شجرة موغلة في التاريخ إلى

أشرف الخلق، وأطهر الورى، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومن عون تفرعت ثلاثة فروع، هزاع، وناصر، ثم في فرع محمد كانت الإمارة، بداية بإمارة مكة التي خسـرها الجد الحسين فخرج منها نفياً إلى قبرص ليوافيه الأجـل عام ألف وتسـعمائة وواحد وثلاثين، في حين نال ابناؤه شـيئاً من المغـانم، فكان فيصل ملكاً على العراق، وقد قضى الرجل وخلفه ولده غازي في ملك يموج بالشـقاق والقلاقل، وكان لعبد الله نصيب في تلك البقعة، شرق الأردن، وصلهـا هو ذات نهار، وقد انقضى من ذلك القرن عقدان من الزمان وعام، فهبط مترجلاً من عربة القطار التي تحمل الرقم ٤٣٠١٠.

ووصلتها أنا مع مولد الأمير الهاشمي حسـين بن طلال، في الرابع عشر من تشـرين الثاني عام ألف وتسعمائة وخمسـة وثلاثين ميلادية، وكانت البلاد في احتفال.

جئتها أنا سيف الدين الغسـاني العبد الجوال، تاركاً ورائي مقدرات الخطـر، وبـلاداً تتزلزل بما فيها من نـذر الكوارث القادمـة، باحثاً عن مكمـن أمين من زمن لئيـم، لم أع كم تتأجج نار تحت الرماد، وثورة تحت مسالمة العباد، فالخلق الذين تجمعوا في ساحة درج فرعون قبل عام يغنون، ويوقعون بأقدامهم خبطات الدبكة المختلطة بين سورية وبدوية وشركسية، محتفلين بزفاف أميرهم طلال ولي عهد الإمارة والضابط في جيشـه، والذين دبجوا برقيات التهنئة بمولد ولده البكر حسـين، هم أنفسـهم ذات الخلق الذيـن يحتفلون بالمولد النبوي الشـريف على ضربـات الدفوف، وتهاليل الدراويش، وهم الذين يجتمعون سـراً يقرؤن التقارير القادمة من فلسطين، ويدبجـون البرقيـات الذاهبة إلى هنـاك، ويهيئون البـلاد لحراك حزبي مناوئ..وأكثر.

قبل أن أرسـل بطلب أهلي يلحقون بي مـن جبال لبنان، وابتاع داراً في المحطة، حيث أنا بين بشـر وسط، لا هم بالأغنياء ولا الفقراء، وكان ذلك

حالي، أقمت في فندق غازي ما يقارب العام، وقضيت أيام العزوبية أتعرف علـى المكان والعوام، أتسـكع في طرقات المدينة المضـاءة، أصاحب (باثر) الشركسـي، وهو يرفع كأس الإنارة عن الكيس المضمخ بالسـائل المشتعل، ومن شـرارة يقدحها تضيء عمان ليلاً كأنها حلم داهم ذهن النائم، أمضيت ليلي ونهاري ألتقي بالناس وأتأمل طبائعهم، للصدق، كان لدي دفتر ودواة حبر، وما نمت ليلة دون أن أسـجل ما لحظـت وما أظن وأعتقد، ولعل هذا الدفـتر مرجعي وأنا أخط حديث الرحالة، ولحظت آنذاك أن انشـغالي بما يجري في الأسـواق أخرني عن إدراك ما يجري في فندق غازي تحت سمعي وبصري، ولكن القوم وقد اطمأنوا إليّ نزيلاً عربياً نقي اليد والفؤاد، راحوا يتصرفون بعفوية، ويتحدثون دون وجل، كم من ليال شـهدت فيها رجالاً يتسـللون خلسـة، يشـدون الكوفيات على أنوفهم مخفين جل ملامحهم، كأنهـم يحتاطون من البرد، وكانوا في الواقـع يراوغون العيون، يتلفتون في كل اتجاه، ويمرقون سراعاً إلى حجرهم، وسرعان ما لاقى هواي مطامحهم، وتقاطعـت أقدارنا فصرت منهم، في ذلك الفندق الصغير كان جمع يسـمون أنفسـهم اللجنة الوطنية ينشـطون في تهريب الثوار العرب إلى فلسـطين، ويدخلـون تحـت عباءاتهم والدوامـر الصوفية العريضة قطعاً من السـلاح ورزماً من المنشورات، سـتجد طريقها فيما بعد إلى المقاتلين الذين يتصدون للعصابات الصهيونية غربي النهر.

– يا سـادة يا كرام، لم أفهم كيف لكم أن تقوموا بعملكم المريب الملاحق من الإنجليز في هذا النـزل بالتحديد، مقابل مخفر الشرطة!!

ضحكوا من مخاوفي!!

– لا توصي حريص، أحسـن مكان تتخبا فيه كركون العسـكري، مين بفكر إن المطلوبين نايمين تحت شباك المخفر!!

للحـق، تخوفت من منطقهم، ولكـني في الوقت ذاته لم ألمس دليلاً على

فساده، أو سذاجته، فوافقتهم، كانوا في مأمن مقابل مخفر الشرطة حتى خيل إلي أن لهم أعوانهم من أفراد الشرطة أنفسهم، فكيف تغفل العيون الساهرة عن تلك الظاهرة الواضحة وضوح نور الشمس في الصباح!!! تلك فلسفة عمانية، يداري الناس ثوراتهم تحت ظلال أسوار الحرس وكرابيج الإنجليز، يغمض العسكري الأردني عينيه عن بني وطنه ويدعي أنه في حماية الغريب، يتعامل مع الثورة بطريقته العجيبة، وتمارس المدينة حريتها ووطنيتها تحت أعين السياط، إنها حيلة ملساء في الرفض والمقاومة، مسالمة أشد خطراً من المعارك، تخفي وراء آكمات الصبر والرضا قدرة على مقارعة الزمان بثبات، كما تنحت قطرات ماء صبورة جلمود صخر.

المواطنون الذي يتسلون في السهرات برصد تحركات تلك الفئة من الناشطين، بعضهم ما زال يرى في تعديل الاتفاقية البريطانية - الأردنية أمراً بعيداً عن الطموح، وبعضهم لا يقدر على نسيان أحداث مرت منذ سنين، يتحدثون عن نزول أكرم زعيتر إلى عمان موفداً على جناح السرعة من فلسطين ممثلاً لحركة الاستقلاليين هناك، فيلتقي الطبيب الذي يتعاطى السياسة، صبحي أبو غنيمة، في عيادته، ويتدارسون أمر المؤتمر الاقتصادي الذي يعد له ثلة من التجار والمنتفعين مع أسياد التجارة في العالم، اليهود، ليعقد في السلط، فإذا ما تصدى أبناء السلط للأمر ورفضوا عقد مثل هذا المؤتمر في مدينتهم، ووقعوا على عريضة تستنكر وترفض الأمر، نقل المنتفعون بالمؤتمر أعماله إلى عمان متوخين حماية الانتداب لخطواتهم، لهذا اجتمع آنذاك مندوب الاستقلاليين من فلسطين بأعضاء حزب اللجنة الوطنية من شرق الأردن، وسواهم من العرب الأحرار، وخرجوا بوثيقة مقاطعة انتشرت مثل النار في الهشيم، ألصقت على أبواب المتاجر والمقاهي، ووزعت بأيدي الصبيان والطلبة والنسوة، الأولاد مروان وغالب وعزمي وأنزور ألصقوها على جدران مدرسة الصناعة ومدرسة التجهيز وحائط المستشفى الطلياني

والمشـفى الحكومي، وعند مدخل النادي الرياضي، وعلى الأعمدة الرومانية وأدراج فرعـون، والبنات لميا واعتدال وفايـزة ورفقة ألصقنها على جدران المدرسـة الإنجليزية ومداخل بيوتهن، ووزعنها في اسـتقبالات النسـاء، مسعد ترك نشرة على حائط في وادي السرور، وزين درب الحوريات بشريط منهـا كأنه حبل من القصاقيص الملونة علقت احتفالاً بعودة حجاج بيت الله الحرام، وعنـد أبواب الدكاكين كانت الوثيقة تعلن المقاطعة التامة للمؤتمر الاقتصادي العام، وتؤكد مقاطعة مدنية لكل مشارك في هذا المؤتمر، فلا من يشـتري أو يبيع معه، ولا يزار، ولا تفتح له أبواب الجيران والخلان، ولا يرتبطن معه أحد بأواصر النسـب، مطرود من جنة العمانين كل من سيضع كفه في كف صهيوني، أو يتعاون مع طامع، وإذ استهان المنـتفعون المنظمون للمؤتمر الاقتصـادي في تقدير مفعول تلك المقاطعة، وأمر من حرضوا عليها ومن توجهت لمخاطبتهم، فإنهم عقدوا مؤتمرهم في تحد سـاخر، افتـتحت أعمال المؤتمر، ثم اختتمت في ظرف ساعة وسط وجوم ودهشة كبيرين.

حينها نجح الوطنيون في تنظيم معرض صناعي عربي لأول مرة، وشاهد تجار عمان البضائع العربية تغمر الأسـواق، ورغم أن الملاحقة السياسـية اضطـرت صبحي أبـو غنيمة لإقفـال عيادته والهروب إلى دمشـق، إلا أن العمانيين باتـوا أكثر حذراً عندما يتعلق الأمر بالبيع والشـراء، يقولون، هناك ذمم تشـترى، وجبنـاء يـبيعون أرضهم لليهود، وعائلات وعشـائر تعلـن براءتها مـن كل مـارق، أو عميل يتعامـل مع الطامعين، وساسـة يتلاعبون بمصائر الشـعوب، كما أن هناك مـرارة تؤدي إلى نهوض حركة جديـدة، تنادي بأن البلد لأبنائها، وتطالـب بالتخفيف من الاعتماد على الغريب، وإعطـاء أبناء البلاد حقوقهم في الوظائف والتعليم وإدارة البلاد، تنمو حركة من الوعي المشحون بالحماس والانتماء العروبي دون ان تتناقض مع الشعور بالذات قوياً أصيلاً..

تنبه الإنجليز إلى ما يحدث، أدركوا أن ماء السيل يشتد في الباطن كما يموج في الظاهر.

والإنجليز في عمان حكاية، بدءًا من شعور الخلق أنهم المتمكنون المتحكمون بأقدار البلاد والعباد، وأنهم لا يوفون شروط الانتداب حقها، ولكن يرتعون في مزرعة لهم، وانتهاءً بمقارنات تأتي دائماً في صالح الإنجليز حين يستعرضون بطش الانتداب الفرنسي في سوريا، ولما كانت الحياة تمضي بهم، وبدونهم، كما يقول تقي الدين كبير التجار في السوق فإن الشباب المتعلمين لا يريدون لهذه الحياة أن تسير تحت قيادة الإنجليز، أو كما أرادوا وخططوا، كانوا يعقدون مؤتمراتهم يناقشون أوضاعهم في فندق الكمال ويطالبون بحكومة وطنية وبالاستغناء عن المعارين من موظفي الحكومة ممن جاءوا من خارج شرق الأردن، كما يطالبون بتأجيل قروض البنك الزراعي، يعملون على العام والخاص في آن معاً، ثم يلتفتون تماماً إلى الكارثة التي بانت نذرها في فلسطين، فيطالبون بالحد من بيع الأراضي لليهود، ويحذرون من وعد بلفور الإنجليزي للصهاينة بإنشاء وطن قومي لهم في ديار العرب، منذ ذلك الأوان والإنجليز يكشفون عن ملامح استعمارهم، يدفعون بالأمير إلى مقدمة الصدام، وقد يخونهم صبرهم، وبرود طبعهم، إذا ما استفزوا، عندها يتقدمون كاشفين عن عنجهيتهم، ويجاهرون باقتدار يجعلهم الحاكمين المخططين، المطالبين بالولاء والإذعان، وإلا!!!!

فقد الإنجليز رباطة الحكمة، وجن جنونهم عندما قُتل لهم ضابط يدعى مكادم في قرية كفر أسد، وكأنهم خافوا نار التمرد على الفرنسيين في الرحاب السورية يعلق في هشيم السكون العماني، فإذا بالقائد بيك يتعامل بصلف مع الموقف، ويعتقل كل من تسول له نفسه بالتظاهر.

لن يشفع لبيك الإنجليزي هذا أنه أدخل الموسيقا إلى موسيقات الجيش،

فما علم الجنود عزفه هو في مرجعيته أنغام اسكتلندية، ولن يشفع له أن جاء بشجرة الصفصاف إلى المدينة، فجّمل بها حدائق قصر رغدان، وشوارع جبل اللويبدة وعمان الجديدين، لن تشفع له حكاية عشقه لزوجته الصغيرة التي يحب التباهي بها، وسيتقول الخلق حول زياراته المتتالية إلى مضارب البدو، وقوله أنه يؤلف كتاباً عن عشائر شرق الأردن، وسيتهامسون أولاً، ثم يجهرون بالقول مؤكدين بأنه يرتدي كوفيته البيضاء والثانية المرقطة معاً تشبهاً بالأمير، ويغسل كوفياته بمنقوع الشاي حتى تكتسب لونا ترابياً أقرب إلى الاتساخ، فيحتال مدعياً أن رحلاته في الصحراء تركت هذا الأثر على قماش الكوفية، ولن ينجو المعتمد البريطاني هنري كوكس، ولا كلوب باشا المسمى أبو حنيك من السخرية، ولا المندوب السامي المختص بشؤون المنطقة آرثر واكهوب، ولا حتى عصبة الأمم نفسها، والتي يسميها العوام عصابة الأمم،كل هذا الهيلمان يحوله أطفال عمان إلى أناشيد ساخرة تحفل بالشتم البذيء، ويناقشه الكبار مهمومين مدركين أن صيحة الحرية لا بد أن يكون لها صداها في هذه الديار، كان اكتشافي لحجم الغليان الراكد تحت السطح الساكن مدهشاً، إنها عمان الهادئة الناعمة، التي لا تُهمِل ولا تنسى.

ولأن الوطنيين راحوا يرفعون أصواتهم أكثر، وبات لهم تأثيرهم الملحوظ في المجلس التشريعي الذي طالب في اجتماعه في نيسان ألف وتسعمائة وسبع وثلاثين ميلادية بتعديل الاتفاق الأردني البريطاني، فإن الإنجليز أظهروا كل ما يملكون من صفاقة، رافضين مطالب الناس الذين راحوا يتكتلون، فقبضوا على الشباب المتظاهرين، واتهموا الوطنيين بأنهم يحرجون الحكومة البريطانية بإخفاء المناضل السوري رمضان شلاش في عمان، بينما تطالب فرنسا برأسه بعد صدور حكم الإعدام ضده، وقد تبارى العمانيون في تضليل العسس الإنجليز، فروجوا مرة أن شلاش يختبىء في مزرعة مكرم

السلطي، وصعد جمع منهم وراء الجند يراقبون اجتياح العسكر للمزرعة، وانتشارهم المضحك بين أشجار الزيتونة،ومرة قالوا إنه نزيل فندق غازي، ووقفوا أمام المخفر ينتظرون خروج الجند خاسرين، ومرة أكدوا أنهم رأوه يتناول فولاً مدمساً، ويغمسه بأصابعه برفقة مسعد الدرويش في درب الحوريات، يومها وقف الصبية والكبار يراقبون الرجال يبحثون وراء الأحجار الكبيرة وفي مرقد مسعد، عندما خرج الضابط متفحصاً وجوه العامة المتجمعين أدرك اللعبة، وهو يرى أنصاف ابتسامات ساخرة على الوجوه، وإذ لحقه عسكره ضاربين الأرض ببساطيرهم رافعين بنادقهم، ضج الجمع المحتشد بالضحك، وقال رجل:

– خلصت الفرجة، خلنا نروح القهوة نتسلى بلعب المنقلة وإلا الشطرنج.

ورفع عبد الرحمن عقيرته بغناء الجوفية، وراح الفتيان يرددون خلفه:

– يا أبو رشيده قلبنا اليوم مجروح جرح غميق بالحشا مستظل..

عشية توديع عمان للمجاهدين السوريين العائدين إلى ديارهم، تجرأ مالك سينما البترا على تحويل صالة اللهو والاستمتاع إلى صالة للخطب السياسية، ، يومها رأيت سلطان باشا الأطرش، واسمه يطن كالطبل، وهيبته تجعل المكان مشعاً، وهو الذي لجأ لشرق الأردن بعد احباط ثورته فقضى سنين في جبال الكرك، ثم توجه إلى عمان قاصداً العودة إلى دياره، يومها جاء نفر كثير من فلسطين يودعونه، وهو عائد لمواصلة نضاله في جبل الدروز، ووقف العسكر المرسلون من قبل الإنجليز على بعد ضئيل من الصالة، يرقبون ويسمعون صوت عرار يلقى خطاباً نارياً، ليلتها همس أحدهم لرفيقه:

– بكره من الصبح بعطونا مضبطة مشان نجره على الحبس، والتهمة

كالعادة.. الإساءة للمقامات العالية، وهيك الشاعر بمضيها خري مري، يوم بالحبس ويوم بالقصر.

ويرد رفيقه متـثائباً:

– وشو عليه؟؟ بنروح، بكون المنعون متخبي بالمستشفى الطلياني، قال ايـش مريض، إذا وقفوني حارس ع بابه بكيّف، منسـف داخل، منسـف طالع، ولو تشوف هناك المرضات رايحات جايات، إشي ببل القلب.

يتـداول العمانيون الأخبار، ويطيـر الأمير إلى لندن لحضور احتفالات تتويج ملك بريطانيـا جورج السادس، فيما يعمل نواب المملكة العظيمة على أن تسود الاحتفـالات في كل مناطـق الانتـداب، ويمر الاستعراض العسكري عنـد المـدرج الروماني، فيقطع العسـكر الكنافة في الصواني المدورة الكبيرة يوزعونهـا على المارة الذين جـاء بهم الفضول، أو التحـدي يمتنع الكبار عـن تناولها واضعين أكفهم على صدورهـم صادين المضيف، أما الصغار فقد ينهشـون ما يقدم لهم، ثم يركضون وأفواههم مملوءة حتى أخرها بالكنافة اللذيذة هاتفين:

– يسقط وعد بلفور، يسقط الملك جورج.

يمتنع العسكر عن ملاحقة الأطفال، بل يضحكون للدعابة، يؤمنّون على الهتاف في سرهم، ويرد الشـارع على احتفالات الإنجليز بصورة مغايرة، فحفل التتويج تزامن مع المولد النبوي، ولم أشـهد في حياتي كلها مثل هذا الاحتفال على كثرة ما رأت عيني في القاهرة ودمشق وبغداد، وتلك العواصم سادة الاحتفالات الشـعبية ومركزها، أما هذا العام فإن العمانيين احتفلوا بالنبي بصورة تغاير كل احتفال أحيوه من قبل، لم ينقطع اللعب بالسيوف على باب المسجد الحسـيني، واستمر الغناء والرقص حتى ساعات متأخرة مـن الليل، فإذا أنُهك الدراويش في تهليلهم، ودورانهم، ومدائحهم، تقدم قارعو الطبل، وإذا انتهى هؤلاء برز شباب الشركس، وإذا ما توقفوا، تقدم

رجــالات عجلون والرمثا في دبكــة لا تنقطع إلا وتحل محلها دحية البدو، وجاءت النســاء إلى الســاحة حاملات الأطعمة، فُوزعت البقلاوة والغريـبة والعوامــة، ونثر التجار حبات الملبس الفصيليه والمخشــرم، حمصاً مغطى بالسكر، وحلوى التوفي على رؤوس الحاضرين، ووزع الأثرياء منهم النقود حتى أن مســعداً ليلتها حصل على عشرة دنانير من مصادر متعددة، وأقسم أنه لم يحمل في حياته مبلغاً مثل هذا، وصاح على رؤوس الأشهاد:

– هذا كله من بركات النبي.. صلوا وسلموا عليه، حي.. حي.. وشوكة بعــين الملك النجليزي جورج، وخلي أبو حنيك يدق راســه بحيط رغدان، وعلي النعمة كل قرش أخذته اليوم غير أعطيه للفقرا والمساكين.

وقد رد عليه الحج تقي الدين:

– ولك كل هوا واســكت، هو بي أفقر منك؟؟ ما غير اشــكر ربك وروح تبحبح بالقرشين.

لم يغمــض للعمانيــين جفن ليلتهــا، وفي الليالــي القادمــة ناموا نوم الذئاب، عين يقظة وعين ناعســة، فالإنجليز شــوكة في الخاصرة، واليهود ظــل ثقيل يتحــرك منذراً بالوبال، وقــد بكى من اســتمع إلى افتتاح إذاعة فلسطين،والخطابات تُلقى بلغات ثلاث، العربية، تلك التي تعرفها الأرض جيداً، والإنجليزية، تلك التي تزج بذاتها وجوداً مفروضاً وواقعاً مرفوضاً، والعبريــة، تلــك الغريـبة، المنــذرة بالوبال، المحاطة بغمامة من الشــك والوجع، ومضت فلسطين تقدم كل يوم شهيداً.

لم يعد لي أن أقول عن الخلق أنهم العمانيون، لقد صرت منهم، وصاروا ناســي، وبت أتحرك مثل حراكهم، حذر واستهانة، مرونة وغضب، يوم لقلبي، ويوم لربي، وجل أيامي للبلد.

حديث المطر

(وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته، وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً، لنحي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا (سورة الفرقان - ٤٨-٤٩).

وجاء في سنن الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم.. (حوضي من عدن إلى عمان البلقاء، ماؤه أشد بياضاً من اللبن والحليب، وأحلى من العسل، وأكوابه عدد نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين، الشعث رؤوساً، الدنس ثياباً).

كتب بيركهارت الرحالة في كتابه (رحلات في سوريا).

(أُخبرت أن هذا النهر يضيع في الأرض ساعة من الزمان قبل النبع الذي يعيده ثانية، وبعدها يأخذ اسماً هو عين غزالة، ثم يختفي ثانية، ويعاود الظهور قرب منطقة أثرية تسمى رصيفة، وبعدها قيل أنه يختفي للمرة الثالثة إلى أن يظهر بعد ساعة تقريباً إلى الغرب من قلعة زرقا، أو قصر شبيب قرب نهر زرقا، حيث يصب هناك).

٣٠/أيلول / ٢٠٠٢

الهواء ساكن وثقيل وساخن، والجفاف يقشر المدينة على غير عادة نهايات أيلول، أناملي خشنة، وشفتاي مشققتان، الظمأ يباغتني، أحسه في حنجرتي وجسدي، كأن الموجودات صارت حجراً، أجرع شربة من عبوة قارورة الماء المشتراة، والمتصلة بالبراد الكهربائي، ما زال الجفاف يتسيد الهواء، أدعك كفيّ، وأمسح شفتي بكريم " كليب " المرطب، أجفف أناملي بعناية كي أتمكن من التعامل مع (الكي بورد) في جهاز الكمبيوتر، دون أن تنزلق فوق مفاتيحه، يخيل إلي أني أسمع نقراً غامضاً لماء غزير على سقف بيتي، وخرير سيل يجري في المنعطف المحاذي لنافذتي ...أصوات قادمة من البعيد.. البعيد.

٣٠ /أيلول/ ١٩٣٨.. شهر جاف، خيب انتظار المزارعين الذين يؤمنون بذيله المبلول ويعدونها سنة الحياة، طوى أيلول ذيله بطيئاً مشفقاً على ما هو آت، لكني، أنا، المطر جئت على مهل.. واعداً.

أول الغيث قطر، ومن الماء يجعل كل شيء حي.

رششت الهضاب والوديان، وحجارة المنازل بقطرات ناعمة، ففاح رحيق تنتشي به الروح عند أول بشائر البلل، ولقاء التراب بمائي، ، تبللت الياسمينة التي تعربشت شرفة بيت الست نجمة، في الداخل أشعلت نجمة بابور الكاز، دكّت مفتاحه مرات لتدفع بالكاز إلى أعلى رأس البريموس، خرجت الشعلة مثلومة، فنكشت فتحات الرأس بالنكاشة مزيلة كتل الشحبار التي تجمعت، وعندما استوت الشعلة مستديرة، ومصدرة وشاً منتظماً، ذرفت نجمة دمعتين وهي تنظر من بوابة البلكون الزجاجية متتبعة استرخاء زهر الياسمين على امتداد الجدار، فكرت فيما يفعله الولد غالب الآن في بيروت، خيل إليها أن الفتى هرب بسببها، لم تتعود نجمة على معاتبة ذاتها، ولكن تلك الأفكار تنبعث مع انهماري، لعلها لم تلتفت إلي الولد في الآونة الأخيرة، كأنها نسيت أمومتها، جاءها صوت تقي الدين متسائلاً:

– بعد المي ما سخنت!!

رفعت قلن الماء فوق مثلث البابور ليسخن، وأفزعها هذا الارتخاء في همتها، والتسليم بالحزن يذوب في أعماقها، جاهدت لرسم الابتسامة على شفتيها، والخروج مما هي فيه، قبل أن تعود لتجالس زوجها شاردة الذهن، أبو عبد الرحمن يفهم ما بها حتى انه اعتذر لها عن الاستحمام في بيتها كأنه أمر لم يحدث من قبل:

– لقيت الطريق صعبة من هون للحمام، هسه بتكون طريق المصدار مطينة، قلت أتحمم هون، غلبتك..

هزت رأسها:

- البيت بيتك، غلبتك راحة.

لا يغلق صاحب الحمام أبوابه شتاءً، رغم أن الداخلين القلائل ينقلون إلى بلاطه كتلاً من الطين والقذارة، فيواصل صبيانه تنظيف مخلفات الأحذية بجلد وصمت، مائي يتقطع وصلاً ومنعاً، والهواء بارد في الخارج، لكن البخار الساخن يتصاعد داخل الحمام، يجلس أحدهم في الصالة الخارجية، وقد لف جسده العاري بمنشفة كبيرة بانتظار أن تنكمش مساماته المفتوحة قبل أن يخرج إلى الهواء، في الداخل أربعة يستحمون، لن يكف العمانيون عن التمتع بملامسة الماء لأجسادهم، يشير أحدهم للصبي أن يحك ظهره بهمة أكبر بكيس الحمام الأسود الخشن، ترتسم خطوط حمر فوق الأجساد العارية، ولا يكف صبيان حمام النصر عن إهدار المياه فوقها شتاءً كما في الصيف.

- صب يا ولد، اسخى، هو انت جايب المي من بيركم!! ول عليك شو نايط، صب زي الناس، هاي مية الله..

أمسك عن الهطول في الخارج لساعة، ويظل صوت خرير الماء في الحمام..

- طول عمر المي بتنزل من العالي للواطي، الكهربا غيرت الدنيا، هسه المي بتطلع طلوع، يا عمي العلم نور، وإلا كيف طلعت المي بالمواسير على الجبال!!

- يا عمي المي لناس وناس، أهل عمان واللويبيدة والقلعة.

- وحد الله، ما هم بقولوا المشروع بده يوصل ماسورة وحنفية لكل دار، اشكروا ربكوا.

- تا نشوف بعيونا، مثل ما بقولوا تا يجي الصبي بنصلي عالنبي.

- يا بيه..أكالين نكارّيين!! بعلمي المي وصلت دارك.

- العبرة تصل كل دار.

- بكرة بتشوف ما بظل سقا ناتع تنكات المي ع ظهر حماره، والنسوان اللي الله شاقيهن بشتغلن حمالات بين البيوت برتاحن.

- مين قالك برتاحن؟؟ الله يعين الناس، كيف بدبروا حالهم!! هي لقمة الخبز بتيجي هيك عالبارد المستريح.

يدخل زبون جديد إلى صالة الانتظار، يخاطب أبو حشيش صاحب الحمام الجالس إلى كرسيه يعيد حساباته:

- والله ما ني داري شو جابني يا حجي، الدنيا بره.. كب من الرب.

يرفع أبو حشيش رأسه مداعباً:

- أقله بتدّفا عنا.

يخرج الثلاثة الذين أنهوا حمامهم ملتفين بالمناشف، يقول أبو حشيش:

- نعيماً.. ريته حمام الهنا.

- ينعم عليك.

- خاف الله هالشتوة كبيرة، متذكرين من قيمة سبع ثمن سنين، يوم شتت، وبعدين ثلجت، هذيك الثلجة الكبيرة، وبعدين زلزلت.

- سنة الهزة.. ما هو من هذاك اليوم، والناس بطلت تغني، هزي هزي.. بالله تهزي محرمتك..

- الشر بره وبعيد، يا زلمة لا تجيب طاري هالغنية ع لسانك، سنة ما الناس غنتها صارت الهزة..نزعت القعدة والحمام، خلنا نروح قبل ما ننقطع.

تنام عمان تحت بهجة ومخاوف انهماري مجدداً، وتقضي رمضان بارد فأجود ماءً وحباتٍ من البرد المثلجة، تشوي النساء حبات الكستناء على صواني مدافئ الحطب والفحم، يخرجن المؤونة من المربى الذي عقدنه،

والحبوب التي خبأنها، حتى يجيء العيد فأزداد سخاءً وكرماً، ويشعل مسعد حطباً في درب الحوريات، فيلمح المارة المسرعون وسط العتمة تراقص الضوء المنبعث من كهوف الدرب، يعرفون إنه هناك، ويقفز عبد الرحمن فوق البركة المطينّة التي تشكلت أسفل الدرب، إصراره على حمل مظلة العيد التي ابتاعها من متجر السوداني متباهياً، أفقده توازنه، شعر بالغيظ، وشد المسمار المثبت بعصا المظلة، فأغلقت كاشفة رأسه، وجسده لمائي المتساقط، نادى بأعلى صوته:

– ولك يا مسعد.. إنت هون؟؟

اختلط نداؤه بقرقعتي، وغاصت جزمته البلاستيكية في قلب البركة، لم يعد التحايل على الاتساخ والبلل يجدي، خاضت الجزمة بمهارة في الماء، تردد عبد الرحمن في مواصلة التقدم إلى الدرب إلا أن تردده لم يطل، ضم مظلته إلى خصره، كذلك فعل بالكيس الذي يحمله، ولما صار في ملاصقة الحائط الأثري، ارتكز عليه هنيهة، وسار معه متكئاً على الحجارة المرتفعة، ثم بخفة هر قفز داخل الساحة، صائحاً بغضب وهو يرى النار المشتعلة، واللهب المتراقص أسفل الأقواس والسقوف:

– كمان ما بترد يا خويته..!! ما بكفي جايب لك سم الهاري توكله يا مدود.. ولك يا مسعد.

نظر مسعد نحو زائر الليل نظرة خاطفة، ثم عاود تثبيت نظراته على الحطبة التي صارت حمراء تماماً، وأنارت ما حولها من فضاء كالح، كان ينتظر بهدوء تحول الحطب إلى رماد..

أسند عبد الرحمن المظلة إلى الحائط، وفرك كفيه فوق الفحم المشتعل، ثم أخرج من كيسه رغيف شراك كبير صنع على طابون أمه، رماه باستهانة قرب النار، واضعاً فوقه قطعة من الجبن، منقطة بحبة البركة.

– ما بترد عليّ!!! يخرب بيتك، ابن كبير التجار بذاته جاي لجنابك

يا مقلعط، يبارك لك بالعيد.. بلبقلك! ! وما بترد! ! رايح تموت من الجوع يا مسخم، هو الرغيف جافر صحيح، بس هاذا اللي جاك، كل، دفي جوفك، ما لك مبلم؟؟ ما لك وله؟؟ أي..هاذا المطر طير عقلك، عليّ النعمة انك هبيله مثل ما بقولوا .

في الشــهر الأخير من عام ألف وتســعمائة وثمانية وثلاثين ومع بداية المربعانية، أصبت بلوثة ورغبة عارمة في هز أعطاف المدينة النائمة، كأني أهاجمها، في البداية، خلخلت الريح أســقف بيوت الطين المبنية عند سفح جبل القلعة، أما الأسقف الخشبية المشدودة بالحبال المتينة والملُيّسة بالطين والشــيد معاً، فقد صمدت إلا من دلف طفيف هنا وهناك، وكان مائي يكلل قرميــد بيت الحاج محمــد المفتي الأحمر، كأنه مظلة رشراشــة، وصمدت بيوت الباطون والحديد المســلح في جبل عمــان الجديد وجبل اللويبيدة، وقد التمعت حجارتها البيضاء المكحلة بالإسمنت تحت ضرباتي، فكأنما ينبعث الضوء من الحجارة المغســولة، حتى الدكاكين التي حظيت بأســياخ الحديد والتراب والكلــس لم تتأثر، بدت عمان جميلة كلؤلوة في مهرجاني، وتبدا وجه الرحمة على الماء أياماً، قبل أن يتســنى لي الكشــف عن وجه الطبيعة القاسي.

انحدرت المياه من وادي عبدون ووادي الســير إلى قلب السيل، والتقت السواقي المتهورة النزقة بالرافدين الكبيرين أسفل الوديان المتعرجة، هدرت ســاقيتا ناعور ومصدار عيشــه مجتاحة وادي خريــس، ووادي الحدادة، والنهر الذي اعتاد المرور من رأس العين، فسوق الحلال، فالمصدار، فجسر المهاجرين، فالســوق التجاري، فجسر الحمــام، فســوق السكر، ثم ساحة الخضار، وجســر العسبلي، وجســر المحطة حتى الرصيفة، فاض إلى حد أن الماء ضرب سقف قناطر جسر الحمام والعسبلي، وتدفق مجتاحاً الدروب التي شقها البشــر شوارع بين متاجرهم وبيوتهــم، في القاع عانــت

الدكاكين في سـبيل اسـتمرار أعمالها وبخاصة وأن سـيلاً طينياً جارفاً حمـل في اندفاعه الكثيف الكثير من الخشـب ومخلفـات البضائع المهملة التي تكدست سابقاً وراء البقالات، وفي حاكورات الحارات، واصلت هطولاً عنيفاً، وتجمعت سـيولاً من كل الاتجاهات انتهاءً بالسيل الكبير عند رأس العين، حيث كل الأشياء تعود إلى رحم المدينة.

وجـه الأباء تحذيرات جـادة للأولاد، مانعين إياهـم من الاقتراب من السيل والحوامات، وراح مروان ينتظر انقشاع السحب ويأمل انقطاعي حتى يهرع إلى السـيل صباحاً، خطط لإغراء كل الأولاد في جبل القلعة، ليهبطوا معاً إلى السيل، هذه المرة دون غالب، يفكر مروان بالسبب الذي دفع صديقه الحسـاس للهرب، أهو غرامه بالشركسـية، أم جنونه المسـتتر! ! لا شك أن به شـيئاً من الجنون، وإلا كيف يسـلم قلبه بهذه السـهولة للعواطف المحزنة! ! يلوم مروان نفسـه قليلاً، ثم يسامحها محملاً صديقه مسؤولية قلبه الواهن، ويشـعر بحسـد مفاجئ من غالب الذي صار في بيروت بعيداً عن كل القيود، لكنه سـرعان ما يطرد ذكرى صديقه بإيجابية كاملة، وهو يخطط للمسـيرة إلى السـيل إذا ما توقف انهماري، قرر أن لا يسلك ورفاقه جسـر الحمام، قد يكون أحد معارف والده المستشيخون أو التجار الوشاة، خارجاً من الحمام أو ذاهباً إلى المستشفى الطلياني، سيذهب عن طريق جسر العسبلي، ملقياً التحية العسكرية صوب قصر الأمير، من يدري! ! قد يقرر أن يلتحق بالعسكر ويصير منهم، مثل والد أنزور، عندها لن يتمكن أحدهم من اسـتصغاره ولا حتى والده نفسه، أما غداً، فسـيتفرج على الماء متقافزاً على درج فرعون، كل عقاب لا يسـاوي تلك المتعة التي سـتعتريه والسمك ينحشـر في قلـب الفانلة ويحاول الإفلات، لا يسـاوي النصـر المؤزر الذي يجعله ملك الحارة والأولاد يهللون معجبين بالكمية الأكبر التي يصطادها من الأسماك.

هادنت المدينة ساعات متفرقة، لم يبد هجومي عدائياً في البداية، كان أقرب إلى ما يسميه الريفيون بالخير العميم، فإذا ما أغلقت الكوات في فضاء المدينة استرخى الناس واستمتعوا بمشاعر غامضة، وعملت ماتورات الكهرباء الجديدة بكفاءة عالية في ضخ الماء وتجميعه في حاووز راس العين ثم رفعه عبر المواسير الجديدة التي مدتها البلدية إلى الجبال الجديدة، في حين واصلت سيول الماء المتجمع من الجبال انحدارها بكثافة، وصولاً إلى درج فرعون لتصير شلالاً ضخماً بهيجاً، وتجول عبد العال خليفة مأمور مكافحة الملاريا في حارات البلدة وشوارعها التجارية، مرتدياً بوطاً بلاستيكياً أسود يصل حتى أعلى ركبتيه، عادة ما تعني جولته أن سيارة البلدية سترش المنطقة المحيطة بالسيل بتلك السحب الخانقة للبشر، القاتلة للبعوض.

– بدكو تصلحوا لمبات اللوكس؟؟ كلها تكسرت، سلامتك، ولا ضوء، عمرنا ما شفنا هيك شتوه، كمان كل صوان وبحص الشوارع انسحب مع السيل، صارت لبُيصّه شوفة عينك، ما تزفتوها أحسن؟

– هاذا مش شغلي، أنا بس مسؤول عن البعوض، اللوكسات والزفتة إلها ناسها بالبلدية.

– وينهم، ما حدا طل يعني؟؟

– يا أخوان طولوا بالكو، ، أنا رايح أخبر عن اللي شفته، بس إذا صلحنا هسه بتعود بتخرب،

بعدها المربعانية بأولها، لسه الخير لقدام.

– صحيح بدير بده يستأجر ماتور المطحنة تا يساوي لمبات كهربا بالشوارع؟؟

– شو بعرفني؟؟

– دخلك لمبات الكهربا بتتكسر؟؟

- شو بعرفني؟؟

يخاف أهل المدينة خير الشـتاء، الفلاحون فقط يفرحون بي، يستعدون لمواسـم القمح والخضار والفاكهة، أما أهل عمـان فيتوقون لفتح المحلات، والشتاء في أوله.

تأكـد تامبي مـن أن ثوريه لم يغرقا بالماء الذي تجمع في مخزنه أسـفل العمارة، حفر مصرفاً صغيراً في أسـفل الحجرة، ومرره تحت الباب مراقباً سـيلان الماء إلى الخارج، كان متأكداً من أن نجمة مالكة المنزل سـتغضب، وتعتبر فعلته تخريباً في العمران، ولكنه لن ينتظر حتى يموت ثوراه غرقاً، أما الذي يثير رعبه إلى هذا الحد فهو ذكرى عام الثلجة، عندما كان يسكن عند أسـفل جبل القلعة، يتذكـر اهتزاز الأرض تحته، والشـق الذي فتح حجرته على الفضاء، وكيف اندفع وأسـرته إلى العراء هرباً من الموت تحت ردم الطين، يشـعر الآن أيضاً بالوجل، ماذا لو انهار هذا البناء الذي يركبه بناءان آخران؟؟ لعل نسـيبه تيمور يشعر بالحبور! ! استغفر ربه، وأغلق باب المخزن، تدثر بعباءته الصوفية جيداً، وهو يواجه الانهمار من الأعلى في اللحظة التي مر فيها مكرم السلطي وولده.

- وين يا مجنونة بها لمطر؟؟

بدا مكرم حائراً مرتبكاً، ولكنه أزاح ولده مصطفى من طريقه منزعجاً، هذا الولد لا يخجل، يسير أمامه تاركاً إياه يتعثر في الخلف، تدارى الثلاثة تحت حائط المنزل.

- هلا يا اخوى، يا أبو شركس، الله بلاني، قلت أجيب الزيتون لدكان أبـو عبد الرحمن، علقنا والله علقنا بهالطين والمطر، والله ماني عارف كيف بدنا نرد الجبيهة.

- لما بوقف مطر بتردي، هلا.. تفضلي بداري، ما بصير تظلي بالشارع، شو؟؟ ما في إخوان! ! ! انتي مش كلبة، ولا تامبي خسيسه.

– يكثـر خـيرك ويعز مقدارك، أخـو وأعز، بس ابـن عمتي بزعل، رايحين نبات بدار المحامي عبد الرزاق.

كان هذا الحل أول ما طرأ في ذهن مكرم للاعتذار من الرجل، وفكر بأنه ذكي حقاً، وأن ما اهتدى إليه هو المنطقي، إذا اقترح الفندق فان الشركسـي سيشـيط غضباً، ثم ليس له في عمان إلا بيـت ابن عمته، هذه هي الأصول، ولا يسـتطيع مشاركة ولده عزمي حجرته في مدرسة الصنايع، أثار مصطفى حنق والده فجأة، حين اقترب منه هامساً مستنكراً:

– بدك تبات بدار النصرانية، معقول يابه؟؟

– بـو يمزع نيعك مـزع.. هاذ لولا الله نشـلها بمعجزة مـن عنده كان أكلتوها، جيل واطي صحيح، ابلع لسان الحية، وسد ثمك يا ولد.

يعرف مكرم أن ولده يسحب البساط من تحت قدميه خطوة وراء خطوة، يصبـح الآمر الناهي في مزرعة الزيتـون، يتدبر أمر إخوته، يرافق أمه إلى المدينـة، ويفاصل التجار حتى في حضور والده، ولكنه لن يسـمح له بمزيد من الاستهانة، عليه أن يعرف أنه سيظل الولد، كما أن عليه أن يسير خلف والـده، وهما يتجهـان إلى بيت المحامي خائضـين في الطين، تبع مصطفى والده،وقد تملكه الغيظ:

– يابه بدي امشي قدام مشان أرد عنك الهوا..

– هوا يهفك.. ورا.. ورا.. امشـي، مشش يهد ركبك، هو أنا صغير ما بعرف أمشي! ! والله عال.

اشـتدت الريح وصفرت، وفتحت السـماء طاقة كبـيرة مخيفة فانهمر مائي بجنون.

***

(عبر لي عن معنى الرؤيا

حتى أعرف مغزاها ونتيجتها

أنت تريد أن تعرف مغزى الرؤيا
فانتبه إلى المعنى الذي أبلغك به
يا حائط
اسمعني يا حائط
يا كوخ القصب تفهم كلماتي
انقض بيتك وابني لك فلكاً
انبذ المال وانج بحياتك
والسفينة التي ستبني فوقها احكم بناءها
فلا ترى الشمس داخلها
ولتكن حبالها متينة
واجعل القير ثخيناً لتكون السفينة قوية
أرعد الإله في السحاب
وازدادت الرياح في شدة هبوبها
وغطى الناس الظلام الدامس
وجاء الطوفان).

ملحمة اترا حاسس – قصيدة بابلية حول الخلق والطوفان عنوانها (حين كان الإله مثل الإنسان)

أصيب موظف إدارة الآبار والمياه بالدهشة، لأيام متصلة لم أنقطع ليلاً ولا نهاراً، وارتفع منسوب المياه في آبار المراقبة إلى حد لم يصله قبلها، منذ أعوام وهو يرقب المنسوب ظاناً أن خط الخطر خط وهمي، إذ لم ير المنسوب يصله أبداً، حتى في العام الماضي ألف وتسعمائة وسبعة وثلاثين، حين خيل إليه أن المنسوب ارتفع فإنه عاد وانخفض سريعاً في غضون أربع وعشرين ساعة، في أعوام أخرى كان المنسوب تحت الخط المتوقع، مما جعله يتوقع أن المدينة إذا ظلت على هذا الحال من شح السماء، وتزايد الخلق والسكان،

فإنها ستشرب ماءها خلال أعوام قليلة، ويستحسن أن يفكروا منذ الآن ببناء سد يحبس مائي، ربما على وادي عبدون الغزير، وعندما أشار إلى فكرته تلك مرة، وهو يستحم في حمام النصر، والماء يهدر عبر المصارف الثلاثة التي تنفتح على أرض خلاء، ضحك منه الرجال، وقالوا:

- يا مهندس.. خيالاتك راحت لبعيد، شو بده يجفف السيل!! هاذ جاي من مية الله.

لم يمنعه الآمان الذي يعيشه الناس من الشعور بأن كارثة قد تحل، ولأنه توقع الجفاف، فإن هجومي المتواصل الغزير، وتجاوز المنسوب في بئر الاختبار والمراقبة أدهشه وأقلقه، قرر عدم مغادرة الموقع مراقباً تلك الظاهرة على مدى ثلاثة أيام متوالية، وأرسل إلى أهله أنه منشغل بأمر كبير الأهمية، وعليهم أن لا يتوقعوا عودته قريباً.

أما الرجال من جيران ملحم صاحب مصنع البوز، والذين خرجوا يبحثون عن الولد مروان فسرعان ما عادوا دون خبر، وقد عرقلت بغزارتي وبرك الماء في كل البقاع مساعيهم، وهمس أحدهم في أذن والد الفتى:

- لا يكون لحق صاحبه ع بيروت!!

- كيف بده يلحق صاحبه، الترين واقف من يومين؟؟ خايف هالحمار يكون راح حد السيل.

- يا زلمه هو في حدا قادر يوصل حد السيل!!

شعور بالتهاون حبس ملحم في بيته، سيكون الولد في بيت أحد أصحابه، ولعله هج حقاً إلى بيروت، شعر ملحم بالارتياح الخفي.

ارتبك رجال عمان ونساؤها في البيوت، فما عدت أتقطع ولكني أواصل دون هدنة، لم يعودوا يستمتعون بجلسات شي الكستناء الوادعة، فمائي الذي كان يتسلل سرسوباً خجلاً من تحت الأبواب في البداية، راح يدفع أخشابها بعنف، ويدخل مثل لهب نار حركه الهواء، البيوت العالية

وحدهــا نجت من دخول المياه المدمر إلى الداخــل، حاول أصحاب الدكاكين رفع ما أمكن مــن بضائعهم عن الأرض إلى الأرفف والطاولات، ونظر بائعو الأقمشة إلى اللفائف المبتلة بحسرة، وبإيمان الذي أيقن بقضاء ربه، احتسبوا خسارتهم تعويضاً عن سلامة أرواحهم، فأغلقوا دكاكينهم ولاذوا بالبيوت، وأطارت رياح شرســة هوجاء أســقف بيوت الطين المبنية عند ســفح جبل القلعة، فسمع الناس في بيوتهم عويل الريح وهي ترفع مسطحات الزينكو، ثم تسقطها أرضاً، وتكسر قرميد بيت المفتي، وتطيح بالأعمدة الخشبية التي كانت تحمل مصابيح الشــوارع، وتميل سيقان الصفصاف في اللويبدة، وقصر رغدان، قبل أن تقصفها تماماً، وتطرحها أرضاً ليسحبها سيل الماء، لم يثن هذا التوحش في الطبيعة تامبي عما في رأســه، رغم توســلات شــحرخان، إلا أنه خرج بثوريه وعربته من الخان الســفلي تحت ســكنه، والذي امتلأ بالطين والقش العائم على وجه الماء، جر الثوريين بصعوبة، فتجاوبا ذعراً، شد رباط العربة إليهما، متجاهلاً ضربات الريح على وجهه وجسده، خاض بعربته وثوريه في الدفق المندفع بما كان بالأمس شــارعاً، قاصداً سفح جبل القلعــة، كان يعرف أن لامنجى لثوريه وعربتــه إذا لم يودعهما في المغارة الكبيرة التي تنفتح في قلب الســفح بميلان خفيف، يجعلها مكاناً يستحيل علــى المياه أن تتجمع فيه، لقد جربها في الماضــي، وعليه أن يصلها في هذا الموسم، وبخ نفسه كثيراً لتأخره في القرار، عند أول طلوع القلعة راح يشتم، تارة بالعربية وتارة بالشركسية، رأته زوجة ملحم التي تنتظر ولدها قلقة عند النافذة رغم سحب الضباب، وغبش المياه المتساقطة.

– مش هاذ أبو شــبانور! ! شــوفوا الختيار الله لا يعوضه، طالع بمثل هالمطر! !

ويرد زوجها القابع أمام كانون النار في الداخل:

– مثل ما جناب ابنك الله يحرسه طلع وبهدلنا وراه، خله يــبين،

والله لأحسب الله ما   خلقه.

صمتت المرأة، وزاحمت فايزة عند النافذة، مسـحت الندى عن الزجاج بكم فستانها، ألصقت وجهها، وقالت بلهجة جادة منذرة:

– ملحم.. خاف الله الزلمة رايح يهور بالوادي..

لم تخطـىء فايـزة في ظنونها، توقـف أحد الثورين محتجـاً على هذه الرحلة الشـاقة، وانحبـس دولاب العربة الأيمن في فجـوة عميقة لم يكن بالإمكان تفاديها أو رؤيتها أساسـاً، ولأن تامبي غضب وفقد سيطرته، راح يجـر الثور بعنف، ويحرض الثور الآخر علـى المتابعة، وقد سمع طرقعة انفصال الدولاب الأيسـر عن الخشبة التي تشده إلى العربة، ومالت القافلة السائرة إلى جانب من الطريق، أيقن تامبي انكسار العربة، وغاص تماماً في المـاء والطين المتدفق حتى ركبتيه، كانت المياه تعلو وتنخفض متلاطمة على صدره الكهل وهو يبذل جهداً في تلقي صفعاتي ريحاً وماءً شرساً ينهمر من الأعلى كالغضب، سمع نداءات ملحم تناشـده التوقف عن مواصلة الصعود، ولكنه تجاهله مزهواً:

– هذا التيسـه ملحم أبو بوز، شـو بفهمها بالمطـر؟؟ أنا ابن قبردينا، ابن المطر.

خـار الثـور فجـأة، وانقلب طاعجـاً حوافـره تحت جسـده الثقيل، ورغـم كل مـا بذله تامـبي لإيقاف ثوره مجـدداً فإنه لم يفلح، شـعر بأن شـيخوخته خانته وخليت به، وأمسـك حزنه عليه، وهـو يتقبـل غاضباً مسـاعـدة جمع مـن الرجال جازفـوا بالخـروج إليه إثر صيحـات ملحم المتلاحقـة، تاركين الثورين والعربة يسـحلان مع سـيل المـاء الهادر من أعلـى الجبـل إلى قعر السـفح، ملتقطين العجـوز الذي أدرك أن كسـراً ما أصـاب قدمه أيضـاً، والذي راح يصرخ بالشركسـية منادياً أناسـاً لا أحد يعرفهم سـواه، بكى بحرقة وهو يتدثر بفروة ملحـم قرب كانون الفحم،

ويكتشــف أن تلك اللحظات التي مرت به لم تكن في أعالي جبال البروس، حيث الهجرة والبطولة والألم، ولكنها هنا في عمان.

لم يخجل تامبي من دموعه التي ذرفها تأسياً على ثوريه وعربته، حتى عندمــا اندفع أحمق إلى البيت مؤكداً أن هناك من شــاهد جثة مروان عالقة في قنطرة العســبلية، صم أذنيه عن عويل أم الفتى وعمته، عن حزن ملحم، وما أصابه من جنون مؤقت، وانهمرت دموعه تبكي ثوريه والعربة، ثوراه مثل أبنائه، وليس الفتى بأعز على أبويه منهما عليه، والعربة عشرة عمر طويل قاس، وليس ما نحبه بالضرورة دائماً، بشر.

مكن رجــال من الوصول إلى منزل أديب البكــري طالبين منه أن يحث صحبــه الرياضيين لاســتخراج جثــة الفتى مــن الفجوة في أعلــى القنطرة الرومانيــة، وراح بعضهــم يراقب من نوافذ عالية مجموع الرجال الشــبان الذيــن ألقــوا أجســادهم في قلب غضبي، ســبحوا عكــس التيــار وعاركوا الحوامــات الكبيرة وصولاً إلى القنطــرة، فعاندوا الموج، وهو يلطم وجوههم ويعوق حراكهم ساحبين الجسد الصغير، وعند أعلى نقطة من جبل القلعة، تحت انهمــار المطر وقرب بقايا القصر الأموي، تم دفن الجثة بســرعة... وازددت عتواً.

رغــم احتباس النــاس في بيوتهم فإن أنباء شــجاعة فرقة الإنقاذ عمت المدينة، وتناقلت النسوة خبر موت مروان غرقاً، تنهدن بحسرة قائلات:

– الله يعين ميمته ويصبرها، معقول ياربي، عشر تيام والمطر ما وقف!! عمرها ما صارت، هاذ غضب من الله، هي آخر الدنيا، قرب يوم القيامة، الله يعينا ع ساعة الحشر.

أمــا الرجــال فدعوا الله أن يرفع هــذا العقاب الســماوي، وعلق أحدهم بخبث حول موت مروان المأساوي.

– الله ما عنده حجار يراجد بيها، أكيد أبوه ملحم عامله عمله، يا ظالم

حدا.. يا غاش بالبوظة.. الله ع الظالم.

أسكته الآخرون بحده، لا شماتة في الموت، وكلنا تحت رحمة الطوفان.

اثنان وسبعون يوماً ماطراً داهمتُ فيها عمان في مطلع القرن، عام ألف وتسعمائة وثمانية وثلاثين، عندما كفت السماء، تحسس البشر أنفسهم أولاً، ثم تفقدوا أشياءهم وأحباءهم، ظلوا ذاهلين، (صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) سورة الحاقة = ٧ معقودي الألسن زمناً قبل أن يحدثوا بحكاية الطوفان الأخير، وقبل أن يشرب القوم ماءهم حتى القطرة الأخيرة، ويلف المدينة جفاف لم تعرفه.

حديث اليوم

بعد الحرب، وبعد أن أعلن اليهود دولتهم في فلسطين، وصارت الإمارة في شرق الأردن مملكة، وأنيرت بالكهرباء حتى أصغر قرية فيها، بعد أن أخرت أعمال العصابات الإسرائيلية عريس جانيت الشركسي عن القدوم من حيفا، ثم منعته الحرب من الزواج، فارتبطت جانيت بزوج عربي من الحجاز، وغزا الشيب رأس أسمهان، وصار لها خمسة من البنين وبنتان، وبعد أن ورط عبد الرحمن تجارة والده بصفقة خاسرة، بعد أن وافى الأجل مسعد في درب الحوريات كهلاً وحيداً غريباً، وقضت رفقة نحبها على اسفلت شارع السلط بحادث سيارة، وبعد الزيارة الخاطفة التي قدم فيها غالب إلى عمان من بيروت وقد صارت له عائلة وأبناء وتجارة هناك، فالتقى أعضاء العصبة كالغرباء، أنزور سفير في الخارجية وعزمي عامل في محل مواد البناء المسمى ادلبي ملص الواقع في حارة علي فاخر، بعد أن أغلق مصنع البوز وتحول إلى محل لبيع ملابس البالة المستعملة، أدخل القوم إلى عصر المينة بالبنطلونات والجاكيتات المقلمة.. بقايا ما استخدمته شعوب أخرى غنية.. وبعد أن عادت هيام إلى عمان، واقترنت بمدرس اللغة العربية في مدرسة تراسانته حيث كثر المعلمون المستجلبون من لبنان، وبعد ثلاث حكايات عشق فضائحية صاخبة لاعتدال اللعوب، وبعد تقاعد مؤتمن حأبوشة من شركة خط الحجاز الحديدي، وبعد أن فتحت لميا عيادتها لعلاج الأطفال في جبل عمان، ومات عرار الشاعر بسكتة قلبية، ، وقتل الصليبي برصاصة طائشة في رحلة صيد، واعتزل أديب عباسي الناس والدنيا في صومعة ناسك، بعد زمان أهوج قلب الحاضر كأنه الطوفان، تقلب على رأس المملكة ملوك عددا، عبد الله وطلال والحسين ثم عبد الله، رسم مهندس على الورق مشروعاً متخيلاً لسد عبدون، ، ووضع دائرة كبيرة حول خانة التكاليف، أربعين ألف دينار أردني، انتشى المهندس صاحب الفكرة

بالتصور المستقبلي وقال في نفسه:

- بس أربعين ألف!! يا بلاش، أربعين ألف، لو امتدت عمان لحدود السلط ووصلت إربد، عمرها ما بتعطش، لو صار سكانها بالملايين، عمرها ما بتنشف.

تم شَطب سد عبدون الذي كان يحلم بحبس مياه الأمطار، وبأن سيل عمان سيظل مسكوناً بالسمك، صاحب الأنامل التي شطبت الموضوع، وحفظت ملفه في خزانات الغبار، هتف يومها:

- أربعون ألف دينار، يا الله!! أي منشأة تستحق مثل هذا الرقم الفلكي..

راح السد الذي لم يقم، ونشفت عمان.

عندما توغلت الحفارات في الأرض عام ٢٠٠٠ لضرب أساسات المركز الثقافي الملكي، نبع الماء، غمر شلال من خير الماضي العمال الذين تراكضوا في كل اتجاه حتى استوعبوا القصة، إنه النهر الذي جافانا وغاب عنا، الذي قاطعنا وعاقبنا، لم يكن حبل مسعد وحده يلوح بين الحجارة، الماء أيضاً اندفع مشوقاً، وتم سحبه بعد ذلك إلى حاووز خاص، لتشرب منه المناطق المحيطة.

الأرض أذكى من الإنسان، الأرض أكثر حناناً، الأرض تسترد ما لها بالكامل، لا تساوم ولا تجتزئ، ولا ترتضي بأنصاف الحلول، لا تخوض المعارك مع البشرية، تترك الأمر للريح والمطر، للنار، لحماقة الإنسان ذاته، لحراكه المدمر، وشهوته المضيعة.

عندما قررت الأرض أن تغب ماءها، أعمت أعين البشر عن التنبه، واللحاق بالماء، شغلت التجار بتجارتهم، والكتاب بأحبارهم، والأمير بعرشه، والكبار بمواقع أقدامهم ومطارح مؤخراتهم السمينة، وقالت الأرض كلمة فصل في أمر الماء، امتصته حتى آخر قطرة، حفظته ربما لحياة

جديدة في مستقبل سعيد

(وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي، وغيض الماء وقضي الأمر)
الآية ٤٤ من سورة هود

يا رب اسكنا روضة نبيك، حبيبك المصطفى، فنحن الفقراء المهاجرين، شعث الرؤوس، دنس الثياب، يا رب.. يا رب.

سميحة علي خريس

صدر لها في مجال القصة القصيرة مجموعتان هما

– مع الارض– دار الأيام – الخرطوم عام ١٩٧٨.

– اوركسترا – دار الكندي – الاردن ١٩٩٦.

أما من الروايات فقد صدر لها حتى الان عدد منها وهي :

– رحلتي – دار الهيثم – بيروت ١٩٨٠.

– المد – دار الشروق – الاردن ١٩٩٠.

– شجرة الفهود – تقاسيم الحياة – دار الكرمل – الاردن ١٩٩٥ وتحولت إلى دراما اذاعية كتبت السيناريو اللخاص بها المؤلفة.

– شجرة الفهود – تقاسيم العشق – دار شرقيات القاهرة ١٩٩٧، أعدت سيناريو اذاعي كما صدرت طبعتها الثانية عن وزارة الثقافة الاردنية ٢٠٠٢.

– القرمية ١٩٩٩– أمانة عمان – الطبعة الثانية دار السنابل – القاهرة وحولت إلى دراما اذاعية ٢٠٠٣.

– خشخاش – المؤسسة العربية للدراسات – بيروت ٢٠٠٠، واعدت عملاً مسرحياً وسيناريو اذاعي.

– الصحن – دار أزمنة – الاردن ٢٠٠٣

– دفاتر الطوفان ٢٠٠٣ في طبعتين، اردنية عن أمانة عمان، ومصرية عن الدار المصرية اللبنانية في القاهرة وترجمت إلى الاسبانية ٢٠٠٦ دار دون كيشوت في مدريد – ويجري تحويلها إلى مسلسل تلفزيوني حالياً من انتاج المؤسسة العربية، كما تجري ترجمتها إلى اللغة الالمانية.

– رواية بعنوان «امبراطورية ورق – ناره» – عن دار نارة للنشر والتوزيع – عمان – الاردن ٢٠٠٦.

– رواية بعنوان " نحن " عن دار ناره للنشر والتوزيع ٢٠٠٨.

– الأعمال الروائية عن امانة عمان ٢٠٠٨.

– رواية بعنوان «الرقص مع الشيطان» عن دار نارة ٢٠٠٩.

– رواية مخطوطة بعنوان «يحي الكركي» .

– تم اقرار قصة قصيرة لها بعنوان «سميرة» في منهج المدارس السويسرية الثانوية.

– صدر النص المسرحي" خشخاش" مطبوعاً عن دار نارة للنشر والتوزيع ٢٠٠٨.

الجوائز

جائزة الدولة التشجعية عام ١٩٩٧ عن رواية شجرة الفهود.

- الجائزة الذهبية في مهرجان القاهرة للدراما عن السيناريو المعد عن رواية شجرة الفهود.
- جائزة أبو القاسم الشابي من تونس عام ٢٠٠٥ عن رواية «دفاتر الطوفان».
- جائزة منتدى الفكر العربي عن الابداع الادبي لمجمل الانتاج عام ٢٠٠٨.